روايـة

ما وراء الفقد

بدرية البـــدري

بيت الغشّام
للنشر والترجمة

المنتدى الأدبي

ما وراء الفقد

المؤلف: بدرية البـدري

(كاتبة من سلطنة عمان)

الطبعة الأولى: 2015 (مسقط)

المنتدى الأدبي

الموقع المؤقت: مسقط، الغبرة الشمالية، شارع نوفمبر

ص. ب: 1777، الرمز البريدي: 111 البريد المركزي

هاتف: 24493424 00968، فاكس: 492575 00968

litsoc@omantel.net.om

سلطنة عُمان

بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة: التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان – مسقط)

للتواصل: هاتف: 99260386

ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320

www.altakween.com

لوحة الغلاف: عاليه الفارسي

التصميم الداخلي والغلاف : سارة بنت سعيد العلوية

حقوق النشر محفوظة للمنتدى الأدبي، ولا يحق إعادة الطباعة أو النسخ

إلا بإذن كتابي من المنتدى الأدبي

رقم الإيداع561/ 2014

رقم الايداع الدولي (ISBN):

978-99969-59-55-4

ما وراء الفقد

بدرية البـدري

ketab4pdf.blogspot.com

(1)

عُدْ إليَّا

رُدَّني رَدَّا جميلاً

وامْحُ حزنا نازفاً من مُقلتيّا

يا حبيبي

كم مشينا والخُطى ترجو لقاءً عابراً..

أو صدفة تحنو بها الأقدارُ عِطْرا أبديّا

الشوقُ حفلةٌ صاخبة لم تنتبه لطلوع النهار، فظلت تعزف أغنياتها وتهدي لحظاتها التمايل على وقع موسيقاها، وشوقي إليكَ لا يهدأ ولا يستكين، يظل يلعق أضلعي دون هوادة، يمارس عليّ سطوته وهيمنته، يُحيلني دمية خشبية يُمسك بتلابيب خيوطها ويتحكم بحركاتها، وأنا كالمخدرةِ أو كالسَّكْرَى لا أملك أمري، ولا حيلة لي سوى الانصياع لأوامره التي يُمليها عليّ كلما انتفض بصدري عصفور جريح، أو انسابت من روحي أمنية أو توسّدت أنفاسي خيبة، لا يعرف الغياب، ويتقن الحضور بشكلٍ مبالغٍ فيه، يباغتني كلما أغمضتُ عيني على وجع، وفتحتهما على جرح، يأتيني كأصابعك حين تطرقُ باب خدي لتتسلل إلى روحي قبل أن أُشرِع لك أبوابها، فيدخلني في خَدَرٍ لذيذ، ويهجرني كروحك فيُرديني لسابع أرضٍ لا ثامن لها.

والحنين ربيعٌ دائم لا يعرف الذبول ولا يخشى الصيف، له وقع الأمطار وهي تَعِدُ الأرض بخصبٍ سيطول، كالزهرِ يراودهُ العطرُ عن شذاه، وتصطف له الرياحين تمد أوراقها ليهبها أنفاساً تُعيد لها ثقتها بنفسها، وأخشى أن يباغتني الخريف دون أن أنتبه لمقدم الصيف وأتفاجأ بتساقطي السريع، هكذا بلا سابقة إنذارٍ وبدون أن تتوضأُ الريح تُسلمني للأرض أوراقاً تبكي قدرها المحتوم وأمها المكلومة بها، وعلى غيرِ هُدىً تلتحف بعضها وكل جزءٍ منها يُخبئُ أخاه ولا يدرون أن من غطى إخوته بجسده ستحمله الريح ومن حمل إخوته على كتفه ستأكله الأرضة.

آمنتُ بك، وكفرت بكل ما يمكنه أن يزعزع هذا الإيمان بصدري،

ومضيتُ بك للحياة ،معك أو بعيداً عنك لا يفرقُ الأمر كثيراً لدي، فأنت المُضغةُ التي استويتُ منها أنثىً يعشقها جميع الرجال ولا ترى رجلاً سواك، وتحسدها جميع النساء ولو علمن عنها لما طِقنَ أن يعشن حياتها يوماً واحداً، بالمقابل هُنّ لا يعلمن أيضاً أنك عمري المعتق بالزنابق والصنوبر والياسمين والورد، وأنك أطفالي الذين خبأتهم لعكازي، وألبستهم شيبي، أخشى عليهن أن يُقطّعن أيديهُن إن خطفن عينيّ ورأينكَ بها، وتلومني على احتمائي الدائم بنظارتي، هل عرفت الآن سر اصراري على ارتداء نظارة رغم أنني لا أشتكي ضعف بصري، فكما أن بعض الرجال يهوون سرقة حبيبات الآخرين، كذلك بعض النسوة لا يُرضي غرورهن سوى رجال الأُخريات، وأنت رجُلي الذي منحتني إياه السماء هدية مغلفةً على شكلِ قَدَر، هل يحق لي القول الآن أنني غُبنتُ بك، وأنني حين فضضت غلاف هديتي وجدتها خاوية، لأن أنثى صادفتك حين هبطت من السماء فخطفتك خِطفةً دون أن يتبعها (شهابٌ ثاقب).

أوقفت سيارتي في مواقف المطار، نظرت لساعتي، لا يزال الوقت باكراً على موعد وصول طائرتك، ولكن خشيتي من التأخُر عليك وانتظارك بثياب التعب جعلني أُبكِر في الوصول قبلك بأكثر من ساعة، ولأكون صادقةً أكثر فما أتى بي هو الشوق الذي لا يُحسن الانتظار، نظرت لبطاقة المواقف المدفوعة وقدرت عدد الساعات التي سأقضيها قبل أن أخرج من هذه المواقف وجهزت النقود التي يتوجب عليّ دفعها لأخرج حتى لا أتأخر عند خروجنا معاً وأُضيع الوقت في عمل أشياء ستأخذني من عينيك، وتحرم يديّ الاستسلام لدفء أصابعك وهي تحسب النبض في أوردتي النافرة من

جلدي وكأنها تستنجدك قُبلة تُهدئ روعها، هل ستقبلني؟ أم أنك ستتجاهل الأطفال المتقافزين بين ثنايا دمي فرحةً بحضورك، وستوليهم شطر الجفاء وتتركهم يُطمرون خيباتهم في ظهرك دون أن يتذوقوا كلمة بابا بين شفاههم الصغيرة لتتلقفها أذنك بحبٍ، وتضمهم لصدرك كلما أوشكوا على البكاء شوقاً إليك، فيهدأ روعهم، وينامون على صدى صوتي وأنا أغني لهم الأغنية التي حفظتها من أمي:

دبدبوه دبدبوه

يكبر ويلاقي أبوه

شل رجيله وحط رجيله

عسى بابا يضوي الليلة

أغنية شعبية عمانية

أُعيد النظر لساعتي، لا تزال كعجوزٍ غاضبة تتوسل عكازيها المُضي وتعجزُ عن رفع قدميها عن الأرض، فتركل الطريق بعصاها وتسقط تستجدي يداً تمتد إليها لتعينها على الوقوف مرةً أخرى لتمضي.

أشك الآن ببطارية ساعتي، هل نشفت أوداجها لتمر الدقائق بهذا البطء المقيت؟ يبدو أنني أحتاج لاستبدالها بأخرى تطارد العقارب لتقهر الوقت وتسلبه ثوانيه عنوة، أُغافل ساعة السيارة بالتفاته، فتحدق هذه الأخيرة بعينيّ بوقاحة مؤكدة صدق ساعة يدي، ولا أدري لِمَ أجزم أن كليهما كاذب، وأن نبضات قلبي لا يمكن أن تكذب عليّ، فهي تقُسم لي أنه قريبٌ جداً، وأن الوقت ليس سوى لعبة تتسلى بها الأشواق قبل أن تنثر ورودها على أرواحنا

الظامئة للقاء لا يشبه السراب ولا يخونه الغيم.

تجوّلت أحداقي في المواقف المزدحمة بالعابرين من وإلى الغياب، ترى كم حبيباً عاد وكم قلباً سيرحل ولن يعود، كم لهفةً ستشنق على عتبات هذا المطار، وكم أمنية ستزهر بين أروقته؟

الوجوه لا تشي بالأرواح إلا نادراً حين تخونها دمعة فتفضح ما يعتمل بالروحِ من وجعٍ لا تحتمله، والوجوه في المطارات جامدة لا تُنبئك بخبر أرواحها الساكنة في دعةٍ متناهية خلف الأعين المنتظرة، ليس سوى الأجساد التي لا تمل من الحركة والمجيء والرواح في حركة ديناميكية لا تنبئ بغياب أو حضور، ولكي لا تأخذني الأرواح التي ضجّ بها المطار بعيداً عنك، تعمّدتُ أن أدسّ وجهي في السماء وأُبقي عينيَّ معلقتين بها علّني أبصرك بإحدى الطائرات السابحة في ملكوتِ الغيابِ والحضور، رأيت عينيك المتلهفتين لاحتضاني لتطير بي إلى حضنك وتغرسني في قلبك الممتلئ بعشقي وشراييناك التي تناوبت على دفقي نحو روحك، رأيتُكَ تعدُّ الغيمات وتسابق الدقائق اللاهثة لتلقاني، وتهذي باسمي لدفتر ذكرياتك، ولجارك في الطائرة، ولمضيفة الطيران حين تأتي لك بالعصير أو سماعات الأذن التي ستشغلك عن ملاحقة الوقت، رأيتك تخبئ شوقك في حقائبك قبل مغادرتك الفندق لتبسطه لي مع هداياك الكثيرة، ضحكت عليك وأنت تشم عطري في قميصك الذي أودعته حقيبتك خلسة لكي تتذكرني ولا يخونك عبقي هناك، ولربما ضحكت لأن آثار قبلتي تركت أثرها على عنقك وأنا أودِّعك، وحتى مع مرور الأيام بقيَ الأثر ماثلاً لعينيك وما تعمّدت إخفاءه برفع ياقة قميصك لأنك لم تُبالِ بسؤالٍ عابرٍ أو ابتسامة ماكرة قد تبعثها آثار قبلة محمومة..

تحولت ابتسامتي لضحكة هادئة ولكنها طويلة، واحمرّت وجنتاي خجلاً وأنا أتذكر أني وعدتك أن أهديك ذات القبلة حين عودتك وأن ذلك سيكون في صالة القادمين بمطار مسقط..

لا تنظر إليّ هكذا، ولا داعيَ لأن تهمس لي: أيتها الكاذبة الصغيرة؛ متى حدث ذلك؟

فأنا أعلم أنني أهذي، فلا أنا قبّلتك ولا أنت ارتديت القميص الذي وضعتُ عطري عليه، لستَ مضطراً صدقني لأن تذكرني، فهذه الرجفة التي تمتدُّ من روحي لأطراف أصابعي تشي بكل شيء.

وأكادُ أرى طائرتك التي تفترش السحاب تراود النور عن وجه (منى) علّك بهِ ترتّدُ بصيراً؛ فتراني، أنا التي ما أتيتُكَ بعشقٍ كَذِبْ، ولا رميتُ روحك بجُبِّ الفراق، ولا نازعتك في الحلم عن كواكب ستخرُّ دونك منطفئة قبل أن يخطِفها الفجر.

لطالما كانت النفس هي الوعاءَ الذي يتسع لما يعتمل بدواخلنا دون أن تفيض لتخبر الآخرين أننا نعاني في الوقت الذي نستتر به من أعيننا، ولكنني أشعرُ أن نظرات الآخرين تقرأني حرفاً حرفاً دون أن يهتم أحدهم بأحاديثي التي تقسم لهم ألف يمين أن لا بأس يعتريني، وكأن ما بداخلي سُطِّرَ على جلدي بأحرفٍ كبيرة وبارزة يقرأها حتى الأعمى، وأحاول أن أسترني بأثوابي التي شقها الحزن من قُبل.

أمضي وفق قَدَرٍ لي به حولٌ ولا تُسعفني له قوة، بيدي كل شيء ولا شيء بيدي، حَدَثٌ مَبْنّيٌ على المجهول لا يمنحنا التيقن رغم أننا نظن بفاعله،

ورغم أن الشبهات لا تدور إلا حوله إلا أنها تبقى عاجزة عن الجزم بحقيقةٍ ما، معادلة أصلها صفر وناتجها صفر مهما تعددت الأرقام التي نقسمه عليها تُحيلنا للصفر دائماً، هكذا أنا صفر اليدين دائماً منك، وأنت ككل تلك الأقدار التي تباغتنا فتأخذنا على حين غرة ولا تمنحنا فرصة التقاط أنفاسنا أو التنبه لها والحذر من الانقياد لها، تداهمنا دون أن نكون مستعدين لها، فننقادُ لها بأعينٍ معصوبة وإراداتٍ مقيدة خلف أحلامنا، لو أنها تمنحنا فرصة كتابة وصية تنبه من يقطنون الحلم ذاته بعدنا لعلهم يسلمون من سطوة قَدَرٍ غاشم، ماذا لو أن علماء الرياضيات اكتفوا بمعادلاتٍ نتائجها موجبة، لا تجعلنا نخرج خاليي الوفاض من أحلامنا، لو أن كل الأفعال بُنيت على المعلوم، حتى لا نتعب في البحث عن المجهول الحاضر بيننا، أو أن تضاعف آلامنا أدّى لأفراح كمضاعفة الأرقام السالبة التي توصلنا لعدد موجب.

لا بأس!

الحياة بمجملها لعبة لا بد أن نتقنها، أو على الأقل نلعبها إلى نهايتها، سواءً ربحناها أو خسرناها، لنكسب شرف المحاولة طالما أننا عجزنا عن الفوز.

أعتقد أن الانتظار بداخل المطار أرحم من التلظي بشمس مواقفه، لأنه يبعث بداخلي هذياناً أخشى أنني لن أتقن التملص منه في الوقت المناسب.

«كل شيء يبدأ صغيراً وينتهي كبيراً، إلا الموت؛ يبدأ كبيراً وينتهي صغيراً».

لم أصدق عبارة كهذه العبارة، حيث ظلّت عالقة بذهني منذ أن قرأتها وأنا صغير في إحدى المجلات إلى أن مُتِّ وتيقنتُ أن الموت مهما كان مهولاً لحظة حدوثه إلا أنه يتعاظم كلما مر بيّ العمرُ دونك، لم أشأ أن أتعلم النسيان رغم أن فاطمة ما فتئت تُهجئني أحرفه، ولا أدري بأي وجهٍ سأقابلك حين تسألينني عن فاطمة، ظلكِ الذي انفصل عنكِ وما رافقكِ حين رحلتِ، حتى ظلالنا تتبرأ منا حين نسقط، يخذلنا كل شيء ونمضي وحيدين، والأرواح التي تُصلي لنا لا تلبث أن تملّ صلواتها وتنسى، وكأننا في سباقٍ محمومٍ مع النسيان، نجري ونجري لنسقط قبل أن نصل لخط النهاية، ويستلم النسيان كل شيء أحلامنا وذكرياتنا وأعمارنا ويمضي مزهواً بنصره ويتركنا نتلوى من الألم، ونختنق بفشلنا وتجف أحلامنا قبل أن يبللها السراب.

ولكن لا عليكِ يا صغيرتي، فالعمر لا بُد أن يُعاش ـ هكذا قالت فاطمة وهكذا أقنعتُ نفسي ـ والأقدار التي تسحقنا هي ذاتها التي تمد لنا طوق النجاة ونحن نغرق ولا ندري أننجو أم نغرق أكثر، كل ما أعلمه الآن أنني أجر أذيال نكبتي بكِ أينما ذهبت وكيفما حللت، ولا أدري كيف يراكِ الجميع رُغم أني اعتدت إغماض عيني عليك كل لقاءٍ مع عابر سبيل في طريقي خشية أن يُبصركِ فيستحث النسيان ليراودني عنك.

الطائرة تُحلِقُ بي وأنا في طريق عودتي إلى مسقط، كل شيءٍ يبدو كلوحةٍ مُتقنة الخطوطِ والألوان، وأنا معلق بين السماء والأرض كقلبي المعلق بين الموت والحياة، تتنازعيني لأرحل إليكِ ويُصرُّ العمرُ أن أمثُلَ دونكِ كتمثالٍ

تعب من الوقوف وانتهاش أعين المارة لتفاصيله التي بدأت بالتلاشي بتعريات الألم، وبئس من قدرته على طرد الطيور المنهكة التي تُريح أجنحتها على كتفه كلما أثقلها الطيران بحثاً عن وجهةٍ دافئة، وتبقى تنقرُ رأسه حتى يُصاب بالصداع الذي لم يعرف كيف يتخلص منه يوماً حتى بدا له أنه سيشكو المرض إن لم يشعر بالصداع ذات يوم ورضيَ بأن يُخفضَ عينيه لكي لا يروكِ فيتجرأ أحدهم على سرقة وجهك ويمضي راكضاً للموت تاركاً إياي وحيداً تعصف بي أمطار الشوق والهلع والليل والنهار والأحاديث المغبرّة والمتكررة وألسنة النسوة المتثاقلة بأحمال الأجساد المطفأة والمراهقين الشاردين لقصة حبٍ تموتُ قبل أن تبدأ وتتلاشى قبل أن تتكون وتهب رياحها على الروح برداً وسلاماً، كل شيء يبدو صغيراً إلاكِ تكبرين وتتعاظمين حتى تضخّم بكِ قلبي، وأنا الهَلِعُ عليكِ من أن تظفر بك الريح بعد أن تُمزقَ سترِكِ أو يبللكِ المطر ولا تحملينني كمظلة دافئة لم تُخلق إلا لوجهكِ لتقيه الخوف والبرد والغياب.

كنتُ أظن أن الأقلام التي تسابق أحرفي لتصطف في مقالٍ أهبه للجريدة ستنجح في انتزاعكِ من صدري وترميك على أوراقي لتهبك لكل من يقرأ الجريدة وبهذا ستخف صدمة فراقك حين يتقاسمها معي آلاف القرّاء، وخاب ظني حين جفت أقلامي قبل أن تكتب حرف الميم بأول سطرٍ تطيّر بالنسيان، وتعوّذَ بكِ من السلوى.

آآآهٍ ما أقسى انتظاركِ وهو يطول ولا تأتين، والوقت جنّد عقاربه لتلدغني كلما نقرتْ ثانيةٌ برأسي وسممتْ دمي لأُسلِّم لغيابكِ، أتصدقين أنني ألاحقُ طيفكِ في الأفق، وأسأل عنكِ خيوط الشمس فجر كل يوم علّ أحدها

يوصلني إليكِ، أو يرسم لي طريقاً شفافاً يعترفُ بالعشقِ طفلاً شرعياً للأرواح، لو تعلمين أنني همست للقمر البارحة لكي يخون الليل ولا يأتي كعادته لعل خيانته تلك تُحدثُ انقلاباً في التاريخ وأتفاجأ بكِ معي، تحتلين المقعد بجواري في السيارة، تتلصصين عليّ من نافذة غرفتي، وتتمايلين كالأشجار مع هبوب الريح مُعلنة بأعلى صوتك أنكِ تحبينني، وحين تلمحين تلفتي من حولي خشية أن يسمعنا أحد تضحكين ويداكِ تخنقان فمكِ لتكتمي ضحكتك، ونجري معاً لنختبئ من قناديل الشوارع، ولا أعود أشتاق إليكِ كما أفعل الآن، تمهّلي يا صغيرتي ولا تغضبي فأنت تعلمين أنني أكذب وأنني أشتاقكِ وأنت تلهين بدُماكِ في دمي وتظفرين لها جدائلها الملتفّة حول أضلعي، وهل أستطيع تجاهل الشوق حين تكونين أنتِ الماثلة بين حنايا الصدر تغرسين به عيناكِ وتسألين: هل نسيتني؟

ليتكِ تعودين لتلتقطي معي ما سقط من عمري سهواً بين حزنٍ ولّحْد قبل أن تدوسه قدم أحدهم ويتفتت، ولا أعود قادراً على لمّه في هيئة أيامٍ قابله للعيش، فأعيش مشرداً بين موتين أولهما انتحل اسمك ومضى والآخر لا يزال معلقاً في لوحي.

يشتاق لكِ كل شيء، العصافير وهي تَعِدُ بعضها بالوفاء، الأطفال وهم يتسابقون للصف الأمامي بطوابير المدارس، الشمسُ وهي تخون الفجر مع البحر وتلدُكِ قمراً مكتملاً تهبه لليلةٍ عقيم، المطر وهو يهاجر كأسراب النوارس ولا يعد غيمته بالعودة، وقلبي الذي علّق نبضه على شرفتكِ المهجورة لعلّ حياةً تدبُّ بها فتُغريك بالرجوع.

أتخيلني أحياناً أقطفكِ كسحابةٍ حبلى ثم أُعيدُ تطييرها للسماء، وأبقى

مركزاً بصري عليها علّها تُمطر، وتُمطركِ كثيراً كثيراً كثيراً ولا أرتوي، ونضحكُ كثيراً حين أُوشِكُ على الغرق فتسألينني: هل اكتفيت؟ وأجيبكِ أن لا؛ أحتاجُ لأن أغرقَ بكِ أكثر.

هلعي عليكِ يدفعني للتساؤل كلما أمطرت: أمن حزنٍ يسحُّ الغيم أم من فرح؟!

أتراكِ تشاغبين الغيم فيغضب ويرسل برقه ليخيفكِ فتضحكين، ويغضب أكثر ويُرعد وتضحكين، فلا يلبث أن يستسلم لبراءتك ويضحك حتى البكاء، أم تُراكِ هناك تغزلين ثوب عرسكِ بعد أنْ تناثرت لآلئه في الشارع الذي راودكِ عن روحكِ فاستجبتِ، وخنتني، نعم خنتني حين سلّمتِ جسدكِ للموت ينتهك براءتكِ وطهارتكِ، وارتميتِ بأحضانه وتخليتِ عني، لا تبكِ يا صغيرتي، واجمعي لآلئ ثوبكِ لترتديه حين نلتقي في السماء.

يأكلني الصمت والحديثُ أَسَنَ ولا لسانٌ لي يُحرّكه، الصمت الذي امتهنتهِ منذ سنين لا يشي بكِ، تآمر مع غيابكِ ككل الأشياء التي تركتها تبكي حولي، دون أن تمنحيها منديلاً يتعاطف مع دمعها المسفوح، أحلامي التي تشاركتها معكِ عمراً أمست تُخبئكِ عني، وكأنها تخشى عليكِ ألا أتركِ إن منحتني إياكِ في غفوة، أو أن أرفض الصحو وأبقى نائماً ما تقدَّر لي من عمرٍ أحياهُ بعدك مُنهكاً مكسوراً بكفين باردتين ككفوف الموتى.

الحُزنُ لا يكفي لكي أبكي ..

جرزْتُ سنين عمري خلف ظهري كي ألاقيكِ

وما جئتِ

أُهدْهِدُ قلبي المذعور كي يغفو ..

إذا خان الظلامُ حكايةَ النسيانِ في صدري وناجاكِ

لترميني بلا جسدٍ إلى الأحلامِ تجلدني وأهذي ..

أين أنتِ طفْلتي؟

مرّ الزمانُ بغيرِ صوتٍ يبعثُ الأعيادَ في عيني

بلا أنتِ ..

وظلُّكِ يخطفُ الشمسَ التي هربت ..

من الفجرِ البعيدِ كطعمِ فرحي ..

حين تبعَثُكِ الحنايا في المرايا ها هُنا

تُفشينَ سرّاً للحنينِ ..

وترتديني كالحياة

هل تعلمين ما أورثتهِ لي بموتك؟ أورثتني رجلاً خالي الوِفاض من الحياة، موتاً غير معلن، وجهاً خربش عليه الحزن تفاصيله، والكثير من الهذيان الذي يبدأ بكِ وينتهي إليكِ، وهواءً يؤججُ حرائق رئتيّ، وكلما خرج من صدري نَفَسٌ استحلفته بحبنا ألا يعود، ويعود ممتلئاً بصرخاتٍ تثقبُ أذني، مسكوناً بكل أقداري إلاكِ لا يأتي بكِ معه.

وقبل أن أبدأ بعدّ أنفاسي التي تتناقص واحداً تلو الآخر وتُقربني إليك يوماً بعد يوم، انتشلني جاري بالطائرة من رحيلي إليك:

ـ عائدٌ لمسقط أنت؟

"لا بل راحلٌ عنها ـ هكذا هممتُ بالرد عليه بسخريةٍ وانزعاج وكأن المضيف لم يردد مراراً وتكراراً: رحلتنا المتجهة إلى مسقط أو كأن تذكرته التي سُطرَ عليها تاريخ عودته ووجهتها وركب من خلالها هذه الطائرة لترميه الأقدار بجواري ليتعامل معي ككل العابرين بطريقي، ذات الفضول وذات الأعين الثاقبة التي تحاول غرس نبالها بصدري وانتشالكِ عنوة، وذات الألسن الحِداد التي تُسلط ثرثرتها عليّ لتسرقني منكِ كلما هممتِ بالمثول بين يديّ كحورية هبطت من الجنة ولم تطأ قدماها أرض ـ"

ـ نعم ـ هكذا أُجيبه وبابتسامةٍ عريضةٍ أمنحه إجابتي التي لا يخفى على أي أبله أنها مصطنعة حدّ الغباء ـ

ـ وأنا أيضاً..

يكاد صبري ينفد وأصرخ بوجهه: لا والله؟! سبحان الله! آخر ما كنت أتوقعه أنك في طريقك الآن لمسقط، وطبعاً أبلعُ ردي وغيظي، فيُضيف:

ـ يقولون أن الحر بدأ يزحف حاملاً معه تباشير القيظ، عسى أن ينال من مواسم الجدب التي طالتنا كثيراً في السنوات الماضية علّنا نظفر هذا العام بمحصولٍ وافرٍ من الرطب.

في العام المنصرم لم نجنِ شيئاً من مزرعتنا الكبيرة التي تطلُّ على وادٍ اعتاد أن يمر بالخير كلما أمطرت، هذه المزرعة ورثناها من أبي الذي مات وهو يشرطُ سعفها قبل أن تنحني وتتكسر عذوقها المثقلة بالرطب.

"ومن سألك عما تملك وعن محصولك الذي تتمناه أو عن والدك الذي نسي عمره خلف نخلةٍ وولى هارباً إلى الموت بعيداً عن نخلةٍ ما أثمر بها تعبه

وما أرواها عرقه فرمته عنها جثةً هامدة، وظلت تُثمر بعده وتطعم كل من يمر بالقرب منها،وكأنها كانت تستغفرهُ ذنبها العظيم"

ـ رحمه الله ـ هكذا أُجيب وأصمت ـ

ـ يبدو لي أنك شخصية هادئة، ولا تحب الثرثرة، مثلي تماماً؛ لا أعرف كيف يتجرأ الناس على الحديث مع الاخرين هكذا وكأنهم يعرفونهم منذ آلاف السنين أو كأن بينهم عمراً من المودة، دون مراعاةٍ لخصوصيتهم أو حتى استئذانٍ بسيط قبل بدء الحديث..

"اللهم طولك يا روح ،هل يستهبل هذا الرجل أم أن به مسًّا من خفة عقلٍ أو بلاهة؟!"

ـ من أين أنت؟

"من بلدٍ لم تعلمني النسيان، ولم تربت على كتفي حين رَحَلَتْ عني وبقيت أبكي وحيداً ولم تمسح دمعتي التي ظلت عالقة بجفني وما ارتمت على أرضها خشية أن تنمو مرة أخرى أنهاراً من وجع، وينابيعَ من الحزن لا تجف وبقيت تتأبط رمشي حاملة وجهها معي في أسفاري، ليتلصص عليّ أمثالك من الحمقى والمتحذلقين دون انتباهٍ منهم أو مبالاة بأرواحنا التي ينتهكون سترها وهي تمشط الموت لعل عِرْقَ حياةٍ ينبض به، فيبعث بها أملاً ولو كان صغيراً أو كاذباً"

ـ مسقط، أنا من مسقط

ـ وأنا من الباطنة، لا أحب الحياة في مسقط، مزدحمة جداً، أكره صخب الشوارع وعوادم السيارات، حين تدخلها وكأنك دخلت بحر لُجيٍ من

السياراتٍ التي ترى أولها ولا يبدو لك آخرها، وما أن تدخله حتى يُغرقُكَ بين الزحمة والضجيج فتنتابك موجات تعلو وتعلو من الغضب ولا تعرف كيف تهدأ حتى تصل وجهتك وقد أنهكك الضيق وسلبك سِعة أُفقك..

".... رباااااه رحمتك!

ماذا فعلتُ بحياتي لكي ينام جميع من بالطائرة ويبقى هذا الأحمق المعتوه مستيقظاً بجواري ولا ينفك يفتح فمهُ كلما شرق بكلمة أو غصت بروحه نسمة هواء"

ـ ويستمر في الحديث: مسقط مزعجة، أليس كذلك؟

ـ أكتفي بابتسامة مقتضبة دون أن أرد أو أهزّ رأسي موافقاً أو رافضاً..

ويستمر:

آتيها تقريباً كل يوم لقضاء بعض المصالح، وفي كل مرة ألعن نفسي مائة ألف مرة لأني مضطر لأن أزورها يومياً، ولكن ماذا أفعل؟ لقمة العيش والركض خلف حوائج الدنيا.

هل تعرفُ أحداً في الباطنة؟

ـ لا ـ لم أشأ أن أخبره أن بعض أهلي يعيشون هناك، لكي لا يسألني عنهم وأفتح له باباً لأحاديث لا أظنها قد تنتهي، ولكن رده جعلني أُوقِنُ أن فمه لا يُتقن الانغلاق ـ

ـ إذن سأعطيك عنواني ورقم هاتفي لتزورني كلما مررت علّنا نلتقي ونقضي أوقاتاً ممتعة معا.

كدت أن أصرخ بوجهه :لا أرجوك ،وهل أنا مجنون لألتقيك مرةً أخرى ،هل سمعت بمن يُمسكُ حجراً ويشجُّ به رأسه، ناهيك عن إدخالك بذاك الشق لتبقى توغر رأسه بأحاديثك الفارغة؟

ولكني أكتفي بأن أجيبه:

ـ جميل، شكراً لك؛ عسى أن يكون ذلك قريباً!

لا أدري لماذا تأخرنا؟

"وكأني ألقيتُ بروحي على عتبات جهنم بتذمري ذاك"

ـ يبدو لي أنك لم تسافر من قبل لذلك تشعر بالمسافة الطويلة، أما أنا فتبدو الطائرة وكأنها سيارة من كثرة ما صعدتها وجلت في البلدان إياها التي تُنعشُ الروح ـ ويغمِزُ لي بعينه ـ يعني الواحد منا يكدُّ ويتعب ولا يُرفهُ عن نفسه؟ دعنا نعيش فالعمر يومان وسيمضي مُخلّفاً خلفنا أعماراً تبحثُ عن حياة ما ارتوت منها، وما يفوتنا اليوم لن نعوضه غدا.

أُغمضُ عيني ـ مُجبراً ـ : أعتذر منك سأنام قليلاً أشعر بالنعاس

يصمتُ جاري بالعاً حديثه المقيت كلسانه الممتلئ سواداً واعوجاجاً، وأرحلُ إليها حيث كانت تنتظرني لتلقاني بابتسامتها البيضاء التي لم تفارقها منذ رحلت:

ـ حبيبي، يبدو أن جارك بالطائرة قد أزعجك بثرثرته؟!

حتى لكأنك نسيت حبيبتك على رصيف الذاكرة، تاركاً إياها تُمشِّطُ أحلامها بعودتك وتُغني لك علّك تهتدي إليها من نغماتها التي تنثرها الريح

على أجنحة الطائرة التي تقلّك.

"أرمي نفسي في عينيها وأبكي كطفلٍ فارقته أمهُ فجأة بعد أن وعدته بحمله إلى الدكان ليشتري ما يشاء من سكاكر، انتظرها كثيراً، ورغم الانتظار وجمره الذي اصطلى به كثيراً ما أتت، نسيت طريق العودة إلى وجهه، ونسي التلذذ بالسكاكر من دونها، ولكنه لم ينسَ الوقوف كل عصرٍ أمام باب المنزل منتظراً يدها تأتي لتقود يده إلى الدكان ويمرر لسانه على شفتيه متخيلاً طعم السكاكر من يدها ويبتسم للسانه المنتشي بلذة حنانها ويلعقُ ما علق بأصابعه من طعمها الذي ما عرفه يوماً، من يومها حرّم على نفسه كل الحلويات التي يتهافت الأطفال عليها، ورأى فيها شبحاً خطف أمه من بين يديه وتركه يعد أصابعه وكلما وصل للخمسة تذكر أنه ما عدّ أصابعها التي تشابكت مع أصابعه، فيعيد العد مرة أخرى، وفي كل مرة يخجل حين تنفلت أصابعها من يده دون أن تمنحه فرصة الوصول للعشرة.

انتظرها طويلاً، ورغم الانتظار ما أتت، ظلت تمنيه بالمجئ مع كل نجمة تزهر في المساء فيشير إليها: هذه أمي؛ حتى إذا ما أفلت قال :لا لا، أمي ليست من الآفلين"

ـ اشتقتُ إليكِ.

ـ أيها الشقي، ومتى فارقتني حتى تشتاق لي؟.

ـ وما لقيتكِ حتى أبرأ من شوقي، وما تلونت أيامي بكحل عينيك، ليس سوى البياض يلون مقلتي مُذ رحلتِ ،مرّيني كسحابة واغرسيني كنبتةِ ظلٍ تتفيأُ بكِ كي تحيا، وارحميني من الاحتراق بلظى الشوق فقد ذبلت عروقي

وذوت روحي، حاصريني كالريح وعلميها الثرثرة عن عشقنا الأبدي للأوراق كلما دنت من أحدها، وللرمل كلما تبعثرت احدى ذراتها في أحضان دواماتها، وللموج كلما علا وعلا قبل أن يحضن بعضه ويحتمي بأبيه البحر خشية أن تخطفه الريح وتهديه للشاطئ يغسل به أقدام العابرين عليه.

ـ حبيبي..

ـ أستحلفكِ بالله لا تذهبي، أكره الحضور إن لم يأتِ بكِ، وأكره العقل إن لم أجن بكِ، وأكره النساء إن لم يتشبهنِ بكِ، وأكره الرجال إن عشقكِ أحدهم أو ترك روحَهُ تهيم في سمائك، أو قطّعوا أوردتهم حين رؤيتكِ، باللهِ أخبريني كيف أُخفيك وأنتِ العالقة في رمشي، هيا اختبئي اختبئي لكي لا يسرقكِ وحوش الظلام، تعالي أخبئكِ في جذوع الأشجار وارتحال الريح ورعشة السحاب، في أجنحة الفراشات وملاعب الأطفال وهديل الحمام؛ ثم استقبليني وطنا لا يسكنه الرحيل...

(أعزائي المسافرين..

نحن على وشك الهبوط في مطار مسقط الدولي، نرجو منكم ربط الأحزمة، راجين أن تكونوا قد استمتعتم على متن رحلتنا القادمة من دبي)

ـ استيقظ يا عزيزي واستمتع برؤية مسقط الجميلة من عُلو، قبل أن تهبط على الأرض لتنقر الأرض بقدميك بحثاً عن قدرك المحتوم، وغالباً لن تجده، هكذا هي الحياة لا تؤتينا شهوتنا منها، ولا نكاد نحصلُ على أمنية حتى تخذلنا أخرى..

أكاد أميّزُ من الغيظ وأنا أنظرُ لجاري الذي لا يُراعي حُرمة جار، وأودُ لو أقول له: من سلّطك عليّ؟ هاه؟ أخبرني؟ من أخبرك بأنني سأعود لمسقط في هذا اليوم وسأكون على متن هذه الطائرة وسأجلس على هذا الكرسي؟

من منحك الحق بأن تنتشلني من الحياة لترميني على شفا الموت، وتُغرقني بأحاديثك العفنة كرائحتك التي سبقتك لأنفي؟

لماذا يا ربِّ تُسلِّطُ عليّ من لا يخافك ولا يرحمني وأنا الضعيف لا أقوى على صد الهواء عن التحرش بجفني، فكيف أصد هؤلاء المتطفلين دون أن يعي صبري بفضاضتهم اللامتناهية، ألا تكفيني ذاكرتي التي ثقُلت كثيراً وما عُدت قادراً على المُضي بها قِدماً.

تقف الطائرة وتتخلص من حمولتها من المسافرين ولم يبقَ إلاي لتلفظني خارجها، وجاري الذي وقف بجواري ينظرُ إليّ كمعتوهٍ سُلِب حلمه وظلّ يُردد: ألن تنزل؟

ـ بلى، هاأنذا؛ لنذهب..

رغم زحمة المسافرين والمنتظرين لأحبتهم والمودعين بدموع الأمل بلقاءٍ قريب، لا يتملكني سوى الشوق الذي ما فتئ يعشوشب داخل روحي مُذ عرفتك، أنا التي وجدتك ولم أجدك، وملكتك ولم أملكك..

صالة الانتظار أو مهبط الحُلم لكل غائبٍ أو مُغيّب، الكل يحسب الوقت ويحثه التعجل، فالصدور لا تحتمل ضربات القلوب المتلاحقة، ولو كان ثمة سماعات تُضخم أصوات النبض لسدّ الجميع آذانهم من هول الطرق الذي سيسمعون، ماذا لو اخترع أحدهم آلة تترجم نبضات قلوبنا إلى كلمات، هل ستقبل قلوبنا أن تشي بنا، وهل سيفيد قلوبنا اختباؤها خلف صدورنا لكي لا ينتبه الآخرون لأحاديثها السرية؟ أم أنها ستُضرب عن الخفقان حفاظاً على مكنوناتها النفيسة، الجميع ينتظر بلهفة، ولستُ كالآخرين، فأنا العروس التي لم يطمثها إنسيٌّ من قبل، وغائبي هو أحمد الذي أعشقه حد التبرك بقدميه كلما وطئتا أرض المنزل الذي جمعنا قبل ثلاثة أعوام كزوجين ما أخذ من الزواج سوى اسمه، لأن أحمد ظلّ يتعاطى معي كغريبةٍ لم يُقسم أن يصونها ونطق بصوته، وإن استنكر قلبه: نعم أقبل. للشيخ الذي عقد قِرانهُ عليّ، بل وكل أرضٍ يطأها حتى يُخيّل إليّ أنها تهتز وتربو كلما مرّ عليها بقدمه ـ فكيف لو عانقها بقلبه ـ

آآآهٍ يا أحمد..

إنك تُوردني الجحيم، وأتصفَّدُ عذاباً وأنا أنتظرك، كم من الأراضين ستبلعُني وكم من السماواتِ ستُرديني وكم من الوجوه سأنكرها وتنكرني، وكم من القرابين يتوجب علي تقديمها علّني ألقاك ذات حقيقة، وكم من الأحلام سأدفنها في رحم الليالي لتلد أقماراً ونجوماً تهديك طريقاً يوصلك إليّ ذات

مساء بعد أن تغفو الشمس على كتف المغيب..

أنا التي أتيتك بلا طريقٍ تحمل خطواتي، ولا أرصفة أُريحها عليها حين يبلغ بها التعب منتهاه، ورغم ذلك ما مللت المشي خلفك، ولا حلمت بالنكوص عنك، سرقتُ عيني ورميتهما للريح توصلهما إليك وبقيتُ أتتبعهما وهي تُمشطُ بهما الأشجار وتراقص بهما الرمال وتُثير بهما الأمواج، ثم تُسكنهما وجهك تلتمسان منه بعض النور لتبصرا الحياة، تتعدد الدروب ولا إشارة تطمئنني أنني سأجدك إن تبعتها، ليس سوى قلبي ظلّ يهتف لي: امضِ، فهو بانتظارِكِ وإن لم يعترف بذلك.

كيف أمطرتني عشقاً والسماءُ صافية، وكيف حملتني مني إليك دون أن أطلب منك ضماناتٍ تعيدني إليّ إن لزم الأمر، هل سأحاول يوماً التحرر منك، أم أنني أستلذ ارتداءك كمعطفٍ يقيني برد البُعد، يلبسني كجلدي ولا أخلعه ثانية من العمر، ورغم ما مر من العمرِ معك لا زلتُ كطفلة أتعلّمُك، وأتهجى أحرف عشقك نبضاً نبضاً، وكلما نطقتُ من اسمك حرفاً هللتُ فَرِحةً وأوقدتُ لي عاماً من العشقِ، وأطفأتُ بك فصلاً من غياب.

كم أتقن الثرثرة حين يصبح الحديث أنت، أهذي بك لكل نسمة هواء تمر بي، أشعرُ بأن صوتي يُزاحم الغرباء والعابرين في مرورهم ليروي عنك تفاصيل لم يعرفها سواي حتى بِتُّ أخشى أن ينفثها الهواء ويتنفسها غيري وأنا التي لا أحيى إلا بها، فكيف أحتمل مشاطرتك النسيم والزهر والطير والغيم والبحر والأشجار والرمل والنجوم والشمس و و و .....

رباه!

متى سأتقنُ الصمت كشفتيك،أم أن الثرثرة ديدن العشاق حين يكتشفون كفوفهم الخاوية من قطرة عشق،وتسقط أمانيهم المعلقة بنجمة نسيها الليل في وجه النهار.

تعودُ بي ذاكرتي إلى ما قبل خمسة أعوامٍ حين التقتيك بالجريدة التي تعمل بها محرراً صحفياً يمتلك صفحة بأكملها يملؤها بالعديد من الأكاذيب عن ضرورة النسيان لكي لا تصاب ذاكرتنا بالتخمة، ولكي لا تتكدس الوجوه على أرصفة قلوبنا فلا نعود قادرين على التعرف على أحبتنا حين يحضرون، حين ذهبت إلى الجريدة في رحلةٍ طلابية لمدرستي لتوجيه الطالبات إلى اتخاذ الصحافة كمهنة إن رغبن بذلك وشعرن بالتوافق معها ـ وكنت أنت دليلنا بتلك الرحلة ـ أتراها منى هي التي ذكرتني بك فور رؤيتك، أم أن رماداً بصدري بدأ بالانتفاضِ بحثاً عن بقايا جمرٍ لا زال يتقد أسفله فأثاره ليشعلني وأنا التي ما انطفأتُ يوماً، لم تكن ذلك الوجه الذي يمكنني نسيانه بعد عشقٍ خفيٍ استسلمتُ لنفاذه عبر مسامي إلى أخرى كانت لي الصديقة والحبيبة بعد أن اخترتما معاً أن تُكملا طريقكما بعيداً عني، وبقيت أنا كمن تهاوت به السماء ولم تجرؤ الأرض على تلقفه فتِثْقُلُ ما يعتريني من حزن لا يستوعبه مكان إلا وتهاوى به مُرغما، وأنت ومنى اخترتما المُضي بأحلامكما معاً، وبقيت أنا أتلصص على أخباركما من فمها حتى افترقنا مُجبرتين.

لم يشدُّني يومها ما أخبرتنا به عن كيفية طباعة الصحيفة ولم أهتم بالجهد الذي تحدثت عنه لتصدر لنا الجريدة بالشكل الذي نراه، كل ما شغلني هو عيناك التي لم تلتقِ بعينيّ سوى مرةٍ واحدة حين ناديتك مراراً: أستاذ أحمد

أستاذ أحمد أستاذ أحمد، ولم أكف عن النداء حتى سمرّت عينيك في عينيّ ـ رغم أنك رددت أكثر من مرة قبلها: نعم، إلا أن اصراري على جعلك تلتفت إليّ علّك تقرأ ما سكن بروحي مذ رأيتك، أو لعلك تهمس لي: ألستِ أنتِ فاطمة التي كانت معنا بالجامعة؟

عيناك التي نظرت إليّ وكأنها تستنطقُ بلاهتي التي بدت جليّة لك، أدخلتني في جنةٍ تستحم بالجحيم، لم أعد أعرف أين أمضي بخجلي لأتوارى من سؤالك الذي لم تنطق به: ما بكِ كالبلهاء تصرخين عليّ؟! فأجبت بعد صمتٍ مرتبك: كنتُ أود سؤالك عن أمرٍ ما ولكن لا بأس أكمل حديثك، فهو ليس بمهم..

وبدل أن أوجه طالباتي لأحلامهن علّ أحدها يتحقق هنا، صرت أبحث عن حلمي بين أكوام الصحف والأوراق الملطخة بالكثير من الحكايات الملفقة وغير الملفقة، لا زلت أذكر الربكة التي اعترتك حين استأذنتك في أخذ رقمك لعلنا ننشر بجريدتكم خبراً مدرسياً إن كان ثمة خيرٌ ارتأيتم به ما يستحق النشر، ولكني في الحقيقة ما أخذته إلا لأمنح نفسي فرصةً لميلادٍ جديد..

وبدأتُ أغْزِلُ شباكي لأوقعك بها بعد أن ذَهَبَتْ من كانت تُعميك عني ـ أو هكذا ظننت ـ الكثير من الرسائل التي بعثتها إليك في البداية لم يصلني منك ردٌّ عليها حتى أرسلتُ إليك يوما:

ـ أعتقد أنك لا تتذكرني أو أنني لا أُغري ذاكرتك للعودة إلى عُمرٍ سُلب منك وقلبٍ التفّتْ حوله شرنقة الفقد فما عاد يُبصرُ إلا الغياب.

وكأنك قرأت استجدائي ردك في رسالتي، وتوسلها إليك لتفتح عينيك على حُلمي الذي ما تفتحت براعمه بيديك، فأجبتني:

ـ أعرفكِ يا فاطمة، ولكن الأحاديث ما عادت تتسللُ إلى شفتيّ لواذاً، الحزن سرق لساني وهرب قبل أن أصل إليه لأسترد كلماتي، لا تحزني أرجوك لأني نسيتُ صوتي بجوار قبرها، لا أحتملُ أن أرى غيري حزيناً فللحزن أثوابٌ تشبه الليالي البائسة حين يُنحرُ على مشارفها قمر..

من هنا بدأت شرارة الوصل بيننا، كنتَ كالغريق الذي لم تسعفه قشة ليتشبث بها، فوجدت بداخلي ملاذاً لتنزف به كل الوجع الذي ظلّ يسكنك عامين متتاليين، ذلك الوجع الذي نما بروحك واستفحل حتى ما عدت تقدر على المُضي دون أن تتعثر به، تشعب كنبتةٍ شائكة ظلت تغرس أشواكها في صدرك وما فادك جريان دمك الذي جف وما عدت قادرا على ري هذه النبتة قبل أن تذوي وتذبل بل ظللت تُرسي جذورها بداخلك أكثر فأكثر باحثةً عما يمنحها الحياة..

من قال إن النسيان يقوى على الموت؟

ومن قال إن الموت يقضي على الحب؟

ومن قال أن الحياة قد تمضي إذا ما سرق الموت أحلامنا من قبضة أيادينا المشلولة؟

كلهم واهمون!

فلا النسيان يقوى على درء رائحة الموت، ولا الموت قادرٌ على سلب عذوبة الحب من شفاهنا، ولا الحياة تنسينا الفراغ الذي اتسع كثيراً بين أصابعنا حتى ما عدنا نستطيع شبك أيادينا مع أحدهم إلا وهاله ذلك الفراغ

الذي يبدو ككهفٍ اشتد ظلامه والشمس تزاوره ذات اليمين وذات الشمال ولا تلجه ..

بعد ثلاثة أشهر بالضبط، قادتني أقدامي أو أحلامي إلى مكتبك بالجريدة متعللة بأنني كانت مارة بالقرب من الجريدة فخطرت ببالي وأتيت أسلم عليك، ولكن عينّي التي كانت تتوسّلك نظرةً خاطفة لم تعد قادرة على ابتلاع حبها أكثر، ولم تستطع منع نفسها من النظرِ إليك نظرة مطولة أربكتك فأخذت تلملم أوراقك وتبعثرها في آن في محاولةٍ منك للملمة نفسك ولم تكن تدري بأنك كنت تلم شتاتك لترتبه في أدراج روحي وعلى أرفف قلبي، فحكايتك مع منى التي كان لي منها فصولٌ لم تُروَ بعد كانت بوابة عبوري لألَمِكَ لأحتويه وأدخلك في عالمي الدافئ باحتوائي لك دون تكلف..

يطلُّ وجهك مع المسافرين فتتهلل روحي كعصفورةٍ تعلمت الطيران للتو، فردتُ جناحيّ وحلقت إلى حضنك لأبشركَ بأني أخيراً طرت وما عادت تربكني المسافة بين أحلامي والسماء، ولا عاد يعنيني بُعد قدمي عن الأرض طالما أنني بين يديك، ولم أُبالِ بنظرات الآخرين وأنا ألقي بنفسي في حضنك تاركةً لأنفاسي مهمة اخبارك كم اشتقت إليك، وكم كان انتظارك كمن يسترق من الشمس شعاعاً لم يُشرق بعد، ولم يهدأ وهجه أو تنطفئ جذوته، فاستسلمت لحضني في محاولةٍ منك أن تلقى ذاتك الغائبة منذُ عمرٍ ما عدت تستدل عدد سنينه ولا اهتممت يوماً بإحصائها..

نظرت إلى عينيّ وكأنك أردت أن تسألها السماح وتستنطقها المغفرة، وبدورها ما أبقت صكاً للغفران إلا وقد منحته لك، فلا حُلم لي سوى أن تمنحني قلبك وأنا لن أتوانى في أن أمنحك عمري وما تبقى منه كما فعلت منذ عرفتك.

- حبيبي..

أحمد الله على سلامتك

أنرت مسقط، بعد أن لثمها الظلام حتى غفوت وما استيقظت إلا على وجهك الآن.

- أميرتي المشاكسة..

أعتقد أن النور كان خجِلاً من عينيك فقعا على شرفة الفجر حتى أتيت فظهر ليقول لكِ كم اشتاقَ إليكِ.

- ليتك تشتاق لي مثله "همستُ بحزن"

- بل أكثر، صدقيني، ولكنّ بعض الشوق لا يعترف بالكلمات سبيلاً للعبور، ألم يأن لكِ أن تعرفي أنني أغبى من أن أعبر عن مشاعري بكلمة؟

صمتنا معاً، وأخذتَ تجر حقائبك بيدٍ وتحتضن يدي بالأخرى في طريق خروجنا من المطار.

أما رفيق الطائرة فقد كان يمشي خلفنا ويتمتمُ مع نفسه:

- والله وكأننا لسنا في مسقط، يتصرفون بمنتهى الأريحية دون أن يمنحا المكان حرمةً تليقُ به!

أين أنتِ يا أم فهد، ليتكِ ترين ما أرى..

ولكن أم فهد لم تكن لترى ما رآه ولا تسمع ما قاله، فقد كانت في البيت تنتظر قادمها من بوابة الغياب، وتعلمُ في قرارة نفسها أن عودته لن تكون محملة بالكثير من الشوق المكبوت، بل بالكثير من الهدايا التي تُخرس حنينها الأنثوي لرجلها اللاهث خلف جميلات السفر.

(2)

بِلادُ العُربِ أوطاني من الشامِ لبغدانِ
ومن نجْدٍ إلى يمنٍ إلى مِصرَ فتطوانِ
فلا حَدٌّ يُباعِدُنا ولا دِينٌ يُفرِّقُنا
لِسانُ الضادِ يجمعُنا بقحطانٍ وعدنانِ
لنا مَدَنيّةٌ سَلفت سنُحييها وإن دُثِرت
ولو في وجهِنا وقفت دُهاةُ الإنسِ والجانِ

الشاعر فخري البارودي

في البيت كان كل شيءٍ مجهزاً لاستقبالي، الزهور المتناثرة، الشموع التي لم تنطفئ، والذاكرة التي لم تتعلم النسيان ولم تخضع للكتابة علّها تجد من يقرأها فتتوزع على الكثير من العيون وتبدأ بالتلاشي رويداً رويداً من أعماقنا.

الشوق والحب والجنون والأماني التي توشك أن تلد عهداً جديداً وعمراً جديداً على يد فاطمة التي تعهدت بتربيته تربيةً صالحة تليق به ،ولكنها تعرضت للخيانة حين أجهضت الأماني حبلها قبل أن يستوي ويحين قِطافه لا ينقص هذا البيت سوى قلبٍ ينفضُ الأمس ويتدثر بيومه ليحيا ويمنح الحياة لكل من أوشك على النفوق معه وبداخله.

لا زلت مسكوناً في صمتي، أتعاطاه كمخدرٍ يخلصني مما تهافتُ عمري لامتلاكه، تُسيّلُ فاطمة صوتها في روحي برداً وسلاماً:

ـ عوداً حميداً يا حبيبي، أنرت بيتك، الآن يمكنني أن أمنح جفنيّ للنوم دون أن يداعبهما الأرق، أو يشاكسهما الشوق والقلق وأنت أبعد من أن تُطمئنني عليك.

ـ سلّمكِ الله يا طفلتي، للمنزل رائحة الجنة وحنان الأطفال، كخرير الجداول ورحيق الأزهار، لكم أشتاق إليه.

رباه ما كان يضرني لو أضفت: وكم أشتاقُكِ؟!

ولكنني كعادتي أنسى دائماً أن أهديها كلمة طيبة قد تبل ريق اشتياقها، أتفنن في كيل لكماتي لصدرها، أُتقن تسديدها صوب قلبها مباشرة دون أن أُخطئ هدفي كقصّاب اجتز عنق ضحيته من الوريد إلى الوريد حتى ما عادت تقوى على اجترار أنفاسها، فكتمت صرختها بداخلها وذوت، أعلم أنها تود لو تصرخ بي:

ـ وأين هي حصيلتي من الشوق؟ أو أيني أنا من أشواقك الفائضة على كل شيء عداي؟

كل شيء هنا يستحق منك أن تلفت إليه، إلا فزّاعتك التي علقتها بداخلك لتطرد ذكرياتك التي تقرض روحك بعدد أنفاسك التي تخرج وتدخل دون أن تمنحك فرصة إيصاد أبوابك بوجهها لتخمد، اطمئن يا حبيبي؛ ففزّاعتك تيبّست أقدامها وهي تحرسك وما خافَ الفقدَ سواها.

ولكنها كعادتها أيضاً صمتت وآثرت أن تتركني لما شئت من حزنٍ حتى أكتفي، فقد يأتي يومٌ وأعودُ إليها ناصع القلب، وأولد على يديها رجلاً لا يعرف من النساء سواها ـ هكذا همست لي يوماً وصمتت ـ ومنذ ذلك اليوم لم تُسمعني لوماً ولا عتباً، إلا أنّ عينيها لم تبتسم منذ ذلك اليوم أيضاً.

وبدلا من ذلك، غمرتني بدفئها وهمست:

ـ وجودك الآن يشفع للانتظار لحظاته الموجعة وللشوق طعناته الدائمة، يكفي أن تأتي ليصبح ليومي بهجة العيد وفرحة الفطر بعد صيام، وخفقات قلبِ صبيةٍ على مشارف عُرس، يكفي أن أراكَ لتتوالد الضحكات من رحم الخيبة ولتعود الحياة لميت فارقته مذ لملمت حقائبك ومضيت بها بعيدا عني.

رنين هاتفي المتواصل تواطأ مع قدرينا اللذين أقسما ألا يجمعانا معاً، كل شيء ضدكِ يا فاطمة ولستُ أنا وحدي، أو منى وذكراها، حتى الأقدار لا تكتبنا على ذات اللوح في السماء.

فالتفتُّ إليها معتذراً:

ـ مضطرٌ لأن أُجيب، فعبدالله زميلي المصور بذات الجريدة التي أعمل بها لا يتصل إلا لأمرٍ هام:

السلام عليكم، أهلاً عبدالله

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، الحمد لله على سلامتك يا صديقي، عوداً حميداً

ـ سلّمكَ اللهُ من كل شر، هاتِ ما لديك فالتعب أكلَ هذا الجسد وما استبقى منه شيئاً تأتي عليه.

ـ أنا أعلم أنك مرهقٌ من رحلتك، ولكنها الأحداث لا تنتظر ولا تمنحنا فرصة لالتقاط أنفاسنا

ـ هل جدّ جديد؟

ـ الاعتصامات يا صديقي بدأت تنحو منحىً مُربكاً، بعض المعتصمين استسلموا للغضب وخذلهم الصبر خاصة أن بعضهم من صغار السن وغير معتادين على هذه المواقف ولم تعجنهم الحياة كما يجب، فخرجوا عن هدوئهم وبدأوا برشق الشرطة بالحجارة وبدورها أطلقت القنابل المسيلة للدموع عليهم..

ـ ماذا؟ مستحيلٌ أن يحدث ذلك

ما الذي حدث لشعبنا المسالم؟ وكيف يمكن للاعتصامات السلمية أن تتجه للعنف؟ لا أستطيع أن أصدق أن حمى الثورات في الدول العربية قد بدأت بالزحف إلينا بهذا الشكل؟ لماذا لا يستمر الاعتصام سلمياً حتى ينال الجميع مطالبهم بالشكل المرضي؟

ـ هذا ما يحدث يا صديقي، هل تمرني أم أمرك لنذهب لدوار صحار حيث الاعتصامات الحالية، رئيس التحرير طلب مني أن أخبرك لنجهز موضوعا عن الاعتصامات، كاميرا صديقك محتاجة لقلمك ليهديها وجوداً في صحيفة الغد..

ـ بل مرّني يا صديقي، تعلم أني وصلتُ لتوّي من السفر، سأستحم ريثما تصل، إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء

التفت لفاطمة التي لم يكن الأمر مفاجئاً لها، فقد تعودت من الأقدار أن تحرمها من أي فرصةٍ قد تلون بها الحياة، فبادرتني بالقول قبل أن أستجديها السماح:

ـ لا بأس، لا بد أن تؤدي عملك، هذا واجبك وأنا أتفهمه، هيا لتستحم فلا وقت لديك.

وكأن شيئاً لم يكن حملت بعضها بكل هدوءٍ ورافقتني لتساعدني على التحضر للخروج.

كمصلوبٍ على عمود التوتر كان الوقت يمرُّ عليّ بطيئاً، وما يحدث لا يحتمل التأخير، لذا وبمجرد وصول عبدالله أطلقتُ ساقاي للسلالم، ونسيت ان أودّع فاطمة التي كان تقف على بعد خطواتٍ مني، أمتطي سيارته التي عَلا بها صوت الفنان العماني سالم علي سعيد:

عُمانُ شمسُ الضُّحَى بالعزِّ مُشرقةٌ

عُمانُ مُستقبلٌ زاهٍ ورُوّادُ

عَلى جَبينِ المعالي كان موقعها

يزهو بها الدهرُ آبادٌ وآمادُ

قَدْ جاءَ قابوسُ يبني مجدَ أمتنا

فعمَّ خيرٌ وجاءَ النصرُ ينقادُ

ـ يا سلاااام!

لا أجمل من هذه الأغنية تنعش أرواحنا المختنقة بالخوف على هذا البلد الآمن، بالفعلِ لقد أبدع الشاعر العماني عبدالله بن صخر العامري في انتقاء كلماتها، شكراً لك على هذا الاختيار الرائع والذائقة السخية يا صديقي، والآن أفهمني أرجوك ما الذي يحدث؟

ـ ما يحدث يا صديقي هو أن حمى الثورة تنتشر بسرعة غير معقولة خاصة مع تداعي الحكومات أمام تمرد الشعوب، ساعدها على ذلك أوضاع الشباب المتردية والبطالة المنتشرة وتأخُر تعيين الخريجين حتى إن الخريج الجامعي ينتظر خمس سنواتٍ وأكثر حتى يتم تعيينه، مما يجعله يبحث عن

أي وظيفة قد تستر حاله دون الالتفات لشهادته الجامعية التي سعى لها عمراً، ناهيك عن بعض التصرفات غير المسؤولة والتي نعرفها جميعاً من بعض المسؤولين بالبلد.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، أسرع قليلاً ولكن انتبه (والتفتُ إليه مبتسماً) نريد أن نصل سالمين الله يرضى عليك.

ـ لا تخف يا صاح، فرفيق رحلتك خبير دولي في التعامل مع الطرق العصيّة (ويضحك قبل أن يضيف) تمسك جيداً فنحنُ نوشك أن نطير..

في صحار أمضينا يوماً بأكمله مع المعتصمين وأجرينا ما استطعنا من اللقاءات، ورغم الحذر الشديد الذي أظهره البعض في التعاطي مع الصحافة، كان ثمة من كان متهوراً وهذى بالكثير من الأحاديث التي بدا جلياً أنه أخذها من القنوات التلفزيونية وما تبثه عن الثورات والثبات على المواقف من أجل نيل الحقوق وتحقيق المطالب، والصمود لأجل الحرية والعزة والكرامة، متجاهلين أو متناسين أو غير واعين بأن لكل بلدٍ خصوصيته التي يتميز بها عن غيره، وبالتالي فإن ما يناسب بلدا معينا قد لا يناسب آخر وإن كان مجاوراً له على الخريطة.

انقضى اليوم، وعدتُ وعبدالله الذي أوصلني إلى المنزل ومضى..

وفي المنزل؛ لم تكن الراحة هي الحلم الذي يراود صحوي، بل كتابة المقال والخروج به بالشكل الذي يمنح روحي بعض السلام، فتحت حاسوبي المحمول وأعددت مقالي وأرسلته للجريدة، ثم قضيت ساعات ليلي المتبقية على النت أتصفح مجريات الأحداث التي هالتني كثيراً، المعتصمون في

كل مكان، والمطالب متعددة بعضها منطقي يدل عن وعي المطالبين بها كالحصول على وظائف للباحثين عن العمل والخريجين، وبعضها شطح أصحابها بأحلامهم بعيداً كأولئك المطالبين بإسقاط الديون عن المدينين وكأن الدولة أو الحكومة كانت المسؤولة عما اقترفت أيديهم بحق أنفسهم من ترفيه أنفسهم دون الالتفاف لقدراتهم المادية ودخلهم إن كان يسمح بذلك أم لا، فتراكمت عليهم الديون، رغم أن بعضهم ما استدان ترفاً ولا بَطَراً، بل حاجة الدنيا هي التي أحنت هامته للقروض لتقصم ظهره بفوائدها الربوية والمركّبة والتي تنمو عاماً بعد عام كامرأةٍ ولود غير ودود.

انتبهت للوقت قبيل الفجر بنصف ساعة فقمت واستحممت وتوضأت للفجر، أحتاج لأن أرتمي بين أوراق المصحف وأستعين بآياته لأكتسي بعض الهدوء والطمأنينة، تحين مني التفاته لفاطمة الغافية دون غطاء وكأنها ما عادت تبالي بالتكييف وهو يلفح جسدها النحيل وهي التي ما فتئت تتحسس من هوائه، طوفانٌ من الذنب يجتاح احساسي الذي يشاركني جريمة قتلك البطيئة، تباً للأقدار التي أتت بكِ حين لم أكن مهيأً لاستقبالكِ، لماذا سمحتِ لها أن تدنيكِ من رجلٍ ميت، رجل ليس له من الحياة إلا وجهها الأسود وأياديها القصيرة وذنَبُها الذي لن يعتدل، أقبِّلُ رأسها بهدوء، أغطيها وأمضي صوب المصحف، تتهادى عيناي على كلمات المصحف بطمأنينةٍ تامة توصلني لأذان الفجر، ومنه للمسجد لأصلي، أشعر أن روحي احتملت بهذا اليوم أكثر مما لها طاقةٌ باحتماله، وتلوثت بالكثير من الهموم والأحزان التي تراود روح بلادنا الآمنة المطمئنة، أحتاج لأن أنفض وهنها على سجادةٍ بين ركعةٍ وسجدة، وأناجي ربي بأن يحفظ بلادنا مما آلت إليه الكثير

من الدول تحت مسمى الربيع العربي، ولا ندري أهو ربيع عربي وثورة أحرار هالهم تشعُّب الضيم والعدوان الأمريكي الاسرائيلي على العرب، أم أنها مؤامرة لإبادة العرب وفرض سيطرة أمريكا وإسرائيل على الوطن العربي ونهب خيراته ليملأوا بها خزائنهم التي لا تكتفي وتصرخ لاهثة كلما استولوا على بلدٍ: هل من مزيد؟ وإشغال العرب كلٌّ بنفسه لينسوا قضيتهم الأساسية وهي تحرير فلسطين من قبضة اليهود، تتلوها العراق من قيد أمريكا، فيتناحر أهل البلد الواحد بعضهم وبعض، وينقسم أهل البلد إلى مسلمٍ ومسيحي وقبطي، بل وينقسم المسلمون إلى طوائف شيعي وسني ووهابي وإباضي، وكلٌّ يدّعي بأن الحق معه، وأن أبواب الجنة مفتّحةٌ له وحده دون سواه، ويضيع الحق بين مُطالِبٍ ومُطالَبْ، ولا نعرف كيفية الوصول إليه.

لم يكن هذا المقال الأوحد لي عن الاعتصامات، فبعد فترة وجيزة كان قلمي يخط مقاله الأخير عنها بعد أن مرّت وما زادتنا إلا حباً لهذا الوطن، والشكرُ جُله يقدم لصاحب الفضل في ذلك السلطان قابوس الذي أمر بأن يتم توفير فرص وظيفية للعاطلين عن العمل وصرف رواتب شهرية لهم لحين توظيفهم، كما تم التعامل مع بقية المطالب المشروعة الأخرى بحكمة، وبالفعل لا وصف يليق بهذا الرجل الذي منح هذا الوطن روحه وقلبه، فكان الابن البار لها والأب الرحيم لأبنائه، وصدق الشاعر العماني ناصر البدري حين قال:

كتبـوا ومـا كتبـوا فأنـت كبيـرُ
أنّـى يحيـطُ بقـدركـم تقـديـرُ

يـا منتهـى الإلهـام كيـف تقلّـدوا
حرفـاً وبـاعُ الشـعرِ عنـكَ قصيـرُ
قابـوسُ طِـبْ نفسـاً فهـذا شـعبكم
النبـضُ خطـوكَ والرمـوشُ حصيـرُ

وأُغلق ملف الاعتصامات، أغلقه من فتحوه حباً للتراب الذي نشأوا عليه وامتنانا لقائده العظيم، وبَقيَ الترقب لما هو آتٍ قائماً يحذوه الكثير من الخوف والأمل، الخوف أننا تعلمنا أن ما أُخذ ظلماً لا يُسترد إلا بالقوة، والأمل بأن نبقى كما نحن مسالمين لا تفرقنا المذاهب ولا القبائل ولا الألوان ولا اللهجات، وأن نحتمي بوطننا الذي وسعنا جميعنا رغم اختلاف أعراقنا وتوجهاتنا، ويبقى بلدنا وطنا لا خيمة إيواءٍ نتركها متى ما استغنينا عنها.

مشاهدة الأخبار قبل أن أنام عادتي التي لم أعرف آلية التخلص منها، لعلّ جديداً يُبشرنا بخيرٍ قادم، أو لعل السماء تهبنا فيض أُمنية، ولكن لا جديد، نفس الأحداث المقيتة التي يتقيؤها المذيع كل نشرة، أحياناً أشعرُ أن شاشة التلفاز تُذيع الأخبار دون مذيع لأنها حفظتها عن ظهر قلب، لعل ذلك يُفسِّرُ ترديد المذيعين للأخبار وعدم قراءتها وتلاوتها علينا دون أن يرمش لهم جفنٌ خشية أن يفقدوا حرفاً أو يُسقطوا كلمةً سهواً، ما شاهدته بالأمس أطالعه اليوم وأخشى أنني لن أرى سواه غدا، لا أستطيع فهم ما يحدث، وكأننا أمام اختبارٍ إما أن نجتازه لبر الأمان أو يقضي علينا، لو أنّ أحداً يُقدِّمُ لي تفسيراً يوضِّحُ ما يحدث، جثث الأطفال المرمية على الطرقات، الدماء التي تُحنّي الإسفلت، الشجر العاري من الحنان والعصافير الباحثة عن أجنحتها بين الأوراق المتناثرة، الشمس الغاضبة والسحب الهاربة بعيداً لكي لا تُمطرنا العذاب والدعوات المكلومة بعد أن فقد هزيمها قدرته على إثارة رعب الأطفال منذُ أن طغت عليه أصوات القنابل، ومنذُ تولانا غضب الله ما تزاوجت غيمتان ولا أنجبتا لنا أطفالاً من مطر يتسابقون إلى ذنوبنا ليطهرونا منها، من يغسل الحزن المتراكم عن وجهي غدراً بعد غدر، وظلماً بعد ظلم، ونزفاً بعد نزف، من يُعيد الحياة لكلمة بابا المشنوقة على فم طفلةٍ ودعت أباها في الصباحِ وما عاد، وحين سألت عنه قالوا لها بأنه هناك ينتظرها في السماء فحلمت بأنَ الشمس تغزل لها جناحين من نور لتطير إليه، حاملةً إليه كل الأشواق التي خبأتها له في صندوق ألعابها الذي ما فتحته منذ رحل لكي لا تغافلها الأشواق فتهرب مانحةً أباها للنسيان، وما علمت أن الشمس لا تُتقنُ حياكة الفراغ ، كيف لي أن أُصدق أن ما أراه الآن لا يشبه مذبحة دير ياسين، وأن المُهجرين من بيوتهم اليوم لم يسرقوا أجساد من رحلوا عام 1948

لذلك لاحقتهم لعنةُ تلك الأجساد وطاردتهم بعيداً عن طينهم الذي نبتوا فيه بذرةً غير صالحة لأرض، فتشردت وتلاشت في العدم، ولا يحمل روح مجزرة صبرا وشاتيلا، لكأني أشاهدُ فيلماً تاريخياً يحكي ما حدث آنفاً، القتل ذاته، الجثث المتوارية خلف الركام هي هي لم تتغير، حتى رائحة الموت لم تتغير، أشعرُ بها الآن بأنفي وأشعر بأني أكادُ أتقيأ وأنا أرى يد طفلٍ تمتدُّ للسماء من تحت الركام، أتُراها تسأل الله سلاماً أبدياً، أم أنها تسألهُ غضباً يجتاحُ كل ظالمٍ يملأ كرشه المنتفخة من دماء الأبرياء المساكين ويسكرُ نشوة، متخذاً من جثثهم مطايا لأحلامه العفنة، ويمدُّ على سريره الوثير أجسادهم المنسلخة من الحياة ويرقد عليها كل مساء بعد أن ينتشي بصدى صرخاتهم المعلقة على أذنيه كأقراطٍ استساغ ارتداءها ليستمتع بعويل جراحاتهم النازفة كل آن، دون أن يستغفر ربه ويتوب إليه من ذنوب الأرواح التي صعدت للسماء دون أكفانٍ سوى الدماء التي تعاقدت مع الغيم لتغرقنا ويلاً كلما استسقينا الله رحمةً تبل أرواحنا.

ـ كعادتك لا بد أن تختم يومك بالحزن، أما آن لك أن تُقلع عن هذه العادة وتقنع منهم؟ (هكذا قاطعت فاطمة إبحاري بعيداً حيث لا شيء سوى الموت، ولكنها لم تنجح أبداً إلا في إغراقي أكثر فيما يحدث).

ـ ولكن كيف؟ عقلي لا يستوعب الأمر، كيف والقتلة هناك أعداء العرب وهنا هم العرب أنفسهم، رُغم أنني قرأت الكثير عما فعله اليهود بفلسطين ولبنان، ورغم أنني شاهدتُ شاشات تلفزتنا تُنتهكُ حرمتها بمشاهد أبكتنا جميعاً حين ضربت اسرائيل الجنوب اللبناني عام 2006 من أجل تحرير الجنديين الاسرائيليين إيهود جولدفاسر وإلداد ريغف اللذين أسرهما حزب

الله، حزب الله الذي أسمى عمليته تلك (الوعد الصادق) وسمّت اسرائيل عملية تحريرهما (الثواب العادل) وبين الاسمين مات من مات وتشرّد من تشرد وتهدمت «صوامعٌ وبِيعٌ وصلواتٌ ومساجد» ،لأجل أن يحرر حزب الله بعض من اختطفتهم اسرائيل، ولأجل أن تحرر اسرائيل اثنين من جنودها قُتل ما يقارب من 1200 لبناني يقال أن منهم 500 من عناصر حزب الله والبقية هم من الذين هربوا من اسرائيل وحزب الله معاً وما استقبلهم سوى القتل، وأصيب ما لا يقل عن 4400 ،ولا زلت أتساءل كم روحاً قضت إكراماً لروح؟ ناهيك عن الخسائر المادية والبنى التحتية التي تدمّرت، كل تلك البشاعة لم أتخيل أن تلفظها شاشاتنا مرة أخرى ولكن بأيدينا نحنُ العرب لا بأيدي أعدائنا، كيف يمكننا أن نفعل ذلك بأنفسنا؟ أولسنا روحاً واحدة وإن تلونت الأجساد بأعلام أوطانٍ تعددت مسمياتها؟

أتصدقين يا فاطمة أنني أشكُّ في عروبتي؟ كيف أُصدق أنني عربي وأن هذه الدماء الفائرة بأوردتي الآن تنتمي إليّ، أليست هي ذاتها تلك الدماء التي تسري بجسد امرأة نكّلوا بها وقتلوها وأطفالها وهي تغني لهم قبل أن يناموا أغنية الغد الذي سيأتي حاملاً لهم أحلاماً من فرح، وحين أتى الغد كانت أرواحهم تتقافز بعيداً عن أجسادهم المهشمة باحثة عن سلة الفرح التي وعدتهم بها أمهم..

ـ أحمد..

هدئ نفسك يا أحمد، ما رأيك لو تناولنا الشاي معاً؟

ـ بشرط أن تُكيلي له الكثير من السكر فلربما أستسيغه مع كل المرارة العالقة بحلقي الآن..

لماذا أشعرُ أني كهؤلاء المُعلّقين على مشانق الأحلام، أتراني أبكي هؤلاء الموتى أم أبكيني أنا الراحل بلا موت، الباقي بلا حياة، أنا العالق بحنجرة الوقت فلا هو بلعني ولا تمكن من تقيؤي على قارعة العمر لتتلقفني السنين كيفما شاءت..

أرقُب فاطمة وهي تنسحبُ رويداً كنرجسةٍ هدّها الجفاف لتُحضر الشاي، يكسرني حُزنكِ يا فاطمة، أنا رجُلكِ الميت، وعمركِ المهدور، وشبابكِ الذي ما أَسَنَ رُغمَ أنني أعيثُ به عجزاً كل يوم، أتُراني أشبِهُ هؤلاء القتلة، أتراني ألعنهم أم ألعنني أنا الذي أقتلكِ كل يوم بعدد دقائقه الغارقة في حزنك، متى سأمنحكِ السلام الذي تستحقين والحب الذي تنشدين، لماذا لا تُجادلينني كتلك التي جادلت الرسول صلى الله عليه وسلم في زوجها فسمع الله تجادلهما من فوق سبع سماواتٍ وأنصفها بقرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة، أتراكِ تخشين عليّ غضباً يحلُّ عليّ، فيسلِقُ روحي بأسيافٍ حِدادٍ تأتي عليّ ولا تُبقي لكِ مني شيئاً، أم أنكِ تريدين أن أجادل عنكِ الحزن ليتركَكِ لي دون أن يُفقدكِ روحكِ المعلقة كجسدٍ مشنوق في صدرٍ لا زال يتربصُ بي حبيباً؟

وكأن حيّة لسعتني أنتفضُ من مكاني وأهرب للخارج، وفي طريقي أصادفها آتية بأكواب الشاي وتسألني:

ـ أين ستذهب؟ أحضرتُ الشاي لنحتسيه معاً

ـ أشعر بالاختناق، سأخرج لأتنفس بعض الهواء

وأخرج؛ كعادتي حين أرغبُ بالانسلاخ من عينيها وعالمي المتواطئ معها، أعلم أني طعنتها في كبريائها كأنثى، وكأني قلتُ لها بأني أختنقُ بكِ في صدري، أتركها خلفي تُمني ذاتها بأني حين أعود سأملأ بها حضني الفارغ، كتلك الأم تغني لأطفالها ـ الذين لم أتمكن من منحها إياهم ـ أو أعدها بأنهم سيأتون قريباً حاملين في أياديهم الكثير من الياسمين لينثروها على قلبي

الغارق في سواد الحزن، وأنني لن أسمح بأن يبقوا عالقين في الغيب دون أن ألمهم ،آآآآهٍ يا فاطمة ،لو أننا نملك الشجاعة على اتخاذ القرارات وتحمل نتائجها لما وجدنا أنفسنا ضائعين في متاهات الشك بكل حقيقة واضحة لأعيننا لمجرد أننا غير قادرين على كشف ستار الصدق بأرواحنا المنطفئة بداخلنا أو نمنح أجسادنا الحياة التي تطلبها دون التفاتٍ لما تُمليه علينا أرواحنا من شروطٍ وقيودٍ تجعلنا نتلكأ قبل أن نُصدر أي قرارٍ بالعيش، لا شيء يقهر الرجل كإحساسه بأنه غير قادرٍ على ملء حضن أنثاه وقلبها وعينها، أشعر أني كبيتٍ بلا أعمدة، ضعيفٌ أتهاوى ولا من يسندني، وحتى يداي الخاويتان أرفض تسليمهما ليديك حين تمتدان لي بحب، وأُفضل التهاوي على أن أُشعركِ بضعفي، أو هكذا أرجو مع تيقني بأنكِ ترين فيّ أضعف خلق الله..

الظلام يخنق الليالي بيديه وذاك القمرُ البازغُ وحدهُ لن يلبث أن ينطفئ، لماذا وصدري أشدُّ حُلكةً من الليل لا يبرق به نورك وأنتِ تبارين القمرَ جمالاً وتفوقين، بأي عُذرٍ سأقابلكِ حين أجدكِ على عتبة الباب تنتظرين عودتي وأعودُ لكِ بلا روح، فقد أودعتُ روحي التراب قبل بضع سنين، وكيف سأصمُّ آذاني عن دعواتكِ النائحة بأن يتقبلني الله روحاً طاهرةً ويحشرني رجُلاً من أقدارٍ بيضاء لم يدنسها سواكِ ليكون قلبكِ قبلتهُ الأولى وصلواته الخمس، لا تزالُ تلك اليد الممدودة للسماء تحت ركام منزلها تتشبه بيدكِ الصغيرة وهي تمتدُّ ملوّحة لي بالدعاء بأن أعود سالماً من كل غياب، وأن أبقى ظلكِ الممدود في هجير الشوق، وكلما خرجتُ عدت كما أنا لا أشبه صلواتك في شيء ولا أشبهني سوى بأني سالمٌ من الحياةِ مُعتلٌّ بي، مُعاقبٌ بالانشطار بين امرأتين ترتديان الموت والحياة شطران لا يجتمعان أبدا..

أين أمضي؟ وكل الطرق لا تبدو لها نهاية، وكأني أنتعلُ الريح وأجري إلى

حيثُ لا يهتدي إليّ أحد، متبرئٌ مني ومن كل ما يمتُّ إليّ بصلة، حتى قلبي أتمنى لو أدسه في سلة من سعف وأضعه أمام أحد المساجد ليلتقطه بعض المصلين علّي أبرأُ من عاره الذي بات مفضوحاً للجميع، وما عاد يمكنني ستره..

أُوقفُ السيارة وأترجّلُ منها، تتلقفني الأرصفة وتبدأ بممارسة لعبتها المعهودة معي، أجلسُ على حافة الحزن أفترشُ ضعفي وأمسحُ عن صدري بعض ظلمته بعمودِ إنارة سرق توهّجه من عينيكِ ولم ينطفئ خجلا، يسكنني الشرود في ملكوتي الدائر بي إلى ما لا نهاية، ويوشك أن يُسقطني على حافة اللاوعي ليتعثر بي أحدهم في سقوطي غير المحسوب، يبدو جلياً من هيئته أنه شرب كثيراً حتى فقد توازنه وقدرته على التحكم بنفسه فراح يُجدِّفُ الهواء بيديه ويثرثرُ سَخَطُه، حتى الرصيف يبصق بوجهي حثالته لينهر بقائي ويقول لي: أنْ لا مكان لك هنا، اذهب؛ ما الذي يُسمّرُك، ماذا تنتظر من هذه الشوارع الممتدة أمامك بلا نهاية تُرجى لها؟

لا أدري ما الذي يشدُّني للطرقات، منذ أن أخذتكِ وأنا أرتادها كلما ضاقت بي الدنيا، وكأني أتلمّسُ حضوركِ بها، أو أبحث عن وجهكِ خلف أرصفتها، أو لكأني أراكِ بكل شبرٍ منها ودماكِ التي خضبتها يوماً تطاردني أينما ذهبت لتعيدني إليها، أو لكأني استجديها أن تُشفقَ عليّ وتعيدكِ لي سالمة من الموت، أحياناً أجلس على أحد الأرصفة الخالية من ضجيج السيارات بعد أن تهدأ مسقط وتنام وأمسح بيدي على الاسفلت البارد لعلي أمسح عن جبينكِ ما غطاه من دمك، بعد أن عجزت عن مسحه يوم منعوني بالمستشفى من الدخول إليكِ بعد الحادث مباشرةً، واستمرّ المنعُ إلى أن تيقنوا من حتمية رحيلكِ فأدخلونا تباعاً لنودعكِ دون أن يصرحوا بأن اطمئناننا عليك لن يكون إلا وداعاً يتبعه وداع دون أملٍ بشفاءٍ يرتدي جسدكِ الرابض

بهدوءٍ مزعجٍ تحت أغطية المستشفى الباردة، لم يسمحوا لأيٍ منا بالاقتراب منكِ، ليس إلا الأجهزة التي تعلو أصواتها على نبضات قلبكِ الذابلة هي من احتضنتك ببرود، ونحن باستسلامٍ يائس كنا نستجيب لأوامرهم خوفاً عليكِ من أي مضاعفات، ولم نكن نعلم أنهم يهيئونكِ لترحلي دون يدٍ تحتضن كفيكِ الصغيرتين، لو أنهم صرحوا بأنكِ لن تتمكني من العودة إلينا، ولن نتمكن من سماع صوتكِ مجدداً، لو كنتُ أدري أنني لن أتمكن من إضحاككِ ثانيةً على نكتةٍ تافهة لمجرد أنني أنا من تلاها عليكِ، ولن أبتسم وأنتِ تثرثرين لي بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ حدثت معكِ، وتخبرينني عن كل من صادفتهم ممن تعرفينهم ومن لا تعرفينهم لتضمني أن لا صوت يصل لأذني سوى صوتك العذب، وأني لن أضع يدي على أذني لأراكِ غاضبةً مُحتجة لأني مللتُ من ثرثرتكِ، وأضحك حين ترفعين صوتكِ أكثر لتجبرينني على الاستماع إليك ،فأُزيح يدي عن أذني خشية أن يأتي زملاؤنا من مكاتبهم بعد أن تشدهم أحاديثكِ المغرية، لو أنهم لم يُؤملوني كذباً بأن كل شيءٍ بخير، لكنتُ انتزعتُ عنكِ أجهزتهم المقيتة واحتضنتكِ إلى أن تُسلمي روحكِ لبارئها يرافقك بعضُ الدفء من تلك النار التي تستعر بصدري في رحلتكِ وحيدة ضارعة إلى الله أن يتغمدنا بعدكِ بفيضٍ من رحمته..

ألوذُ بالظلام علّه يسترني من نفسي اللوامة بعد أن سلمتكِ للغياب دون رحمة، هل فعلاً لم أكن أتقطّعُ أشلاءً ما تمكنتُ إلى اليومِ من لمّها في ثوبٍ واحد، أم أنها لم تكن يدي تلك التي تآمرت مع محبيكِ وطفقت تُكيلُ التراب على جسدكِ الغضّ، وحثت عليكِ أحلامها وأفراحها وأيامها، وما أبقت شيئاً إلا ودفنته معكِ وعادت خاوية الوفاض من كل شيءٍ متعثرةً بخطوطها التي تشابكت بعدك، الليل صندوقٌ ينغلقُ عليّ والفجر يداهمني وأنا هناك أختبئ كلصٍ سرق أحلامكِ وما أتقن الهروب مُخلفاً وراءهُ عمراً وشى به، فيأخذني

ليرميني في سجنه بين أكوام الجرائد التي لم توزع بعد، وما امتلأت به من صورٍ قاهرة لا ترحم أعيننا فتظل تفقأها مع كل نظرة لتذكرنا أن الموت يرتب أقدارنا ونحن في غفلتنا نُرتب لأقدار أخرى، ولا ندري أيها يسبق وأيها يطغى على الآخر ويسلبه مكانته وسيادته.

أنتبه للرجل الواقف قبالتي مُتمتماً بما لا أفهم، يُحدثني بلا حرفٍ صحيحٍ يتمردُ على لسانه المسكور، ورغم ذلك يُصرُّ على استعادة بصره ليسدده بمجمله نحوي ويقفُ مترنحاً وكأنه يقفُ على الماء ويصرخ بوجهي، بينما أنا كالمعتوه أنظرُ إليه أحاول فهم ما يقول: هيييييه أنت! لماذا تنظرُ إليّ هكذا؟ هل نسيت عينيك في وجهي؟ أم هل تراك بلعت كلماتك فسالت من عينيك؟ هههههه، هل ثمة ما يزعجك في شكلي؟ أم أنك تقول في نفسك: ما هذا السكير الأحمق؟ ألا تُعجبك هذه الزجاجة بيدي؟ طبعاً فأنت أحمق،لا ترى بها سوى زجاجة خمرٍ مقرفة الرائحة، عموماً، يمكنك ألا تشرب أما أنا(ويزداد صوته حِدّة)فسأشرب وأشرب وأشرب حتى أُطهّر دمي من دنسِ خيانتها، لن أتركها تستريح فيه سأباغتها فجأة وأطعنُ قلبي بخنجرٍ مسمومٍ حتى أقتلعها وأرمي بها بعيداً، لا أحتاجُ إلا لبعض القوة لأفعل ذلك، تلك الحقيرة التي استغلت سهراتي خارج المنزل لوقتٍ متأخر فبحثت عن لذتها المشؤومة بأحضان رجلٍ آخر، دون أن تُراعي للعشرةِ إلّاً ولا ذمة، لماذا لم تستوعب أنني رجل ويحق لي ما لا يحق لها، وأنها ما خُلقت إلا لتؤانس وحشتي، لا لتتمرد عليّ، وتحيا بعيداً عني، ما الذي منعها من ارتداء الصبر، والتزين به لتلاقيني بابتسامتها كل ليلة؟ وأن تقضي الليالي ساهرة تنتظرُ عودتي؟ ألستُ أنا زوجها ورجُل أحلامها؟ أليست هي المرأة التي لا يحق لها أن تطلبني للفراش إلا لتُمتعني بجسدها الذي يتوجب عليه التمسّحُ بي لينال بركتي

حتى لا أصبُّ عليه لعناتي وألُقِمَهُ للجحيم يتلظى بداخله دون رحمة؟ من سمح لها بأن تطير خارج حدود سمائي، ومن أهداها أجنحةً لتطير؟ من علم قلبها النبض دون أن أكون أنا دماؤه التي تغذيه؟ هذه المومس اللعين، لو تصل إليها يدي لشربتُ من دمها بعد أن أملأ به كأسي بدلاً من الخمر التي ما عادت تُسكرني، ولا نجحت في إطفاء نيرانها التي شبّتها بجوفي.

أصابتني أحاديثه بالخرسِ والذهول، وبقيتُ أنظرُ إليهِ بعينٍ جامدة لا تنطقُ إلا بالمفاجأة التي أدخلني في دائرتها وأحكم إغلاقها حولي، كيف يمكن لأحد أن يفضي بأسراره هكذا لرجلٍ اصطدم به صدفة، أم أننا حين تمتلئ دواخلنا تفيض هكذا على الطرقات، وهل سيأتي عليّ يومٌ أهب صوتي لكل من أعرفه أو لا أعرفه ممن أقابلهم على أرصفة الوجع والذكريات، وقبل أن يتسنى لي التفكير بكلامه أشار إليّ صارخاً:

ـ لماذا أنت هنا؟ أنت من خانتني معه؛ صحيح؟ أنا أعرف أعرف، هيا اعترف؛ لماذا لا ترد أم أن القط أكل لسانك، هيا تكلم لا تبقى صامتاً هكذا، هل بعثتك لتتبعني؟ هل تنويان قتلي لكي لا أفضحكما بعد أن رأيتكما معاً تمارسان الغدر في غرفتي، وعلى سريري، فوليتَ هارباً وبقيت هي تحلف بأني كنتُ واهماً وبأن ما رأيته كان من أثر الشُرب والسهر مع النساء، ولكنني لم أكن أتخيل، أقسم لك أنها كانت تخونني، لقد رأيتهما معاً، أعني رأيتكما معاً، لم أكن واهماً أبداً، ولم يكن ما رأيته إلا حقيقة تجلت أمام عيني

يعتريني الذهول وتأكلني المفاجأة ولا أعلم بماذا أرد عليه، أحملُ بعضي وأعودُ لسيارتي ببعض السرعة وبالكثير من الارتباك تاركاً إياه خلفي يسب ويلعن متمايلاً كراقصةٍ بارعة يتلوى جسدها نشوةً وألماً وقد ارتدت العري لتقبض ثمن رقصها أو جسدها لا يهم أيهما يمنحها أكثر ويأتي لها بثمنٍ أكبر: تظن بأنك ستهرب مني؟ أُقسم بأني لن أهدأ حتى أقتلك، وحينها ستعودُ لي

حبيبتي التي تركتني وهربت إليك (ويمتزج صراخه ببكائه ولا أعود أفهمُ مع ابتعادي عنه شيئاً مما يهرِفُ به).

أُديرُ محرك سيارتي وألوذ بالليل ليُغيّبني عنه في ظلمته الحالكة وأتوسل أعمدة الإنارة الانتحار لكي لا يراني، لا؛ لا يمكن أن تخونني فاطمة لمجرد أنني لا أُشبع غريزتها الأنثوية، ثمة أشياء أهم في الحياة، الحب مثلاً، أيها الأحمق: عن أي حبٍّ تتحدث، وهل وهبتها الحب لتصونه؟ رباه! ماذا يدور برأسي؟ ما هذا الهراء الذي أفكر به؟ أيُعقلُ أن يلعب برأسي سكّيرٌ أحمق لم تسعفه قواه ليمسك بي ناهيك عن قتلي وهو يتوعدني بالقتل، أُسرعُ قليلاً وكأني أخشى أن أتأخر وحين أعودُ أجدها هجرتني لآخر هربت إليه ليهبها ما عجزتُ عن منحها إياه قبل أن يباغتها العمر بالنسيان فجأة، أتخيلني أصرخ بها وأثور، أتخيلني أقتلها، لا لن أقتلها، بل سأركع عند قدميها وأبكي وأتوسل إليها أن تبقى لتُضمِّد جراحي، أن تقول لي أن كل ما حدث كان كذبة بيضاء كذبتها لتُثير غيرتي وسأصدقها، سأصدقها لأنها لم تعتد الكذب، أو فلتقل إنني كنتُ واهماً وسأصدقها؛ فعيني لم تعد تُبصر جيداً بعد فقدي لمنى.

القمرُ يضحكُ عليّ وهو يتوسد الظلمة راجياً مني الكف عن خزعبلاتي وتركه لينام بهدوء فلا طاقة له على احتمال عبثية رجلٍ لا فائدة تُرجى منه، والفجر أوشك أن يشق العتمة ليُسلِّم الشمس مفاتيح الضوء لتبدأ مناوبتها في بث الحياة في الأرواح الغافية.

أُوقف سيارتي وأغسل وجهي ثلاثاً لأطهّره مما علق به من ذاكرة ذلك السكّير قبل أن أذهب للمنزل لأجدها تنتظرني وقد أعياها السهر فغفت على مقعدِ طويلٍ بالصالة والتحفت جسدها النحيل لتحتمي به من البرد، وكوبيّ الشاي أمامها على الصينية، لا زالا مملوءين لم يرشف سكّرهما أحد..

(3)

الحُزْنُ دائِرْ..

شمِّعوا أَزواحَكُم كي لا يَفوتُ..

وَيبْتليكُم..

هَكذا قالَتْ نِساءٌ في الْخَفاءِ..

وَما اسْتَتَرْت

هَلْ كانَ جَهْلاً أَمْ غَباءً..

رَغْبَةً في السّيرِ نَحْوَ الموتِ في ثَوْبٍ جَميلْ؟

يال السّنينِ..

وَظهْرُها الْمَحْنيُّ لا يَخْشَى حُفاةً عابرين

مَلّوا الطّريقَ فَسلّموا أَجْسادَهُم للفقْدِ..

واخْتاروا الرّحيلْ

الساعة المتوقفة في مكتبي تشبهني كثيراً، فهي معطلة عن الحياة منذ أمدٍ طويل، الفرق بيننا أن أمرها سهل فهي لا تحتاج سوى بطارياتٍ جديدة، أما أنا فأعتقد أني محتاجة لحياة جديدة تسرقني من شتاتي الدائم وحيرتي المتواصلة، أحياناً أتمنى حدوث أمرٍ غير اعتيادي يحوّل مجرى تفكيري، ولا يهم إن كان هذا الأمر خيراً أو شراً، جيداً أو سيئاً، ينفعني أو يضرني، لمصلحتي أو ضدي، المهم أن يحدث شيءٌ لا يشبه حياتي في شيء، شيءٌ أنقض به تفكيري الدائم بوضعي المتأزم مع أحمد وألوذ به بعيداً عن أفكاري السلبية التي قد تودي بي لأحدى المصحات النفسية قريباً.

رقية تأخرت، لا أدري ما حدث معها، وهاتفي لم يستقبل أي رسالة منها، أتراها تعاني القلق والتوتر مثلي، أم أنني أبالغ كعادتي دائماً في التعاطي مع المواقف والأزمات، بكل الأحوال أرجو أن تحصل على ما تتمناه دون أي خسائر نفسية، أحاول إلهاء نفسي بمشاكل الطلاب والجري خلف قصصهم التي لا تنتهي، تنبيه مؤيد الذي يتباهى بوزنه الزائد وفي كل يوم يضرب طالباً جديداً مدعياً أنه ينعته بالسمين، وطارق الذي ـ رغم سنين عمره التي لا تتعدى التسع سنوات ـ تحرّش بيونس ليعترف أخيراً أن أخاه الأكبر علمه أن الرجل يجب أن يتلذذ برفاقه قبل أن تمتد أيديهم إليه من باب تغدى به قبل أن يتعشى بك، ليبقى دائماً ذكراً ولا يتحول بين عشيةٍ وضحاها لفتاة تحمل اسم ولد، أعتقد أننا بحاجة لإرسال استدعاء لولي أمره فهذه

المشكلة تعدت حدود المدرسة ويجب على أسرته أن تتدخل وتقوم بدورها في مراقبته والعناية بتربيته، أنظر لساعتي التي تقترب من الحادية عشرة، وهاتفي لم يحمل أي خبر من رقية، حتى رسالتي لها لم ترد عليها، قلقي عليها يشعرني بالتوتر، حتى أنني ضقت ذرعاً بمكتبي فخرجت باحثة عمن تثرثر لي بأي شيء قد يُسرّعُ بانقضاء الوقت علّ خبراً يأتيني منها ويطمئنني عليها، ولكنني بالتأكيد لم أكن أرجو أن أرى رحمة، أتسللُ متقهقرةً لمكتبي هامسةً إلى الله ألا تكون رأتني، أو تغض الطرف عني وكأنها لم ترني، أو على الأقل تكون مشغولة فلا تأتي لتُسمم أذني بأحاديثها التي لا تملُّ أبداً من تكرارها عن زوجها الذي لا يهتم بها وأنها لا تزال بمنزل والدها معلقة بين زوجٍ لا يلتفت إليها إلا كل عدة أشهر وقلبٍ يحبه ويقدّسُ التراب الذي يمشي عليه، ورغم ذلك فهي غير مستعدة للتنازل عن أي حقٍ من حقوقها لتصل رحِمَ هذا الحب، ولكن دعواتي اصطدمت بسقف المكتب وارتدت إليّ مدحورة الرجاء ـ لتدخل رحمة المكتب تسبقها أحاديثها التي مللتُ من سماعها وأكاد أسردها عليها قبل أن تبدأ هي بترديدها علي:

ـ لن تصدقي يا فاطمة أنه أتى وكلم والدي لأعود إليه

ـ جميل!

هذا خبرٌ مفرح

ـ ولكني لن أعود

ـ لماذا؟

ـ بصراحة أنا لا أثق به، لا أعتقد أنه سيصرف علينا، حتى أنني قد أضطر

لدفع إيجار المنزل الذي استأجره لنا، إما أن يبني لي بيتاً وإلا فلن أعود.

ـ ولكنكِ قلتِ لي سابقاً أنه لا يملك المال لبناء منزل، ومن الجميل أنه استأجر منزلاً ليلم شملكم من جديد بعد فراق دام خمسة أعوام، كما يبدو أنه يحبك وأنتِ تقولين بأنكِ تحبينه، فلماذا العناد على أمور يفترض أنها لا تشكل عائقاً أمام حياتكما الأسرية السوية

ـ هو الرجل وهو من يجب عليه أن يصرف، ما أحلاني وأنا أدفع الإيجار بدلاً عنه وأشتري حاجيات المنزل نيابة عنه، وما دوره هو؟

ـ وهل البقاء هكذا يريحك؟

ـ في الحقيقة لا، ولكني غير مستعدة للتنازل أبدا

يرحمني رنين الجرس ـ معلناً انتهاء الحصة الخامسة ـ من استمرار أحاديثها، فأنبهها متسائلة:

ـ أرجو ألا تكون لديكِ حصة لنستكمل حوارنا ـ وفي داخلي أهمس إلى الله: ربِّ ارحمني

وأدعو الله ألا تكون متفرغة لتسميم أذني بحكاياتها التي لا تنتهي وجدلها الدائم حول قناعاتها، فأجابتني بأنها مشغولة ولكنها ستأتي لأخذ رأيي وتستشيرني بعد انتهاء الحصة، وأرجو أن تنساني بعد الحصة فلا تأتي، وإن تذكرت فأرجو ألا تجدني، وإن وجدتني فأرجو أن يكون معي سواها لتتركني أنعم بالسلام بعيداً عنها، فأنا أعلم مسبقاً أنني مهما قلت لها لن تسمع إلا ما يدور بعقلها من أحاديث ،ولن تعود لذاك المُسمى زوجها لأنه لا تثق بإمكانياته المادية، وهو سيتركها معلقة لأنها لن تفتدي نفسها ليطلقها، مذ

عرفتها وهي على هذا الحال، حتى بت أشك في أقوالها وأنه يأتي ليصالحها ويرجعها لمنزل الزوجية، وإلا فأي امرأة يطيب لها البقاء بعيدا عن زوجها مع اعترافها أنها تحبه، ثم تتباهى أنه يشتاق إليها وأنه حين يفيض به الشوق يدعوها لقضاء ليلة معه بإحدى الشقق المفروشة لتلبي رغباته ويطفئ لهفتها، ثم يعودان لممارسة لعبة شد الحبل، ويأبى كل طرف إلا الانتصار، ويمضي العمر خالياً من الحياة والحب والمتعة، وممتلئاً بالغياب والعزلة والانتقام، وأعجب منهما كيف يستطيعان المضي معاً بهذا الشكل النافق من الزواج؟

وأخيراً رنّ هاتفي وظهر اسمها، ردْتُ عليها بلهفة:

ـ رقية؛ أين أنتِ؟ طمئنيني عليكِ؟ ما الذي حدث؟

جاءني صوتها كسيراً:

ـ أنا بالخارج، هل لديك أحدٌ بالمكتب؟ لا أريد ان يراني أحد على هذه الحالة

ـ لا، أنا وحدي، تعالي وسأقفل الباب علينا

حين دخلت، كانت ترتجف كطيرٍ بلله المطر فما عاد جناحاه قادران على حمله والطيران به إلى عشه المتساقط من تلكم الشجرة التي قطعها برق الظلم، انهارت وبكت كثيراً وأنا أضمها لصدري راجية منها أن تهدأ، صمتُّ احتراماً لحزنها قبل أن أستجمع شجاعتي وأسألها:

ـ ماذا حدث؟ ألا يزال رافضاً للطلاق؟ ألا يزال يردد ذات الأقاويل بأنه متمسّكٌ بكِ حتى آخر لحظة، وأنكِ لن تتخلصي من قيده إلا بالموت، وعلى حدِّ قوله: من بيتي للقبر؟

ـ لا يا عزيزتي، لقد باع، وبظنه أنه ربحَ البيع، وما كانت مماطلته تلك إلا رغبةً في زيادة سعر حريتي، ومساومتي على البقاء ذليلة أو دفع ثمن انحلالي من عبوديته، وكما اشتراني يوماً بثمنٍ بخسٍ تلبيةً لرغباته، باعني اليوم للعدم وبثمنٍ أراهُ بخساً أيضاً مهما اعتقده كبيراً، فحريتي وراحتي أغلى من كل كنوز الدنيا، وإن كان هذا الثمن مهري مضاعفاً، وكأنه ما استحلني يوماً ولا كنتُ أماً لأطفاله، وكأنني الآن أدفع له ثمن الليالي التي قضاها معي محاولاً تعريتي من إنسانيتي وهو يتعامل معي كأي قطعة أثاث اشتراها وحُقَّ له استهلاكها دون رحمة أو دون الالتفات لرغباتها هي، ودون أن يكلف نفسه عناء سؤالها عما ترغب وما تتمنى، أو أن يهبها زجاجة عطر في عيد أو ثوباً تُباهي به أخواتها في تجمعٍ عائلي، ظلمني حتى ما ترك شيئاً بداخلي تجاهه إلا وأتى عليه، قضى على آخر شعرة تربط بيننا، نسف آخر أمل لذكرى طيبة، لا أدري لماذا كان مطلوباً مني أن أحيا معه كجارية لتلبية رغباته دون الالتفات لكوني أنثى لها رغباتها في الحياة، لا أفرق عن الحيوانات في شيء، وعاء لإفراغ طاقاته ورغباته فقط، لم يلتفت لي يوماً ولم يُشعرني بحبه ولا برجولته، لم يهمس لي في أذني ليخبرني عن جمالي الذي يتحدث عنه الجميع، لماذا كان يتعمد ألا يراني، ويتعمد إهانتي وإذلالي وتصغيري في نظر نفسي قبل الآخرين، لماذا كانت يده تمتدُّ لي بدل حضنه، ويدنسني بقذارة لسانه بدل قُبله، أين العدل في حياتي معه، أين الشراكة والكرامة؟

دعيني صامتة يا فاطمة، فما أحتاج له الآن هو النسيان لا التذكر

نظرتُ إليها، كانت كسيرة ولكنها لا تزال رافعة رأسها، همستُ لها:

ـ الربح والخسارة أمران نسبيان يختلفان من شخص لآخر، ما يراه أحدنا

ربحاً يقسم الآخر أنه خسارة وما نجزم أنه خسارة يثبت الآخرون أنه ربح، وهو خسِرَ البيع وما ربحه

رمقتني بعينٍ خلت من كلِّ شيء وقالت:

ـ هل تصدقين أنني لا أعلم ما أشعرُ به الآن؟ أهي لذة الانتصار، أم مرارة الخيبة، أم الاثنان معاً، كيف نخرج من حروبنا منتصرين ومهزومين في آن؟

كل ما أرجوه أن يتولاني الرحمنُ برحمته

انصرفت عني..

تبتعد خطواتها التي لا تحمل سوى الانكسار والتمزق بين ما كان وما سيكون، لم أحتمل رؤيتها وهي تتناثر أمام عيني كزجاجٍ هش حطمته أقدام من حسبته يوماً ما حبيباً وملاذاً بلا رحمة، عيناها التي لم تعرف سوى الدموع مذ عرفتها، أبت إلا الصمود في تلك اللحظة التي كانت تنقل لي فيها خبر طلاقها أو ميلادها أو ربما موتها الذي حل علي كالصاعقة رغم أني كنتُ أتمناه منذ زمن طويل..

سنين مرت، كنتُ أراها تذوي وتذبل، أرى ابتسامتها تهجرها يوماً بعد يوم، وأرى عينيها تغورُ في أحداقها، كنتُ أراها ولا أراها، ولست واثقة أن من أراها هي ذاتها التي أعرفها منذ أمدٍ ليس بالقريب، لم أرها يوماً إلا والابتسامة تزين وجودها، كانت تُشيع الفرح في حضرتها، ولكنه لم يرحمها، ظل يعيث في طهرها فساداً، ويضيق عليها الخناق يوماً بعد يوم، كنتُ أراها تُحتضر، ورغم ذلك كانت تكابر حتى الموت بداخلها..

وقبل أن أستفيق من صدمة رقية، وحتى قبل أن أُخلِّص روحي من بين

براثن ضغوطات المدرسة وأعمالها التي لا تنتهي أو حتى قبل أن أُهيئ أذني من جديد لتفتح أبوابها على مصراعيها للتمتمات الواردة من أي فاه، أو أي ثرثرة جديدة ـ جميلة كانت أو مؤلمة ـ جاءتني إحدى الزميلات وبدون أن تمنحني فرصة للملمة شتاتي فاجأتني بقولها:

ـ فاطمة؛

هل رأيت حالة مريم على الوتس آب؟

وأرتني الجملة التي كانت قد نسختها (لن يدوم الأمر طويلاً حتى أنفضكَ من روحي كسيجارةٍ سممت صدري، وتلكَ التي استبدلتني بها لن تهنأ بكَ إلا بريئاً مني).

ـ ما رأيك؟

هل الجملة مخيفة أم أنني أنا الغبية؟

ولم تكن المسألة محتاجة لأي ذكاءٍ أو بصيرةٍ نافذة، فقد بدا الأمر جلياً بأن مريم على عتبات الطلاق، والسبب كما يبدو هو وجود أخرى في حياة زوجها، رغم أنني أكره هذه العادة السيئة من البعض في تتبع حالات الآخرين في محاولة منهم للتلصص على أسرارهم إلا أنني الآن ممتنة لهذا الفضول لأنه سيمنحني فرصة لمواساة مريم والوقوف بجانبها.

يا الله، ما الذي يحدث؟ لماذا وفي يوم واحد يتكرر لفظ الطلاق مرتان، رغم اختلاف الشخوص والحكايات؟

أطرقتُ رأسي مليّاً وفكري يَكاد يُشلّ من هول ما هداني إليه تفكيري..

مريم التي حدثتني كثيرا عن عشقها لزوجها، وعن غيرتها المجنونة، وخوفها الدائم من انصياعه لأخرى وهجره لها أو بالأحرى هجرها له لأنها لن تحتمل أن تشاركها إياه أخرى.

مريم التي كانت تصرح مليّاً بأن موته أرحم وأهون وأخف وطئاً من ارتباطه بأخرى، وأنها لا تتخيل أن ترى أخرى تتأبط ذراع أحلامه وتمضي به حيث لن تراه مجدداً ولن تغفو على وجهه بين أحلامها أو يوشوشها بأشواقه قبل أن تُسلّم له ككلٍ لا يتجزأ وتُغمض عينيها لتصحو على أصابعه تمشط شعرها المنساب كموجة هادئة لم يعلمها الشطّ كيف تثور فتهذي له كثيراً بأنه الأكثر وسامة ورجولة وشهامة و و و بين رجال الأرض وأنها الأكثر حظاً بين نسائها..

كل أحاديثها عنه كانت تمرُّ أمامي كسحابة سوداء عاصفة توشك أن تُمطر غضباً أو سُخطاً، أتُراها ستقذفُ نيرانها دفعةً واحدة كصاعقةٍ تأتي على كل شيء ؟أم سترمي بها شرراً مستطيراً يطال من يطال ويحرق من يحرق دون أن تحمل كل شرارةٍ اسم صاحبها أو جُرمه..

أمسكت الهاتف وبدأت بالبحث عن اسمها، ولا أدري السبب الذي جعل أصابعي ترتجف ويسقط الهاتف من يدي فألتقطه مجدداً مكررة محاولة البحث عن اسمها بين قائمة مليئة بالكثير من الحكايات والأسرار التي اعتدت أن أصغي إليها تقريباً كل صباح وأنفضها من أذني كل مساء، ولم أكن أتخيل بأنّ نَفْضي لها لم يكن سوى محاولة فاشلة وأنها لا زالت تستعمر ذاكرتي المقيتة التي لم تتعلم النسيان يوماً، لم يكن الأمر فضولاً بقدر ما كان رغبة مني في الاطمئنان عليها، ومعرفة أنها بخير، فقط بخير!

لم يطل رنين الهاتف، يبدو أن مريم كانت تنتظر اتصالاً، من يدري ربما كانت تنتظرني..

- مريم..

- أنا لستُ بخير!

- هكذا جاءني ردها صاعقاً، بدون مقدمات: أنا لستُ بخير

كل شكوكي كانت صحيحة، لم يكن وفياً، كنتُ أستشعرُ خيانته، ولم يخب ظني أن هناك أخرى يرتب أيامه ليمضي بها إليها مخلفاً إياي رماداً تتلاعب به الريح وتذروه هباءً منثورا، وأبحث عني فلا أجدني وأحاول لملمتي فلا أتمكن من لملمة رماد تناثر بنفخة هواء، حتى أحلامي كانت تنبئني بأنه لم يكن وفياً، هل تذكرين كيف كنتُ يومياً آتي إلى المكتبة لأبحث عن تفسير حلمٍ باغتني في غيابه، وكيف كانت رؤاي تخبرني أن ثمة أخرى تتلصصُ علينا حتى تباغتني وتخطفه وتطيرُ به بعيداً حيث لن أراه مُجدداً، لم يكن الأمر محتاجاً لأكثر من بعض الوقت ليرتب أموره، لم تُثمر به كل تضحياتي، وصبر السنين لم يُنجب سوى الجفاف وما آتت أُكلُها أحلامي.

- مريم؛ هل نلتقي؟

- نلتقي؟!

وهل لي أرضٌ يمكنني مواعدتك بها؟

أصبحتُ كالمشردة لا بيت ولا زوج ولا حبيب ولا أحلام ولا ماضٍ ولا آت.

ـ مريم، اهدئي أرجوكِ، كل شيء سيكون بخير، فقط دعي اتكالك على الله.

تُجيبني بسخرية، لا بل بحرقةٍ ومرارةٍ تعدّت حلقها إلى روحها وباتت تحكي عنها.

ـ لن تشعري بما أمر به الآن، أشعرُ أني كنبتةٍ اجتُثّت من فوق الأرض ما لها من قرار، كسماءٍ بلا عَمَدٍ تُوشِكُ أن تتهاوى، لا منزل يأويني وأنا زوجته التي صاغت واقعه عشرين عاماً، ولا رجل يسند ضعفي إذ تميدُ بي الأرض، ولا ذاتٍ أعرفها بعيداً عنه، تركتُ منزله وأتشبثُ بجدران بيت أبي التي وهنت من ضعفي وما عادت تقوى على حمل عظامي الواهية، أعلم أن أبي لن ينوء بي وبأطفالي ولكن كيف أعود لأملأ شاغراً غير موجودٍ أصلاً، الفتاة إذا خرجت من بيت والدها لا تعود إليه إلا كسيرة ومن يقول عكس ذلك فهو واهمٍ وكذاب، ناهيك عن أخوتي الذين ثاروا عليّ وكأني ارتكبت جرماً بحق أحدهم، حتى إن أحدهم جاهَرَ بقوله: أنني جلبت لهم العار بإصراري على الحفاظ على حقي في أن يكون زوجي لي وحدي، مردداً بسخريةٍ ووقاحة تعدت حدود الأخوة والكرامة:

وما الذي سينقُصُكِ إن تزوج؟

ستكون لكِ لياليكِ ولن يبخسكِ حقكِ بها، ثم ما الأفضلُ لك؟ أن يكون لديكِ رجلٌ يُشبع رغباتكِ أو جزءاً منها أو تُحرمين من التمتع به بشكل دائم؟

أعلم ما الذي كان يُلمّحُ إليه، ولكن أياً تكن حقارة أفكاره، أليس من حقي أن أهنأ بحضن زوجي كل مساء، لماذا يجب عليّ أن أتقبل أن تُشاركني به

أخرى، لماذا لا يؤخذ من الأمور إلا حاجة الجسد وما نفقده وما نكسبه منها، أين هي أرواحنا من كل ما يحدث؟ لماذا لا نجد من يلتفت لها ويشعر بأنها الأولى بمنحها حقوقها كاملة دون نقصان؟

وقبل أن تُكمل هوسها المحموم قاطعتها:

ـ سآتيكِ هناك غداً عصراً، استعدي لنتجول معاً قليلاً في السيارة، ونتحدث بهدوء.

ـ صدقيني لا أستطيع..

ـ أنا سآتي وأنتِ تصرفي معي بما يمليه عليكِ قلبك، دعيني في الخارج إن شئتِ فالشوارع لن تضيقُ بي إن لم تستقبليني، ولكني سآتي فأنا بحاجة لأن أسمعك أكثر من حاجتكِ أنتِ إلى الحديث، إلى اللقاء؛ فقد حضر أحد أولياء الأمور لمقابلتي..

وأغلقتُ الهاتف دون أن أمنحها فرصة للرد، فلا أريد أن أهبها وقتاً للبحث عن عذر يسمح لها بالتملص من مقابلتي.

صحيح أنها تعتقد أني لا أشعر بما تمر به من مبدأ: (من يده بالماء ليس كمن يده بالنار)، لكنها لا تعلم أني لربما أعاني أكثر منها، فلا أصعب من الحياة على شفا الموت، ولكن الصبر وحده ما سيجعلني أتجاوز هذا الجرف إلى عالمي الذي أحب، فلستُ تلك المرأة التي قد تمنح روحها للاستسلامِ وجبةً شهية على طبقٍ من ذهبٍ أبداً، كل ما في الأمر أني لا أحب الثرثرة بتمتمات قلبي الحائرة..

في اليوم التالي في حدود الرابعة عصراً كنتُ أنطلقُ بسيارتي إلى منزل والد

مريم الذي يبعد عنا قرابة المائة كيلو متر، والذي بالكاد أذكر الطريق إليه لأني لم أذهب إليه سوى مرة واحدة، حين ذهبتُ لتعزيتها في موت جدتها رحمها الله، كان ذلك قبل عامٍ أو أكثر بقليل، لا تُسعفني الذاكرة الآن، ولكن تفاصيل حكاية جدتها لا تنمحي من ذاكرة حزني، جدتها التي تركها زوجها بعد أن هرمت وتزوج بأخرى بحجة أنه بحاجة لمن يرعاه، ويلبي رغباته كرجل أو لنقل كفحلٍ فقد قدرته على إثارة زوجته فهبّ يبحث عمن تنقذ له كبريائه المنحور على عتبات العمر ومضى يتحسس أخبار الأرامل والمطلّقات علّه يظفر بإحداهن ممن خانها صبرها فيرتمي بين يديها يتلمس أنوثتها علّها تُوقظُ رجولته النائمة منذ سنين لعل العطار يُصلحُ ما أفسدهُ الدهر، وبالفعل نجح في اصطياد إحداهن ممن أضناها الفقر والجوع وباتت تبحث عن ظل رجلٍ ترمي إليه عوزها فتمنحه أنوثتها ويهبها بعض الشبق الناقص ونطفة طفلٍ سيأتي ليجد أباه جثةً أكل الدهر منها وشرب وما عاد يصلح لتربية طفل لن يلحق أن يراه رجلاً، فإن أمهله العمر لن يُمهله الشيب وقد طاف الثمانين من عمره، ورمى بزوجته إلى ابنتها لترعاها، زوجته التي لم تعانِ من الشيب بقدر ما عانت من الخذلان، يقول الإخوة المصريون: "ظل رجل ولا ظل حيط" والظاهر أن ظلال الجدران قد تحمي من الحرور وظلال الرجال أشباه وجودٍ لا تلبث أن تتلاشى أمام أول غيمةٍ تراود الشمس عن سعيرها، عشر من السنوات عاشتها كطيف امرأةٍ لا تعرف من أنوثتها سوى الغيرة على رجلٍ تركها معلقة بين السماء والأرض، لم يهبها جناحين لتطير ولا أهداها أقداماً لترسو على الأرض، وهكذا ظلت مشدودة للاشيء، ومحرومة من كل شيء، وحين ماتت قالوا إنها استراحت من ذل الخيانة الذي كانت ترتديه مذ تركها عارية من ثقتها به، والأمان الذي كانت تسمع به من جاراتها وهن يلُكْنَ لحوم

أزواجهن عصر كل يوم، ووحدها كانت تتمنى لو توصيهم بأن يطلبوا منه أن يوسّدها قبرها كأمنيةٍ أخيرة أو لمسةٍ أخيرة قد تُسكن رعشةً انتظرتها كثيراً كي تأتي حاملة معها عمراً من السكينة كانت تظن أنها عرفتها، حتى صحت ذات يومٍ على حقيقة الوهم الذي كانت تظن، وظلت أمنية لم تبُحْ بها لأحد، وما هذت بأمنيتها ولا كان آخر من ذرّ على قبرها ثراه، ورحلت جدتها وبقي بعدها عاجزاً غير قادرٍ حتى على الاتكاء على ذراع زوجته الأربعينية أو كف طفله ذي التسعة أعوام، وبقي يهذي باسمها ويقول لهم إنها لم تمت ولكنها ذهبت إليه فهو لم يعد هنا، ومنذ ذلك اليوم وهو يثرثر كثيراً عنها للأشجار وللظلال وللشمس ولليل ولكل من لا يسمعه ويسمعه أو يسمعه ولا يسمعه، ولكنها ما عادت تهتم بأحاديثه، هل حقاً أنها لم تكن تسمعه؟ من يدري، فلربما كانت هناك تسترق السمع من خلف الموت..

لم أضل طريقي للمنزل، فعلى ما يبدو أن رائحة جدة مريم قد دلتني على بيتها، فمن ذا الذي قد يُنكر رائحة الحناء الذي تضعه على شعرها ليخفي ما ابيضّ من شبابها أو خليط الصندل والكركم الذي يعيد البريق لما ترهل من حُسنها الذي ما عرفته يوماً ولا نظرت إليه في مرآة، ولا اهتدت إليه عين رجل، فالرجال في زمانها يستحرمون النظر إلي إناث الآخرين ـ عكس رجال عصرنا الذين يطاردون القُبح مطاردتهم للجمال في كلِّ وجه ـ وزوجها لم يكن بصيرا، وما عرف النظر لما كان يتدفق من أنوثتها بين يديه.

تملأ أنفي تلك الرائحة المشوبة بالحضور بين دفتي الغياب، جدتها التي لم أرها يوماً ،كان يكفي أن تخبرني مريم عنها لأستدل عليها، وأصل لما لا أعرفه من روحها الطيبة والعابقة بالكبرياء المدسوس في ثوبٍ أبيض حملها

لمثواها الأخير بدل أن يزفها لمن لم تعرف من الرجال سواه، ولا نظرت عيناها لغيره، ولا نادت أحداً باسمه سواه..

أقف وأرسل لها رسالة نصية: أنا في الخارج، أنتظرك..

لم تكد تمر خمس دقائق إلا ومريم تمتطي السيارة عن يميني، مما يدل على أنها كانت تنتظرني ربما بلهفةٍ تزيد على لهفتي لرؤيتها، ورغم ذلك لم تسعفنا ألسنتنا لنبدأ حواراً حول ما يحدث معها، أو نبش جرحها الذي عاثت فيه يد الغدر حتى التهب وأصبح من الصعب معالجته..

أدرتُ المذياع لأحرك ما سَكَنَ بداخلنا من صمت، لتفاجئنا أم كلثوم بصوتها يبكي:

حب إيه إلي إنته جاي تقول عليه؟

إنته عارف قبله معنى الحب إيه؟

لما تتكلم عليه

لما تتكلم عليه

حب إيه إيه إيه

حب إيه إيه إيه

حب إيه إلي إنته جاي تقول عليه؟

وبدل أن أُكحّلها أعميتها ـ كما يقول المثل ـ بدون قصد، تباً للإذاعة والأغاني حين لا تأتي في وقتها، وكأن أحداً أوصاهم بإذاعة هذه الأغنية في هذا الوقت بالذات لأن آخر أعلمه أنني سأُدير المذياع ومريم معي لأنكأ

جرحها، ولم يَمْحُ إغلاقي للمذياع الارتباك الذي شاب وجه مريم عند سماعها الأغنية، ولم ينجح في إبعاده سؤالي عن والدتها وكيف هي مع التهاب المفاصل الذي تعاني منه، فاضطررت أخيراً أن أستجمع شجاعتي وأقول:

ـ مريم، ماذا حدث؟

وبعد صمتٍ طويل زاده الشارع الفارغ من السيارات ـ إلا فيما ندر ـ طولاً همست:

ـ ماذا أقول؟

لا أدري إن كان هناك ما يستحق أن يُروى، ولا أدري إن كنتِ ستفهمين حديثي، ولا أدري إن كان بوحي سيُشبعُ من جوع الحقيقة شيئاً، ولكني بحاجة لأن أنفض عن صدري غبار عمري الذي تلوث بعشقٍ ما فقهت ماهيته يوماً..

حكايتي التي بدأت منذ أول ليلةٍ جمعتنا، حين شعرت بالخوف والرهبة من اللقاء الأول رغم أننا تزوجنا عن حب ولم يكن زواجاً أسرياً أجبرتنا عليه العلاقات العائلية مع أننا أقارب فعلاً، وبدافع الحب طلبت منه أن يمهلني وقتاً لأتهيأ للأمر، ولكن العادات والتقاليد التي تطلب إثباتاً على شرف الفتاة وفحولة الرجل وقفت حائلاً بين طمأنينتي إليه، حينها ثار عليّ وغضب لأني لم أطلب منه الأمر مسبقاً ليتصرف بدمٍ يضعه على المنديل الأبيض ليثبت لهم أني الشريفةُ العفيفة وأنه الرجل القادر على هتك أعتى ستار، أما وأني لم أخبره برهبتي مسبقاً فلا بد من الانصياع للتقاليد التي لا يهمها ما نشعر به بقدر ما يعنيها ما يجب أن نكون عليه، ولا تهتم بأرواحنا ذات الاهتمام

الذي تُوليه لأثوابنا التي نرتديها، من يومها يا فاطمة وأنا أشعر بنفورٍ منه وكأنه اغتصبني ولم ينل مني حقه الطبيعي كزوجٍ دفع ثمناً لما أخذ.

"وتوقفتُ كثيراً أمام جملة "دفع ثمناً لما أخذ"، ولكني آثرت الصمت لمنح صوتها ما شاءت من وابلٍ لتقذفه في وجهي لعلي أحملُ عنها شيئاً من حِملها الثقيل مع يقيني المسبق أني فاشلة حتى قبل أن أبدأ، ثم أذعنت لحزنها مرة أخرى وهي تهذي بوجعها".

من يومها لم أعرف ما معنى التلذذ بحضن زوج أو الارتواء بشبقٍ يهديه حبيب، لا أنكر أنه احتملني كثيراً بعدها، وحاول منحني الكثير من الوقت للتأقلم والوصول لرغبةٍ حرمني منها بعد أقل من ساعةٍ على اختناقي بجدرانٍ أربعة جمعتني معه، كما لن أُنكر أنه أغدقني بالكثير من الهدايا القيمة التي لم تكن تعنيني أبداً في محاولة يائسة منه أن يعيد إليّ أنوثتي المسفوكة بين يدي رجولته، أعلم أنكِ تفكرين الآن بأن من حقه الزواج بأخرى لأني لم أكن أشبع رغباته، وسأجيبك قبل أن يلمس السؤال شفتيك ويصيبهما بالوهن، كانت الإجابة لتكون نعم يحق له لو أني كنتُ أُظهرُ له ما يعتريني من اشمئزازٍ كلما اقترب مني، أو أني لم أمثل ـ كنجمة يتسابق عليها المنتجون لبراعتها في تأدية أدوارها ـ الانتشاء معه والتلذذ بالحب معه، وما كنتُ أبادره برغباتي وإظهار حاجتي إليه أكثر مما يُظهرها هو، وقبل أن يحاول إظهارها، ولكني أدركتُ متأخرة أن عطاياه تلك ما كانت إلا ليطهر بها ذنوبه التي كان يرتكبها بعيداً عني، حتى طالتني يوماً، وأنا بغبائي كنت أظن أنه يشعر بوجعي بعد ما حدث ويحاول التكفير عن ذنبه ليلتها..

ـ ذنوب؟!

ـ نعم؛ ذنوب!

يوماً بعد يوم كانت حقيقته تتضح جليّة أمام عيني، فزوجي الذي أُغليه أكثر من روحي ليس سوى سكّيرٍ يُعاقر الكأس كخليلةٍ ينحني أمامها حتى تنثني له وتذهب بعقله طوعاً، وأصبح يهدر أمواله رغم أننا الأحق بها في سبيل متعته ما بين كأس تروح وأخرى تجيء وعاهرة يهبها جسده وماله وما كان يدري بأنه يهبها زوجته وأطفاله ضمناً، ناهيك عن القمار الذي صار كظله ورفيقه الدائم حتى أفلس وما عاد يجد ما ينفقه على نزواته ولا حتى على أسرته، ثم بدأ في الاقتراض من البنوك وتضييع الأموال التي اقترضها حتى جاء اليوم الذي طرقت فيه الشرطة باب منزلنا المستأجر وكانت صدمتي الأخرى بأن زوجي الغالي مدين بأكثر من عشرين ألفا للبنوك وإن لم يدفعها سيودع السجن ويفقد وظيفته، ومن باب الحب قبل الواجب ـ فأنا لا أحتمل أن يصيبه بأس أو تشكّهُ شوكة في باطن كفه ـ أقدمتُ على الاقتراض من البنك ودفعت ديونه وتبادلنا الأدوار، وأصبحت مدينة للبنك لأحرره من دينه وبدل أن يشكرني على فعلي اتهمني بالطيش والتسرع وأخذ بالصراخ عليّ لأنه كان يرى أنه ما كان يجب علي فعل ذلك، وأنه رجل وقادر على حل مشاكلنا جميعها دون اللجوء لضلعٍ اعوجّ أكثر كلما حاول إصلاحه..

لا بأس!

لا يهمني الشكر كثيراً، ولكني كنتُ أرجو أن يعود لرشده، ويحافظ على حياتنا معاً وأن يمارس دوره كزوجٍ وأب، وأن يتحلّى بالقدر البسيط

من المسؤولية، لم أكن أطلب الكثير، فقد اكتفيت بالمنزل المستأجر ذي الغرفتين أحتلُ أنا وإياهُ أحدها ويسكن أطفالنا الأربعة الأخرى، بلا مكانٍ آخر أستقبل فيه على الأقل أفراد أسرتي ولن أقول لكِ صديقاتي أو جاراتي، ولن أصِفَ لكِ حجم الخجل الذي يعتريني كلما طلبت احداهن زيارتي واعتذرتُ منها متحججة بأسبابٍ واهية لا تمت للحقيقة بصلة.

يسألني الجميع: كيف أنتِ؟ أُجيب: الحمدُ لله..... وأصمت، وأختصر في صمتي ما انغرس بصدري من وجع؛ ثمةُ سؤالٍ يُعريني للبرد: ماذا قد يعني الوفاء لرجلٍ عرف قبلي عشرات النساء وسيعرف بعدي عددهن؟ وماذا تُمثلُ الخيانة لأنثى لم تُبصر سواه؟

ارتضيتُ بأن أذهب للعمل صباحاً حتى لا أعجز عن تسديد ديوني وأعود ظهراً للعمل في المنزل من إعدادٍ للغداء وغسلٍ للملابس وتنظيفٍ للبيت دون أن أفكر باستجلاب خادمة تخفف عني بعض العبء لضيقِ ذات اليد ـ بعد أن قام البنك باستقطاعِ جُلّ راتبي لتسديد القرض ـ من جهة، ولعدم وجود مكان قد تؤوي إليه في منزلنا من جهة أخرى، كلُّ ذلك تحملتُه لأني أحبه، ولا أتخيل أن يمضي بي العمر بعيداً عنه، ولا أن تتنقل خطواتي على غير الأرض التي يكون فيها، قد تتهمينني بالجنون، ولكن لا بأس لا يضيرني ذلك، أرضى بكل ألمي ووجعي معه، ولكني لا أرضى بأن أكون بضاعة مزجاة يقتنيها حين حاجة ويرميها حين استغناء، إما أن يكون لي وحدي أو لن أكون له أبداً، ولتذهب كل الأعراف والتقاليد إلى الجحيم ليحرقها ولا يبقى منها سوى الدخان الذي يعلو ويعلو ليتبدد أخيراً في الفراغ، فلقد

مللت كل شيء ولم أعد مهتمة بأي شيء، فقط لو أفهم يا فاطمة، فقط لو أفهم: لماذا؟ أي أنثى ستحبه مثلي؟ وأي امرأة ستستوعبه كما استوعبته، وهل ستهبه أطفالاً يحملون اسمه ويكونون شهوداً على غدره وظلمه لي؟ أتعتقدين أنه قد يُسمي ابنته مريم؟

وكأنها كانت تعتصر الكلمات من روحها، كان ذبولها يزداد مع كل كلمة تلفظ أنفاسها على شفتيها، أجهشت بالبكاء، وعجزت عن تهدئتها أو ربما لم أشأ تهدئتها لتنفس عما يعتمل بداخلها من ألمٍ وقهرٍ لا تقوى على حمله ولا على كتمانه ولكنها مجبرة أن تمضي به حيث يشاء لها القدر، حاملةً إياهُ كخطيئةٍ تجلدها بسياطِ الذنبِ كل آنٍ علّها تتوب؛ ولا تتوب!

تُمسك هاتفها وتكتب:

" لن أنسى ما حييت أنني كنتُ أنسجُ لك من أيامي حُلماً يرفعكَ للسماء، وأنكَ كنت تمتطي روحي لتعلو وتعلو، ولم تنتبه يوماً لتلك الأنفاس التي كانت تغادرني تحت وطأة قسوتك بلا رجعة، لا بأس يا حبيبي؛ روحي فداك

شكراً لأنك علمتني أن النسيان لا يتعدى عتبة الباب، ما أن وطأتَها حتى تلاشى نبضي بقلبك، وما عاد أرقٌ يتأبط عينيك كلما همستُ باسمك سراً.

لم يكسرني بشرٌ كأنت؛ فبقدر الحب والثقة يكون الانكسار عظيماً والدمار مدوياً..

شكراً لك أن منحتني رصاصة الرحمة قبل الرحيل؛ فالحياة التي تستجدي الموت لا تُجدي نفعاً.

لن أسامحك؛ وستبقى معلقاً بين الخوف والرجاء حين تُسألَ عني: بأي ذنبٍ قتلتني؟!

ولن أسامحك

أدرجت رقم هاتفه الذي مسحته من الهاتف وظل عالقا بذاكرتها المختنقة به، وضغطت ارسال ثم أغلقته.

الأمر برمته تم بمنتهى الهدوء، ثم رفعت رأسها وقالت بإصرار: سأُغير رقم هاتفي، لن يصل إليّ وإن حاول، أقسمُ أنه لن يصل..

وصمتت

وثمة سؤالان تعاركا برأسي بصمتٍ كاد يفجّره وما انتصر أحدهما:

هل سيسأل؟

هل ستنسى؟

أعدتُها لمنزل والدها وودعتها وصدى قصيدة نزار قباني رسالة من امرأة التي صدحت بها الفنانة فائزة أحمد يتردد في أذني:

أنا لست آسفةً عليك..

لكن على قلبي الوفي

قلبي الذي لم تعرف

يا من وقفتُ دمي عليك

وذللتني ونفضتني

كذبابةٍ عن عارضيك

ودعوت سيدةً إليك..

وأهنتني..

من بعد ما كنت الضياء بناظريك

وأردد:

وذللتني ونفضتني

كذبابةٍ عن عارضيك

يا إلهي!

أي هوانٍ تشعر به المرأة حين يستبدلها حبيبها بأخرى، يتخذها قِبلة لأحلامه، ويُعتمَدُها على عالمه، ويتركها على حافة القهر تُلقم جراحها ملحاً علّها تبرأ، ودون سابق إنذار يبدأ بلوك حياتهما معاً ليلفظها بعد أن ينتهي من سُكّرها، أي حياة ستتبقى لي لو أن أخرى تسللت إلى حبيبي أحمد، هل سأحتمل؟ أم أنني سأرمي بنفسي من عُلو الوجع دون أن يرتدّ إليّ نبضي؟

لماذا حين نمد أيادينا عطاءً يسرقون أصابعنا ويرحلون؟

لماذا حين نفتح أعيننا بعد ليلٍ طويل نجد أن الشمس يراودها الكسوف؟

لماذا نُسكنهم أرواحنا ويتلذذون برشفِ دِمائنا ونحيا منفيين أقصى الجفاء؟

لماذا والبُعدُ يُرعِشُنا كطائرٍ بلله المطر نرمي أضلاعنا حطباً لمواقدهم، ويضحكون وهم يتساءلون: كيف أنّا لا زلنا نرتعش حين احتراق؟!

لماذا والسماء غائمة، ننتظر المطر ولا يأتي، ونحلم بالصحو ولا يأتي، ونهذي بروحٍ شفافة تغني للمطر، وتحضننا تحت المطر، وينقشعُ الغيم، ولا زلنا نهذي!

ألف لماذا ولا إجابة قد تمنحُ الغدر عذراً، أو تهدي الخيانة صكاً شرعياً للحياة.

فَلْنفترق

سَلِمت رِماحُكَ سيّدي

أنتَ الذي من خلفِ ضلعِكَ خُنتني

أدْميتَ قلبكَ سيّدي لم تُدْمِني

فأنا أُحبّكَ رُغْمَ ما أهديتني

يا قِبلتي ..

هل كنتُ فعلاً لا أساوي مُقلتيكَ ..

وَكُنْتَ عن قلبي تُخبئُ ما جنيت؟!

أوَما دريت بأنني ..

أُنثى وحَدْسِيَ لا يخيب

هَلَعي عليكَ يَدُلُّني

يجْتاحُني قَلَقٌ إذا أُخرى تُسابِقُني إليك

فَلْنَفْترق ..

ما عاد يُجدينا البقاءُ مُعذّبي ..

عيناي من ماءٍ وجفني يحترق

فلْنفترِق

كيف يمكن للقلوب أن تنقلب بهذه الطريقة وتتحول من حبٍّ لآخر دون أن ترفق بمن أهداها عمراً وكان يراها الحياة وعداها موتٌ أقسى من الموت، يا مثبت القلوب ثبت قلبي على هداك، وثبت نبضي على عشق أحمد دون سواه، وسلّمه لي زكيّاً طيباً.

مضيت وأعاصيرٌ من الحزنِ تعصف بروحي وأنا أحاول أن أفهم طبيعة العلاقة بين الوفاء والخيانة وبين اليقين والشك وبين الصدق والكذب وأخيراً طبيعة العلاقة بين الحب والكره..

الخيانة كالخمر تُسكرنا لذتها اشتهاءً رغم مراراتها التي تظل عالقة بأرواحنا، ورغم أننا نتقيؤها كل صحو، ورغم أن ظلالها لا تنفكُّ تلتحف الظلام وتلعن الفجر كل لحظة وفاءٍ للشروق لأنه يفضحها، أو يجبرها على التنبه لحماقاتها

فجأة أنتبه أن الجمعة الأخيرة من الشهر موعد زيارتي للجدة أم خليفة جدة سلوى ـ احدى الطالبات بالمدرسة ـ تقتربُ..

يقولون إن الجوع كافر وأم خليفة آمنت تماماً بكفره، حين تعلمت أن تنام بلا عشاء يومياً بعد أن تُطعم أحفادها الصغار طبقهم المفضل أو غير المفضل لا يهم المهم أن هذا هو الموجود، طبق خبز الرخال الذي تخبزه الجدة بضعفها ويغمسونه باللبن الذي يحضرونه من منزل احدى الجارات، ويتكرر الأمر ذاته صباح كل يوم، وتلملم هي ما تبقى في أكوابهم من خبزٍ تبلله باللبن المخلوط بالماء وتسد به رمقها لكي تقوى على رعايتهم تعاونها على ذلك حفيدتها سلوى، الحفيدة الكبرى بين إخوتها.

سأُخبر أحمد عن هذه الأسرة ـ التي ترعى فيها الجدة أحفادها الستة بعد أن توفي والداهم في حادث سيارة، ولأن الأب كان يعمل سائقاً لسيارة أجرة، وكانت إيرادات هذه السيارة هي مصدر الرزق الوحيد لهذه الأسرة، فإن وفاته كانت تعني تشتت أطفاله وبقاءهم بلا معيل، ولم يجدوا سوى جدتهم ذات السبعين وهْناً، والتي تتقاضى راتباً من الضمان الاجتماعي بالكادِ يكفي لإعالة شخص واحد فقط ـ وسأطلب منه أن يهتم بأمرها ويحاول الحصول على راتب من الضمان الاجتماعي لهؤلاء الأطفال ومنزل يمنحهم بعض الأمان ويستر عري أرواحهم، واثقة بأنه لن يتردد أبداً في تقديم المساعدة والأمر ليس بصعبٍ أبداً فبمجرد اثبات أحقية هذه الأسرة بالراتب وحاجتها للمنزل سيتم الأمر، كل ما نحتاجه هو صدق النية والمحاولة الجادة وكلانا يملكها..

كم أحبك يا أحمد وأنت تُعييني على فعل الخير كلما همستَ لي: يالَ قلبكِ يا فاطمة؛ رغم ألمكِ تُنبّشين عن بذرة فرحٍ تغرسينها بقلب كل حزين، كم أنتِ عظيمة، وكم هو كبيرٌ قلبك!

ما كَبَرَ قلبي يا حبيبي إلا حين سكنته، كان صغيراً جداً، كقلوب الأطفالِ لا يعرف سوى الفرح بقطعة حلوى، أو البكاء لانكسار لُعبة، ولكنه حين امتلأ بك أصبح كقلوبِ الثوار مستميتاً في الدفاع عن حقه، وانتمى للغرباء في بحثهم عن وطنٍ يعودون إليه، قلبي الصغير كبيرٌ بك، تعلم أن يتسلق السحاب ويستسقيك الحب، لعل الله يروي بك أرضه التي عاث بها الجفاء جفافاً حتى أكل اليباس أوردتي وتفشّى بشراييني يعيثُ بها ذبولا، لذلك؛ لأجلك أنت، أنت وحدك؛ يا من راودته الأساطيرَ عن عروسِ الماء فاقترف الحُلم بجنون، أيها العذب البهي الشفاف كقطرة ماء، يا من ملأت سمائي نجوماً بيضاء، ويا من أهديتني جناحين للسماء، وعلمتني أن أعتق الغيم لأسقط أمطارا، يا دفء القوافي وارتعاشات المساء وأراجيحي المعلقة بالقمر وطفولتي التي ما كبرت يوما، سأكون أنت الصغيرة، وسأنثر أقواس قزح على روحي وأهديك ياسمينة بيضاء، وسأشخبط بفرشاتي القزحية على الهواء لأُبشرك بالمطر، وسأتفتح في الفجر لأهديك ابتسامات النور ودفء القلب.

فأنت حين تتكاثر في أفكاري أشعر بحاجتي لأن أختبئ بين الفراشاتِ وفي الأنهار، وخلف الأصواتِ والأحلام، في العطر وضحكات الأطفال، لكيلا يراني سواكَ أحد؛ فالهواء ما عاد يكتمُ الهوى، وأنا حين هذيتك أغنيةً سَكْرى هدهدت الأمهات صغارهن والتحفن الشوق وبكِين.

الآن لا بد أن أذهب إلى التسوق لشراء الحاجيات التي اعتدت على شرائها للجدة أم خليفة رحمه الله،كم أكره التنقل بين الرفوف التي يتم تغيير نوعية بضاعتها بشكل دائم وكأن هؤلاء التجار لا يكفيهم أن يمصوا دماء

الفقراء بغلو أسعارهم بل علّموا سلعهم كيف تنادي زبائنها وتغريهم على اقتنائها دون تفكيرٍ منهم بمدى حاجتهم إليها أو قدرتهم على شرائها، وأغلبهم يأتيه منتصف الشهر وهو يتحسس جيبه الفارغ ويدعو الله أن تمضي الأيام خفيفة لطيفة عليه وعلى فلذات كبده دون أن يباغتهم الجوع أو تقرصهم الحاجة لشيءٍ ما، ورغم أن هذه المأساة تُعاش تقريبا كل شهر إلا أن البضاعة المُغرية لا زالت تنادي مُحبيها ليقتنوها برضاً وابتسامة دون أن يشعروا أن ثمة من يسخر منهم ويتلاعب بهم.

هكذا نحنُ..

اعتدنا أن نُسلم أرواحنا لمن يغلِبُ بريقه على الآخرين، دون أن نعي أن هذا البريق ربما أعْمانا عمن هو أكثر لمعاناً ولا يحتاج سوى أن نُغمض أعيننا قليلاً لنستطيع الرؤية جيداً دون أن تحرمنا أكفنا من رؤية النور وبإراداتنا..

أنتشلُني من فوضى البضائع وأرتمي بعينيّ أحمد الذي يمنحني الأمل بأن أحيا وبداخلي يقين بأن غدي أجمل من يومي الذي أحياه لأن ثَمّة ما لا أعلمه تنسجه لي الأقدار بظهر الغيب، أن أبتسم وبعيني دمعة أحاول منعها وتسقط رغماً عني، ورغم ذلك أبقى مبتسمة، وكلما رددتُ يا الله أجابَ يقينٌ بداخلي: آمين، وسجدتُ لله شكراً هامسة بقلبي وعقلي: "اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك".

أحمد الذي أحمدُ الله أنه لا يشبه الرجال في ارتداء النساء ثوباً مهترئاً لا يلبث أن يتخلص منه، وفاءه لمنى يجعلني ممتنة لها أن علمته أن الحب أكبر من لعبة الحياة والموت، وأننا حين نحب نُصبحُ أجمل، تسكننا البراءة

والطهارة، نُخبئ أوقاتنا عن الجميع لنهديها لمن نحب، أشعر بالغيرة تُعري الحزن بداخلي كلما أتت منى من قُعْرٍ بأسفل ذاكرتي، وأحمد الذي غرسها كسدرةٍ في فناء دارنا، ما عاد يقدر على تقليمها وأفرعها تطرق نوافذ غرفتنا كلما خلونا مساءً فتتلصص علينا ونحتار كيف نستر خجلنا منها فنذوب حزناً ونتوارى منها خلف أغطيتنا الباردة ويُولي كلٌّ منا ظهره للآخر لتطمئن أننا لم نخُنها ويهدأ نقرها على النافذة وتعود لتنام وحدها بلا غطاء تُعانق البرد وتمنح الريح هدهداتها وتغفو..

(4)

علّقتني الأرض في سقف السّما وقالت لي: ارحل

وْما بقالي من جناح

لجْل أعوّد

أو أطير

من يفك قْيودها من معصمي

آنا جسد عاري وكلّي أرتجف

مخذول حتّى من دمي

دشداشتي ملّت عظامي

للأسف

واختارت الريح

وْرغْم هذا

كلّ شيءّ بْخير لكن:

عابسٍ مثل الشواطي اللي تفارقها النوارس

مـا لــها إلا تمنّي رْمــالها بْسربٍ جـديد

الحياة أشبه بزنزانه وْعليها الموت حـارس

والزمن شمْس وْسنين العمر قطعة من جليد

الشاعر العماني الشعبي عبدالعزيز العُميري

ذات الطاولة تجمعُ كوبيّ الشاي وقطع الخبز المحمص وجسدين ذاويين لا حياة بهما، وروحين سابحتين كُلٌّ في ملكوتٍ يأخذها وحيدة شاردة لا تفقه مما يدور على هذه الطاولة شيئاً، كل شيء يبدو مثالياً لكل من يُبصرُ بعينيه الدائرتين في رأسه أو يمنح قلبه عيناً ليُبصرَ بها، زوجان يتشاركان الحياة الصباحية منذ أن يفتحا عينيهما على الحياةِ صباحاً بدءاً بقرآنِ الفجر، إلى الإفطار الذي يشاطرهما التوتر والصراع المحتدم بين الماضي والحاضر، ليحمل بعدها كل واحدٍ جسده ويمضي إلى عمله، أحاول استراق النظر إليها وهي تمتهن الصمت أكثر مما تفتعل الحديث، ولا أعلمُ كيف أطلب منها الغفران وذنبي معها أكبر من مساحات العفو، كم أنتِ جميلة يا فاطمة! وكم أنا أعمى لأني لا أرى تمايل الزهر نحوكِ كلما مشيتِ أو بالأحرى أُغمضُ عينيّ عمداً لكي لا أرى، ولا تُفاجئني الشمس حين تغرب خجلاً من وجنتيكِ كلما نظرتُ إليكِ واحمرّتا خجلاً، حتى القمر ما عاد يستهويني أو بعبارةٍ أكثر دقة لم أعد أراه لأنه يتوارى مُحبطاً كلما وقفتِ بجواري، وأبدو كملكٍ تجري من تحتي الأنهار، وبناظري ألف مدينةٍ تغفو على أمان، فيخاتلني عطركِ المسكوب في أنفي ويبدأ بروحي عيدٌ يزهو به الأطفال ويتفانى الكبار لإرضائهم، ومع كل ذلك أجدني عاجزا عن منحك قبلة ـ فقط قبلة ـ تُشبع جوع روحك وأنتِ التي صمتِ ذات نهار وما أدركِ الغروبُ معي لتفطري..

أين أداري وجهي من عينيكِ كلما التفتِّ إليّ، لماذا لا تعاتبينني ولو بكلمة، لماذا يتوجب عليّ الهروب دائماً من نظراتكِ التي تُسقِطُ بي حزنها سراعاً كغيثٍ منهمرٍ دون انقطاع، ولا جدار بقربي قد أحتمي به، ولا مظلة بيدي أتقيه بها.

الصباح لا يتغير، يأتي دائماً في موعده، حاملاً بيده شمساً وعصافير ووجوهاً لا تعد ولا تحصى، جميعها للنسيان إلا وجهكِ بكل ما اكتساه من حزن يبقى ماثلاً أمامي، وأنا كتلميذٍ نسي حقيبته فصُلِبَ في ساحة الطابور منذ الصباحِ حتى الظهيرة دون أن يلتفتَ له قلبٌ فيمنحه قطرة ماءٍ تبل خجله، لا شيء سوى الضحكات المتغامزة من حوله كلما مرّ به أحدهم

لماذا أتذمر الآن من الصباح، أليس هو ذاته الذي ألفته معكِ منذ أن تزوجنا، لماذا أراه الآن لا يليق بكِ، لماذا تُوسوسُ لي نفسي بأن أقطف الشمس وأُلقمها سحابة تبتلعها سريعاً وتُمطر صباحاً آخر مفعماً بالارتواء، لا ظمأٌ يصيبنا بهِ ولا نَصَب، صباحٌ له من صلواتكِ سجودها ومن همساتك هديلها ومن وجهكِ ابتسامته وعينانِ كزنبقتينِ تتفتحان في صدري وتنشران به أريجهما.

ولكن الصباح لا زال كما هو لم يتغير، لا زال يُصلي غيابي، ولا زلتُ مُتهماً به كلما أجبرني على التعاطي معه، يُصاحبني في كل خطوة تأخذني لعملي، ومع كل مقال ممتد في الغواية والتضليل يُختتم باسمي في جريدة لها من ضلالتي نصيباً مفروضا، كم أشتهي لو أسرقُ هذا الصباح وأرميه في البحر وأعودُ لكِ بصباحٍ آخر كذاك الذي يهمسُ في أذن الأشجار ليغريها بغِواية الريح.

لو تعلمين يا فاطمة مقدار الارتباك الذي يتلكأ بين شفتيّ كلما هممتُ بأن أخبركِ بما يجول في نفسي، هو ذاته التردد الذي يلعبُ بأصابعي وهي تستجدي الكلمات أن تخرج من مكامنها بعقلي، ليتني أستطيع إطلاق سراحها كعصافير تحلق من فمي لسماء أذنيكِ، بل ليتها تبني أعشاشها في قلبكِ لتتأكدي من صدقي، وأني أحبك.

فوضىً عارمة هذه التي تُسيطر على قلبي، وتتلاعب بنبضه، أحتاجُ إليكِ لتربتي على قلبي، أنا الذي أعتصرُ قلبكِ بأنانيةٍ لا مبرر لها، حتى السماوات ترفض تقبّلي، فأرد خائباً كلما دعوت ربي أن يأخذني أو يعيدني وألا يتركني معلقاً بضوء نجمة أفلت منذ سنين، أنا المسجون في روحي المقبور مع أخرى عرفتها قبلك.

سامحيني لأني كلما نظرتُ إليكِ وتسارع النبضُ بقلبي، جاءتني منى حاملة عتبها في تابوتٍ عظيم وفتحته أمامي، فتتطاير منه خفافيشٌ تفقأ صدري وتمتص الهواء من رئتي، وتبكي لأنني سلمتُها للموت بيدي وتراب قبرها العالقُ بأصابعي يشهد على هول جُرمي، ثم تتهمني بالخيانة لأني لا زلت حيا بعدها، وقد كنتُ أقول: أن بُعدها موتٌ وما مِتّ!

باللهِ عليكِ أخبريني ماذا أفعل؟ أشعرُ أني كمقاتلٍ عاد لتوّه من أسفارهِ منتصراً، فوجد بلاده سبيّة بيد من هزمهم، المسألة برمتها كانت خُدعة وانطلت عليه دون أن يكتشفها، وما كان انتصاره سوى انتكاسة كبرى سلبت منه وطنه الذي تركه تراباً لا حياة به، مُجبرٌ على التخلي عن أرضه، والانتحار بعيداً، لا يمكنه أن يرمي نفسه من قمم جباله، أو يُغرق نفسه بأحد أوديته السحيقة،

أو يدفن نفسه حياً تحت ترابه، مُجبرٌ أن يمضي غريبا عاريا من وطنه الذي استمات في الدفاع عنه، ومع كل انتصار كان يخسر جزءاً إلى أن خسره كله، وما عاد له وطن، فسلّم نفسه لليل يقتصُّ منه في الظلام، ما هذا الهذيان الذي يملأ جمجمتي، ويدبُّ بها كالنمل الأحمر، لا يكتفي بالدبيب بل يُصرُّ على لسع أي شيء يعترض طريقه، وهذا الصداع اللعين أكبر دليلٍ على ذلك.

تنتشلني فاطمة من شرودي منبهة:

ـ ألن تذهب للجريدة؟

ـ بلى سأذهب، هيا بنا

نأخذ وحدتنا بأيادينا ويمضي كلُّ لسيارته، هذا الصباح تعمدتُ أن أدعها تسبقني، كنتُ محتاجاً لأن أرى مشيتها المنكسرة لأشنق نفسي بحبل الذنب لربما سامحتني، لكنها هذا الصباح بدت لي أكثر انكساراً، وكأنها هرمت فجأة، أو لكأن يداً امتدت لعمرها وسرقته، وفاجأتني أكثر حين رفعت رأسها فجأة بجوار السيارة ونظرت لوجهها المنعكس على نافذتها ثم مدّت أصابعها لشفتيها وبدأت برسم ابتسامة عريضة، ليس من السهل أن نبتسم ونحن نعاني السكرات، وكنتُ أظن أن فاطمة هي الوحيدة القادرة على الابتسام في حضن الألم، وأنها قادرة على رسم الابتسامة بسهولة ولكنني اكتشفت أنني مخطئ تماما ،فأصابعها التي أعانتها على الابتسام قليلاً كذبتني، يا إلهي، ما الذي فعلته بها، كيف خطفت ابتسامتها وسنين عمرها وأحلامها ودسستها جميعها في وجهِ قمرٍ يبزغ كل مساءٍ فيتغنى بجماله الشعراء ويصف به العشاق وجوه حبيباتهم، وما علموا أنهم لا يصفون سواها وأنها ستذوب مع أول قبلةٍ يمنحها

الفجرُ لوجنتيها وتتلاشى، خطفتها جميعها وما أبقيتُ لها إلا الحزن ينخر عظامها ويتسلى بقضم قلبها كما استسلمت لقرض أظافرها أخيراً، يبدو أنني أستلُّ الحياة من عروقها يوماً بعد يوم، ولكنها رغم كل شيء بدت جميلة..

جيد أنها لم تنتبه لي وأنا أراقبها من سيارتي، ومضت لعملها بعد أن التفتت إليّ وابتسمت وأشارت بيدها مودعة، فابتسمتُ لها ابتسامة باهتة لا أملك سواها لأهبها لها أو لغيرها، أعلمُ أنني أظلمها كثيراً بمساواتها بغيرها ولكنها الحقيقة التي أتبجحُ بتعريتها لنفسي على الأقل، طالما أني عاجزٌ عن تعريتها للآخرين.

أحملُني للجريدة، الطريق إليها ملأى بالتحويلات المزعجة والزحمة التي لا تحتمل، لا أدري متى سيكون لشوارعنا مساراتها الهادئة، ألا يكفيها القرابين التي سلبتها منّا عنوة، هل يجب أن نذبح لها قرابينَ أكثر لتبسط لنا طرقها السوداء القاتمة؟

تبدو شوارعنا كعاشقةٍ مستبدّة، لا تهنأ إلا حين نُثبت لها أهليتنا لهذا الحب، ونُريق دماءنا لنروي ظمأها الدائم، وكلما مسحت دم أحدنا عن شفتيها نادت على آخر، ونحنُ ننقادُ لها كالمُخدَّرين لا نتوانى في منحها ما شاءت من دماء، وهذه الأرصفة شاهدةٌ على عُهر طرقاتنا وهي تُعانِقُ الموتى كل يوم..

صباحٌ شتائي يتنفّسُ الحياة، والأشجار التي نفضت أوراقها تحاول استبدالها بأخرى، لماذا لا أكون مثلها وأستبدلُ سنين منى بعمر فاطمة، الطيور التي تبني أعشاشها لم تغادر حين هبت عاصفة بالأمس، ولم تنم لأنها

ظلت مستيقظة طوال الليل تحتمي ببعضها وكلٌّ يفرد جناحه للآخر ليدفئه وغصن الشجرة المائل يشهد على ذلك، بل عادت تبني ما تهدم من أعشاشها وهي تُهدي الريح التي حاولت قتلها بالأمس أغانيها العذبة، لو أني أستطيع أن أكون كهذه العصافير وأغني للموت كي ينام ولا يلاحقني، أن أرسم الأمن في دائرة الخوف وأُطلقُ ساقيَّ للحياة لعلي أصلها قبل أن يطرقُ الموت أبوابي ليأخذني معه..

أصلُ للجريدة، آخذ نسختي اليومية وأبدأ بتقليبها، لا تزالُ صور الموتى تتصدرُ الصفحة الأولى، بدءاً بحوادث السيارات وما تخلفه من قتلى وجرحى والإحصائيات التي تتوالد كل يوم حتى شهدت نمواً وصل حد التضخم، لنصل للحروب والاغتيالات والخيانات، وننتهي بالثورات والحكام وما يفعلونه بالشعوب وكأنهم أبناء الله الذين اصطفاهم لنفسه واصطفى لهم الأرض ومن عليها، وكل من عليها عداهم مُسخرين لخدمتهم وربما إطالة أعمارهم أيضاً أو هكذا يظنون، أتعجب منهم كيف يفترشون الحرير وشعوبهم تأكل التراب وتتلمّسُ الماء من الطين، ألم يقتلهم الغثيان وهم يشاهدون جثث الأطفال المنتفخة على الأرصفة، كيف للأرق ألا يصاحبهم إذا ما رأوا جثّة امرأة تحتضن طفلها لتحميه من الموت فتموت معه، كيف لهم أن ينجبوا أطفالاً وقد قتلوا أطفال من تولّوْا أمرهم، بل كيف لهم أن يعاشروا زوجاتهم وقد رمّلوا النساء بعد أن هتكوا أستارهن، وتركوا الرجال حيارى بلا أطفال ولا نساء، بل كيف لمن يُطلقون على أنفسهم مسمى ثوار أن يقتلوا إخوتهم، أين روح الثورة الحق وهم يختبئون خلف الأطفال والنسوة ويتاجرون بدمائهم

وجثثهم ليثبتوا للعالم أنهم على حق، وأنهم أهل الحق وإتباعهم أولى، وكلما كثر الموتى كلما ازدادوا ظلماً وعتوا، ومدّوا ألسنتهم للحياة وللحب، للجمال وللطفولة ورفعوا أسلحتهم في وجه البراءة، رفعوها للسماء وتناثرت النجوم عليهم ولكنها لم تحرقهم، حتى النجوم أطفأؤها، ورغم الموت ما بكت السماء، ظلّت حبلى بسحابها رغم السواد الذي اكتساها، ما بكت لأنها لم تشأ أن تروي أرواح القتلى بدمعها، آثرت أن تراهم يظمأون يوماً بعد يوم ولا ترويهم حتى لا تشاركهم جرمهم حين يختلط دمعها بدماء الأبرياء المسفوكة ويتباهى المجرمون بأن السماء تُبارك فعلهم، ألا قاتل الله الظالمين، ولا أبقى لهم شبراً بالأرض إلا ولعنهم، حتى يتحول ترابها شوكاً يُدمي أرواحهم قبل أجسادهم، ويلفظ أجسادهم النتنة حين تغادرها الأرواح إلى الجحيم دون رجعة.

لماذا أصبحت أخبار الموتِ كأي خبر آخر نقرأه في جريدة أو نسمعه من فم صديق، تبلّدت أرواحنا، وما عادت لفظة الموت تصعقنا كما كانت تفعل آنفاً، وبعد كل هذا تعاتبني فاطمة أنني أرتدي الموت، وفي كل يوم أخلع من الحياة ثوباً وأرميه..

أُكمل تصفح الجريدة، لأتفاجأ بخبر مقتل شاب عماني التحق بالثورة السورية للجهاد، ويضيف الخبر أن الشاب لم يتعد العشرين من عمره، يتملكني الغضب على أولئك الذي يستغلون إيمان الشباب ويرمون بهم لجهنم راسمين لهم جنةً قطوفها دانية يتفيأون ظلالها عن يمين وعن شمال، لا أدري بأي عقل ينقاد شبابنا لأولئك الذين يطلقون على أنفسهم مسمى ثوار ويتركون أوطانهم وأهليهم ينهبهم الخوف والقلق في انتظار خبرٍ من ابنٍ لا

يعرفون طريقه ولا إلى أين قادته خطاه الغافلة، حتى يفاجأوا في يومٍ نحسٍ بمقتل فلذة أكبادهم دون ذنبٍ سوى أنه كان يبحث عن الحق فأوهموه أنه في الشهادة، أتذكر أبا عبيدة العماني الذي قُتل في أفغانستان، لا زال البيان الذي تلاه المجاهدون هناك عن كونه كان تقياً زاهداً شجاعاً طامعاً بالشهادة ويحسبون أنهم نالها ـ يحسبون؛ إذن هم لا يؤكدون، ولا يملكون ضماناً يدخله الجنة حين ينسف نفسه أو يتلقى رصاصة طائشة أو تصيبه قذيفة من طائرة لا تفرق بين صغير وكبير ـ

مات وما صدّق أهله موته إلا حين أرسلوا لهم صورته عارياً من الحياة مرتدياً حُلة الموت، لم يودعهم ولم يخبرهم أنه سيرحل ولن يعود، وكما كان رحيله مفاجئاً جاء موته مباغتاً لهم على حين غرةٍ من الانتظار، ولأنه لم يكن ينوي العودة لم يكلف نفسه عناء تأخير دراسته فصلاً أو عاماً في الكلية التي ينتسب إليها.

قرأت يوماً أنك إذا أردت أن تصنع مجاهداً يكفي أن تنزع عقله وتمنحه عقلاً آخر على مقاس جنتك التي ترسمها له، وسيمضي للموت دون أن ترمش له عين، وهكذا استغلوا براءة شبابنا وإيمانهم فأوهموهم أن الموت هناك حياة وأنهم يدافعون عن قضية هم أبطالها وروّادها، وما كانوا يعلمون أنهم ليسوا سوى جسور لعبور كل رأس إلى قمة جسده الذي يتمنى

أرمي الجريدة جانباً وأذهب لعبدالله، فقد تمنحني صوره صباحاً صاخباً بطعم الشروق..

ـ صباح الخير يا صديقي

ـ أهلاً أحمد؛ طلبت نسكافيه للتو، هل أطلبُ لك معي؟

ـ لا شكراً؛ شربت الشاي بالمنزل قبل أن آتي

ـ طبعاً يا عم، النسكافيه لنا نحن العُزّاب، أما أنتم المتزوجون؟ فلكم الحياة بأسرها، شاي وإفطار و و و..

وأبتسم له

ـ حسناً حسناً، دع عنك عُقد العزّاب، أرني صورك..

فيبسط أمامي الكثير من الصور

ـ متّع ناظريك يا صديقي، صور بلا فائدة، كلها تهيم وتهيم وتعود بي إلى هذه الجريدة..

صَدَقَ عبدالله، فلا جديد تحمله، هي ذاتها منذ عرفته وأستغرب منه كيف يستطيع التقاطها في كل مرة، فيجيبني ساخراً حين أسأله:

ـ هي ذات القدرة التي تجعلك تكتب ذات الخبر كل يوم..

ـ اعذرني يا صديقي معك حق

أحملُ نفسي عائداً لمكتبي، بالفعل لا شيء جديد، لن ألومها هذه الأوراق المبعثرة لو أتيتها يوماً ووجدتها كنست نفسها لأقرب حاوية قمامة هرباً من قلمي الذي يعيث بها حزناً كلما وعدها بفرحة صغيرة

بطريقي أمر على المطبخ لألقي التحية على العم سليمان الذي يُعدُّ المشروبات الساخنة والباردة للموظفين أو لزوار الجريدة، هذا الرجل له في

قلبي موقعٌ لا ينافسه عليه أحد، أحبه كثيراً، ربما لأنه اختصني دون سواي بأسراره، يأسرني بابتسامته التي لا تفارقه، ليتني أمتلك ابتسامة كالتي تعانقها شفتاه، كنت أتساءل: أي سعادةٍ يحياها هذا الرجل تجعله لا ينسى ابتسامته في زحمة عجلته وهو يتهيأ للعمل كل صباح، أدخل عليه وهو في غمرة انشغاله بإعداد الشاي لأحدهم:

ـ صباح الخير عمي سليمان

ـ صباح الخير يا أستاذ أحمد، اشتقت وجهك بإطلالته البهية يا بني، أين أنت؟

ـ سامحني يا عمي، لا عذر لتقصيري في المرور عليك والسؤال عنك، ولكن قلبك يتسع دائماً لهفواتي الصغيرة ولا يُلقي لها بالاً.

ـ لا عليك يا بني، ما رأيك بكوب شاي من يد عمك سليمان، أم تريد قهوة، أم....

ـ لا لا شكراً، أتيت لأسلم عليك وأطمئن على أخبارك، متى ستعزمني على عرس ابنك داود؟

ـ لا أظنه سيكون قريبا يا أستاذ أحمد، الأمر أصعب مما ظننا، فأهل البنت التي يريدها اشترطوا عليه أن يسكنها بمنزلٍ مستقلٍ عن أهله، وكما تعلم فقد بنى ملحقاً مكونا من غرفتين وصالة في منزلنا لعدم امتلاكه لأرض يبني بها منزله الخاص لأن شراءها يحتاج لقرض آخر يُضاف للقرض الأول، والأرض السكنية التي تمنحها له الدولة تحتاج سنيناً لا يعلم عددها إلا الله

يقضيها منتظراً لدوره حتى يحصل عليها، وغالباً ستأتي بمنطقة خالية من الخدمات ولا يمكن السكن بها إلا بعد عدة سنوات أخرى، ناهيك عن أن القرض الذي استدانه غير كافٍ لبناء منزلٍ كامل، وجيد أنه استطاع إتمام ذلك الملحق، ولا يُمكنه استئجار منزل ودفع إيجار شهري لا يقل عن مائتي ريال مع راتبه الذي لا يتعدى الخمسمائة وخمسين والبنك يأخذ تقريباً مائة ريال قسطاً للقرض، فكيف سيعيش بمائتي ريال مع مصاريف البيت وفاتورة الكهرباء والماء، وإن استطاع اليوم فهل سيكفيه هذا المبلغ للغد، أم أنه سيحيا حياته كلها من دَيْنٍ لآخر، هل تعتقد أن الحب الذي بينهما سيصمد أمام ضنك العيش وصروف الحياة؟ ولكننا لا زلنا نحاول مع أهل الفتاة ليقبلوا بسكنها معنا، خاصة أن منزلنا ليس به سوى داود وأخيه واثنتان من أخواته وسيأتي نصيبهما وتتزوجان، ولن يبقى بالبيت سواه وأخيه.

ـ بإذن الله ستتيسر الأمور، أنت رجلٌ طيب، والله لا ينسى الطيبين يا عم سليمان ويرزقهم دائماً من حيث لا يحتسبون.

ـ الحمد لله على كل حال، نحن الفقراء يا بني تصعب حياتنا مع كل يومٍ تشرق به الشمس علينا وتصاحبنا به أنفاس دافئة لا زالت تحملُ لنا دوراً بالحياة.

لا أُخفيك يا بني أنني حاولت اقناعه بالزواج من ابنة عمه، فهي لن تشترط عليه ما اشترطته هذه الفتاة وأهلها، ولكنه مصرٌّ أن يتبع قلبه، ولا أريد أن أضغط عليه، كل شيء بالغصب إلا الزواج لا يكون إلا بالرضا والاتفاق.

ـ دعه لما شاء يا عم سليمان، حين يتزوج من اختارها سيكون لقراره دورٌ

كبير في توجيه حياته الزوجية نحو الأفضل بإذن الله، دائماً ما نكون قادرين على تحمل نتائج قراراتنا، ولكن تلك الأقدار التي يتحمل تبعيتها آخرون نقف أمام أبسط عوائقها غاضبين محتجين حانقين لمَ قدّر لنا المُضي بها دون أن نُمنحَ حق تقرير مصائرنا.

ـ بالفعل، لذلك صمتُ دائماً كلما واجهني بإصراره على انتظار موافقة أهلها، ولكني أشفِقُ عليه حين أراه يضرب أخماساً بأسداس وهو يحاول إيجاد حلٍ للأمر، والقلق لا ينفك يصاحبه من أن ترحل حبيبته لآخر يملك المنزل الذي يطلبه والديها أماناً لمستقبلها، فليس أسهل من أن تأتي برصيدٍ في البنك وتشتري من تشاؤها زوجة لك دون أن تلتفت لماضيها أكان به سواك أم لا يزال صافياً لك لم يكدره عشقُ آخر.

ـ لن يحدث ذلك بإذن الله، لن تقبل الارتباط إلا بداود، فهي ما عشقته إلا لأنها وجدت به فارس أحلامها، وداود رجل يستحق الاحترام والخير كله، اطمئن يا عم سليمان ودع اتكالك على الله، ولن يخيب ظنك به تأكد من ذلك.

ـ والنعم بالله، سامحني لأني آخذ من وقتك الكثير وأفضفض لك عما يعتمل بصدري من هموم.

ـ أنت بمثابة أبي فلا تقل مثل هذا الكلام، والآن سأتركك لعملك ولا تحرمني من طلتك بمكتبي بين الحين والآخر، أستودعك الله.

أترك العم سليمان وأتجه لمكتبي، ليت ما وقف بيني ومنى منزلاً لم

أتمكن من بنائه، أو دفع إيجاره، ليتها بقيت وحال بيني وبينها عناد أهلها أو خطيبٌ أوفر حظاً مني وأكثر وجاهة مني، ليتها بقيت ولو بعيدة عني، لاكتفيتُ بأن أستقصي أخبارها عن بعد، أن أنظر إليها وهي مع آخر كالنجوم التي تتوسد الظلام ولا طاقة لنا بلمسها أو اقتباس ضوئها في عتمة لياليا، كان يكفي أن أراها حين لا تُغلق عليها أبواب لا تتعرف على أصابعي عند فتحها، كلُّ ذلك كنتُ لأتحمله لو أنها لم ترحل، أما أن ترحل هكذا بدون أن تترك خلفها ظلاً يشي بمكانها فذلك ما لم أستطع أن أتوازن بعده أبدا، منى يا عم سليمان رحلت ورحل معها كل شيء.

خطواتي أوصلتني إلى المكتب، وعلى ما يبدو أن عقلي ظل يتحدث مع عمي سليمان، وسرت دونه وحيداً شارداً إلى أن وقعت عيني على صورة فاطمة بأحد الأدراج التي نسيتها مفتوحة قبل أن أذهب لمشاهدة إبداعات عبدالله المسجونة في صوره.

تُرى ماذا تفعل فاطمة الآن؟ هل تحل مشاكل أحد الطلبة؟ أم تستمع لشكوى معلمة من زوجها؟ أم أن أخرى تشي بأخرى لديها؟ أم أنها تُهدئ غضب أحد أولياء الأمور لأن احدى المعلمات وبخت ابنته لأنها لم تحل واجباتها؟ ما أجملكِ وأنتِ تمنحين الآخرين أذناً كالسماء تتسع لكل أحاديثهم دون أن تقاطعي أحدهم أو يصيبكِ ضجرٌ من تكرار ذات الأحاديث، حتى ثرثرتي المسائية بكل ما يحدث معي تستمعين لها بهدوء واستمتاع، رغم أنه ذاته يتكرر كل يوم، ولم أشعر يوماً أنكِ تتصنعين متعتكِ تلك، لربما أنكِ كنتِ تستمتعين فعلاً!

أشعرُ أني لستُ بخير، يعاودني ذلك الصداع الذي استوطنني مُنذ رحلتِ، كنتُ أعلم أن الحياة أبخل من أن تمنحنا ما نريد ولكن الأمل خدعني وباغتني بخطفك من يدي حين شعرتُ أن لا شيء سيفرقنا، وما همستُ يومها إلا الموت فقد كنتُ أراه بعيداً جداً أبعد من مدى كلمة قد تخرج من فمي وتطير بكِ دون عودة، من يومها وأنا أؤمن أن النقص رداء الكمال، وأن ما بيدي ليس لي، حتى فاطمة لم أتمكن من احتوائها بداخلي، ولا صدّقتُ أنها زوجتي وتحيا معي، أشعر بالفراق يحوم فوقنا كغراب يبحث عن سوءةٍ ليواريها، أخشى أنني أنا من سيمنحها للموت على طبقٍ من وجع كما فعلت بمنى قبلها، لذلك لم أجرؤ على الاقتراب منها خشية أن أفقدها حين أُوقن أني تمكنت منها، أعلمُ أنها تظن أنني لا أحبها ولكن الذي لا تعلمه أنني أحبها لدرجة أنني أخشى عليها من نحسي العالق بي كجلدي ولا يمكنني خلعه وتركه على عتبة الباب قبل أن أدلف لمنزلنا، فكيف أُقنعها أن الحياة ليست سوى والدة رؤوم لذلك المسمى الموت، وأن الفرح بوابة الأحزان ومواقد الحرائق التي لا تنطفئ، كطفلةٍ كانت منى تبنيني قلاعاً من الرمل وتضحك لأن قلاعها كانت دائماً مائلة، فتهدمها معترضة: كل الرجال مائلون إلا حبيبي، هيا موتي أيتها القلعة، لا تغضب يا حبيبي إنها قلعة غبية..

أواهُ يا مُنى، يا من أوقدتِ أضلعي وتركتني لأحترق، وشرّدتِ الغيم من أفقي وما أطفأتني وأنا أحترق، ومضيت بنهرك بعيداً وأنا أحترق، رحيلك علمني أن الموتى يسكنون بيننا، وها أنا أنثرُ بعضي في كل شبر أقتفي فيه أثرك، لأهتدي إليّ حين أفكر بالعودة، وما انتبهتُ لعصافير الذاكرة التي

كانت تلتقطني من خلفي، وحين التفت لم أجد ما بعثرتُهُ مني، فلا أنا وصلتُ إليكِ ولا استدللتُ طريق عودتي

بعض الفراق يشبه الموت يأتي وينتزع أرواحنا ويرحل لا يلوي على حياة، والانتظار رشفةٌ من شهقات الموت وكل موعدٍ لا يأتي يُحضر الموت بيده ويرحل مُخلفاً وراءه رماد قلبٍ ظل يستعرُ شوقاً، فمن يهبني قلباً أهبُهُ لفاطمة وقد تركتني منى خاوياً من قلبي

بلا قلبٍ أنا أمضي

بلا قلبٍ

وأُشنَقُ دونما ذنبٍ..

سوى أنّي

كفرتُ بنعمة الحبِّ

فيا ربِّ..

أذنبي أنني مَسْخٌ

بلا قلب

لقد تركتني مسخاً بلا قلبٍ قد ينبض لأخرى، كل ما يفعله هذا المجوف بداخلي ملء ذاته بالهواء وطرده سريعا قبل أن يحمل له عطر أنثى غيرك.

كل شيء يصرخ بوجهي: رَحَلت؛ وأنا وحدي أُهدهد حزني: اهدأ اهدأ، فهي هنا، وأُشيرُ إلى قلبي، ألا تشعر بتردد الصدى؟!

وكأني أنا، والأشواقُ تُعريني لينكشفَ غيابكِ؛ وأتساءل: هل ثمةُ شبهٍ بيني وبيني؟

وكأن جسدي قلبٌ، وثَمةُ رجفة لا ترحمني أنتفضُ كلي، أرتعش، وأنتِ أبعد من مدى حُلمي فكيف أهدأ؟!!

كعادتي لا تمرُ فاطمة ببالي إلا وتأتي منى لتقف بيننا، وكأن الحياة لا تمضي إلا بنا نحنُ الثلاثة معاً..

رباااااهُ..

هذه الروح تحتاج رضاك تواري سوءتها فيه، لماذا يواري الثرى سوءة أجسادنا وتبقى أرواحنا عارية تنهشها الذكريات؟!

أحتاجُ أن أُدفَنْ؛ فإكرام الميت دفنه!

تزداد حدّة الصداع، أشعر بالبحر يناديني، فلربما أجدها هناك تبنيني قلعة مائلة ما استقامت بعدها، أُهرِّبُ نفسي من العمل قبل أن يلمحني المدير ويعترض على كثرة خروجي وكأن الجريدة لن تصدر غداً إن لم أكن موجودا، بودي لو أوسوس للبحر فيبتلع الشمس التي تلتهم رأسي وتكاد تُذيبه لولا رفق الأمواج بي فتهدئ من ثورتها قليلا، لا أعلم سر العداء بيني والشمس؟ أسأل الشاطئ عن خطواتك؛ أين ذهب بها؟ ألم تكن موجودة هنا بالأمس؟ من محاها اليوم؟ هل كانت تلك خطواتك؟ أم أنها لأخرى تمثل دورك لتُغريني بها لأتبعها؟ آآآهٍ يا منى؛ لو تعلمين ما صنعه بي غيابك لكنتِ أخرجتِ لسانكِ للموت حين أتاكِ وعدتِ إليّ ترتمين بحضني وتمنحيني

الدفء الذي ما عرفته منذ رحيلكِ، وكأن الحياة شتاءٌ دائم وهذه الشمس ليست إلا كرة محترقة لن تلبث أن تلتهمها غيمة أو يبتلعها ليل ويعود الشتاءُ لينخُر عظامي..

ماذا لو عُدتُ للبيت، بماذا قد يختلفُ هذا اليوم عن سواه، فاطمة لن تسمح لي بتناول المهدئات والصداع لا يرحم، ليس لي إلا أن آخذ حبة قبل ذهابي للمنزل، بكل الأحوال هي ستكشفني حين تسألني ويُخرسُني الارتباك، ولكن ليكن، لا أحتمل هذا الصداع اللعين الذي يسري برأسي كسوسٍ لا يمل من قضم ما علق بذاكرتي ليذرني خالي الوفاض من أي ذكرى، ولا يمكنني أن أسمح له بذلك، وفاطمة لن تُعلّق على الأمر، ستكتفي بأن تنظر إليّ وتصمت، كلانا اعتاد هذا الأمر..

(5)

النارُ تُشْعِلُ أضْلُعي بِدَمي
هل ثَمَّ دِفءٌ غرَّ مُحترقا
والليلُ يكسو حزنَ أوردتي
وأنا الغريبُ بضعْفِهِ غَرِقا
لو أقطِفُ النسيانَ من هُدُبي
سُهْداً يُهدهِدُ في الدُجى غَسَقا
أو أبعثُ الأقمارَ من وَسَنٍ
ما كانَ همٌّ باتَ مُنْعَتِقا

حين تم عقد قِراني عليك، كنتُ أظنُّ أنني المرأة التي اصطفاها الله دون نساء العالمين وزادني بسطةً في الحظ والفرح، وأني الأوفر نصيباً من كل شيء سيّما السعادة والحب والجمال، ونسيتُ أن كل شيء يعني كل شيء بما في ذلك الحزن والألم والدمع والجراح وكل شيء.

وهذا الصباح لم يختلف عن سابقيه، بل بدا وكأنه الأسوأ بينها، حين ولجتُ إلى المدرسة كان ثمة ما ينذرُ بالحزن والكآبة، أذكر أنني استيقظت متثاقلة وكأن حجراً جثم على صدري، بعد أن رأيت في منامي ما لا طاقة لي على تخيله، ولكني استعذت بربي ونفثتُ عن يساري ثلاثاً راجية أن يكون ما رأيته أضغاث أحلام لا محل لها من الواقع أو الرؤى، ولكن ما تفاجأتُ به لحظة التقائي بمديرة المدرسة هالني حين استغربت الهدوء العجيب بالمدرسة فاستفسرت منها:

ـ يبدو لي أن المدرسة هادئة أكثر من اللازم هذا اليوم

وليتني لم أنطق فبعض الأسئلة تركها معلقة أفضل من معرفة إجاباتها، وإجاباتها فاجأتني كضربة هشّمت رأسي بمعولٍ من الذهول:

ـ دانة ماتت!!!

نزل عليّ الخبر كالصاعقة! وتلعثمتُ وأنا أسأل:

ـ هاه! كيف؟ ما الذي حدث؟

ـ انتحرت

وترديت من عُلُوٍ وأنا أحاول التماسك أو التماس الصمم؟؟؟ قبل سماع ما قالت، فكيف يمكن للبراءة أن تنتحر؟ وكيف تهتدي الطفولة للانتحار؟ وكيف يقوى الموت على سلب روحٍ كروحها المغموسة بألوان الفرح؟

شعرت بالدوار يسكن الأرض والسماء من حولي، وكأن ظلاماً التفّ على عيني وأحال الكون سواداً، أو كأن صاعقة نزلت على لساني فألجمته

استنجدت بأقرب مقعد وصلت إليه أقدامي الواهية ونثرت بعضي الذي تبعثر مني عليه علّني أستطيع لملمته فيما بعد..

راجعت سجل الحضور اليومي، لقد حضرت بالأمس، وبالتأكيد حضرت معها ابتسامتها المعتادة كـ (زهرة لوز في نيسان) كما يقول نزار، الآن أذكرُ أني رأيتها بالأمس ـ لم أكن أتوهم ـ رأيتها تمشي وحدها وتفردُ غطاء رأسها كجناحٍ وتبتسم، وأذكرُ أنني ابتسمت وهمستُ لنفسي: لربما هي تحلم الآن بأنها عصفورة!

رباه!

كيف لها أن ترحل وتترك ابتسامتها حاضرة رغم الموت؟

وكيف لنا أن ننسى ذلك الصوت الحالم كقيثارة، أو ذلك الحضور الهادئ كغيمة بيضاء، وها هي الغيمة ترحل قبل أن تُمطر، كل ما فعلته أنها سحبت الظل خلفها وتركت لنا الشمس نتلظى بسعيرها..

إذن ما رأيته لم يكن أضغاث حلمٍ وتلاشى بلحظة صحوي، بل كان حقيقة تتجلّى الآن أمام ناظري، رأيتني أدخل المدرسة وإذا بالسواد يكسوها، لا الصباحُ أشرق بها ولا الوجوه كانت تبتسم، كل شيء كان أسودَ كقطع الليل المظلم، وكنتُ أبحث عمن أستفهم منه ما يحدث ولكن لا أحد، ليس ثمة إنسان، فقط السواد، ولا شيء غير السواد، الفصول سوداء والأشجار سوداء والسماء سوداء وحتى الوجوه كانت سوداء..

صوت القرآن يملأ المدرسة، بكاء زميلاتها ورفيقات عمرها، انهيارهن على عتبات الموت والخوف والضعف والتلاشي، كل ذلك كان يستوجب بقائي صلبة وأنا التي وهنت روحي بموتها.

قررت المديرة تعطيل المدرسة بذلك اليوم، واهتممنا بتأمين حضور الحافلات لإرجاع الطالبات إلى منازلهن بعد أن تحدثت معهن المعلمات حول وجوب الدعاء لزميلتهن والترحم عليها وأنها الآن بحاجة لأرواحهن لتبذر على قبرها بعض الطمأنينة، والتأكيد على أنها بين يدي الله وأن الانتحار حرام ولكنها بين يدي الرحمن الرحيم، وهو بالتأكيد ألطف بها منا جميعاً فبقدر حزننا على دانة كان خوفنا من أن تضعف طالبة أخرى وتنتهج نهجها ونصحو في الغد على فاجعةٍ أخرى تهتز لها أرواحنا قبل أن تنهار لها جدران مدرستنا المكلومة..

حزمنا حزننا وذهبنا لمنزلها لتأدية واجب العزاء لأهلها، وهناك اصطدمتُ بواقع أسرتها التي تهاوت واحداً تلو الآخر وكأن الأقدار كانت تدربهم على الحزن رويداً رويداً، إن كان ثمة تعود على الحزن أو تدرب على التعاطي معه..

عزّينا والدتها التي بدت تدفع الحزن بالصمت والقرآن وبعض الدمع الذي يغافلها ويهجر عينها رغماً عنها.

استلمتني احدى الجارات:

ـ يا لهم من مساكين لم يعرفوا معنى السعادة ولم يزرهم طارق الفرح أو يقترب من عتبات أحلامهم.

التفتُّ إليها ووجهي يتوسلُّها أن تصمت، وأصمتُ بدلاً منها احتراماً للمكان الذي يجمعنا، وللظرف الذي لا يحتمل الأحاديث النافرة، ولكنها تواصل حديثها:

ـ هل تشاهدين هذه المرأة؟

إنها تثكل للمرة الثانية بأبنائها وكأنها لم تكتفِ بوفاة زوجها الذي عاد من الغياب بعد عشر سنوات.

أثار كلامها فضولي فالتفتُّ إليها مستفسرة:

ـ عفواً لم أفهم..

ـ أنا سأحكي لكِ ما تعرضت له هذه المسكينة، لقد تزوجت رجلاً لا يحمل الجنسية العمانية فعاش معها ما يقارب الأسبوع وترك نطفته لتنمو في أحشائها بعد أن تم ترحيله لعدم شرعية تواجده على أرض السلطنة، وعاد مُهرباً بعد عشرة أعوام ليجد نطفته وقد تحولت لصبيٍ يشارف عتبات الرجولة، ووجدها تصارع أنوثتها لتختفي خلف رداء الحشمة والوقار والوفاء، عاد ليهب ليلها الطويل فجراً آخر ووعداً بحياة لم تعشها من قبل، وأمنياتٍ لونت لها المساء بألوان قوس قزح، وعبق لم يحلم الزهر بنثره بين يدي الجنائن، عاشا

معاً وأنجبا ثلاثة أطفالٍ تركها بعدها ليرحل بلا عودة بعد أن صدمته سيارة يقودها عابث لا يعي حق الطريق، ولأنه دخل السلطنة بلا جواز رحل عنها بلا هوية ولا إرث لأطفاله، ليعيشوا عالة على أقاربهم والمحسنين من الجيران وأهل الخير، ليربوا وعوز الحاجة طعامهم والخوف مشربهم الذي لا يروي ظمأ فقد الأب الحنون الذي لم يتمكنوا من حفظ ملامحه حتى رحل للأبد

وتترمل الشابة الصغيرة وتحمل هم ما لم يتفجر بداخلها من عشقٍ لم تلحق أن تخبره كم هي متيمةٌ به، وكم كانت تدمن السهر وهي تنتظر عودته، وما عاد إلا ليرحل، وتحمل هم أطفالٍ لم تعرف كيف سيحيون بلا أبٍ وبلا وطنٍ يحملون جنسيته رغم أن أمهم ولدت على هذه الأرض التي تغذت من جسد أبيهم.

وكبر الصغار وكلٌّ منهم لا يعرف من الحياة سوى أمٍ كسر قلبها الحزن وأحنى ظهرها الهم وإخوة لا يحدثون بعضهم إلا لماماً حتى بات الصمت هو لغة الحوار الأساسية التي يتقنها جميعهم.

الولد الذي يكبر أخته التي تليه بأحد عشر عاماً انجرف وراء أوهام أصدقاء السوء وأصبح مدمناً للمخدرات يعاقرها ليل نهار ويستسقي منها كيانه المهزوم، حتى وُجد في أحد الأيام مقتولاً على يد رفاقه وهم في غمرة نشوتهم بالمخدر ومرمياً بجوار أحد المراكز الصحية، كل هذا قبل عامٍ فقط، واليوم أكملت الفاجعة عامها الأول واحتفلت بالبنت الصغرى لتهديها لعالم النسيان وتواري أنوثتها التي بدأت بالتكور للدود ينتشي بهتك بكارتها..

- رباه!

اللهم لطفك، اللهم لطفك، اللهم لطفك

صدمتي بما سمعت لم تقل عن صدمتي بخبر انتحار دانة، ولكنها ربما بدأت بوضعي على أرضية ما حدث.

ـ ولكن؛ لماذا؟

ـ دانة أم أخوها؟

أطرقت وأنا أمسح دمعة تربعت شامخةً على رمشي

ـ دانة..

ـ لن تصدقي أبداً!

هذه البنت الصغيرة التي كنا نظنها طفلة تعرفت على شاب وتواصلت معه بالهاتف، وحين علمت أسرتها بالأمر أخذت أمها الهاتف، فهددتهم بالانتحار إن لم يُعيدوه إليها؛ وحين لم تجد أذناً صاغية منهم ولم يلبَّ طلبها انتحرت.

ـ ولكن الأمر لا يستحق، كان يمكن التفاهم معها بهدوء، كان يمكننا التدخل لتسوية الأمر وإصلاح تفكيرها المراهق، هي لا تزال صغيرة ولا ترى من الحياة ما نراه.

ـ نعم؛ ولكن قدّر اللهُ وما شاء فعل، فقد قالت دانة جملتها تلك ودخلت غرفتها، في حين ذهبت أمها لتحضر العشاء، ولم يكن ببال أحد ممن بالمنزل أنها جادة بقولها إلا حين ذهبت أمها لتناديها لتكمل عنها تجهيز العشاء لتذهب لتصلي فوجدتها وقد شنقت نفسها بأن ربطت لحافها بالمروحة ولفّتهُ حول عنقها.

«لربما أنه ذات الغطاء الذي اتخذته جناحاً بنهار الأمس، صار مشنقتها بنهاية ذات اليوم»

وتكمل:

ـ يبدو أن الأمر كان صعباً جداً لأنهم وجدوا جروحاً حول رقبتها وهي تحاول فك الرباط بأظافرها بعد أن أدركتها الحقيقة وحاصرتها سَكْرَةُ الموت، يالها من مسكينة.

تغصصتُ وأنا أتمتم:

ـ رحمها الله

أعتقد بأنها لم تكن تقصد الانتحار بل أرادت تهديدهم به لينصاعوا لطلباتها ويلبوها.

ـ بل قولي أنها لم تترب، فكيف لبنتٍ في سنها لم تتعد الثالثة عشرة أن تعرف الحب والغرام وقلة الأدب؟

نظرتُ إليها واكتفيت بأن أخبرها بعيني بأني سأصفعها إن لم تصمت، ويبدو أنها فهمت ما لم أنطقه بلساني فزمّت شفتيها وصمتت

نهضتُ وكأني أحمل الأرض على كتفي، أو كأن الأرض أضعف من أن تحملني، ومضيت لوالدتها لأهمس لها: عظم الله أجركِ، الله يرحمها، ادعي لها فهي تحتاج لدعائك، لقد كانت طفلة جميلة وستبقى كذلك..

قبّلتُ رأسها، ورحلت

لا أدري كيف حملتني السيارة بكل الثقل الذي كان يسكن روحي، وكيف استطاع رأسي أن يتعرف على الطريق المؤدي لبيت أهلي وهو الذي لم يستوعب ما حدث حتى تعكّر صفو ذهني وشابته رائحة الموت، وداهمته

صنوف التساؤلات حتى كاد ينشق عن وعيه ويسير بلا حسٍّ ولا ذاكرة ولا حتى فكرٍ قد يضع تصوراً أو اسماً أو حتى تعريفاً لما يحدث حوله.

ذهبت لوالدتي وارتميت بحضنها وبكيت كثيراً لأغسل صدري مما علق به هذا اليوم من ضعفٍ وخوف وحزن وأشياء كثيرة لا أعي ماهيتها ولا يمكنني وصفها أو التحدث عنها.

ـ ألن تتخلصي من هذه العادة؟

هكذا أنتِ أمام كل حادثة تتظاهرين بالقوة إلى أن تنفردي بذاتك ثم تتهاوى صلابتك دفعةً واحدة ودون رحمة، لكلِ أجلٍ كتاب يا حبيبتي، لا تتركي الحزن يصهركِ حتى يقضي عليكِ.

ـ لا زلت غير مصدقة يا أمي!

ما الذي حدث؟ كيف لتلك الطفلة الجميلة أن تستسلم للموت؟ كيف لها أن تقف أمامه عارية من كل إيمانها بالله، بأسرتها، بذاتها، بالحب، بالحياة، بكل شيءٍ عداه..

اشتقتُ إليها يا أمي، اشتقتُ إليها، أود لو أراها ولو لمرة واحدة، أحتضنها، أقبِّلُها، أحتويها، أُهديها قلبي وبعض الدفءِ المزدحم بروحي، أود لو أكون أمها وأحميها من الموت.

ـ استغفري الله يا ابنتي؛ الموت حق

ـ والحق أخذها يا أمي ولن تعود، استغفر الله، قصدت حمايتها من الانتحار بهذه الطريقة المريعة، أن أهبها الأمان الذي افتقدته فهربت من الخوف للموت، أن أكون لها ظلاً يتبعها إن هربت ويمسك يدها لتعود إن

ضلت، أن أهمس لها كثيراً أني أحبها أحبها أحبها حتى تُصدقني فتركل الحزن برجلها لتدخِله في مرمى الموت، واثقةً مطمئنة أن هناك الكثير مما يستحق الحياة..

أحملني من حضن أمي وأنا المتداعية أتكئ على بعضي وأقرر الذهاب لمنزلي.

ـ إلى أين يا ابنتي؟

ابقي معنا لتناول الغداء، ارتاحي قليلاً فأنتِ متعبة

ـ شكراً لكِ يا غالية، سأذهب للمنزل فأحمد سيأتي لنتناول الغداء معاً

في الحقيقة كنتُ أحتاجُ لأن أحتويه ـ أو يحتويني لا أدري ـ فكلانا فاقد للأمان، كلانا لا يعلم أي كتفٍ تحتملُ رأسه حين يبكي؟ أو أي كفٍ قد تمتد لتمسح ما انهمل من وابل عينيه؟ وكلانا يوشك على السقوط ولا جدار يُلقي بتعبه عليه ولا عصا يتوكأ عليها، ولا كفّ ترافقه في سقوطه إلا وقد سقطت قبله..

أحتاج لأن أقول له: أحبك

أن أهمس بها مليّا، أن أسمعها قبل أن تصل لأذنه وتنسكب برئتيه، أن أمنحه بها رمقاً من الحياة وحصناً من الموت..

أحتاج لأن أرتمي بحضنه وألا أخبره كم أشعر بالبرد، وكم تسكن روحي العواصف وتعبث بها الأعاصير، أحتاج أن أبقى صامتة في حضنه الذي يشدني إليه بقوة، وأن أبقى متعلقة بعنقه وكأني أخشى أن يهرب مني ويتركني

وحيدة، وأترك لروحي المجال لتخبره كم أنا ضعيفة ولن يقوى عودي إلا إن رواني بحبه..

قُدتُ السيارة والدوار يعبث برأسي، ورغم ذلك كنت أود لو أمتطي الغيم وأطير لأصل سريعا، ولا أدري لماذا تطول الطرق حين نرجوها أن تقصر..

منى التي اعتادت أن تستغل تلك اللحظات التي أتهاوى بها، فتأتي لتكمل على ما تبقى من تماسكٍ بداخلي وأسقط، لم تترك هذه الفرصة تذهب سُدىً وفاجأتني والدوار يعبث برأسي..

ـ أراكِ حزينة!

ـ جداً، لقد انتحرت احدى الطالبات بمدرستنا هذا اليوم؟

ـ هل يحزنكِ موتها؟ أم طريقة موتها هي التي تؤلمكِ أكثر؟

ـ الموتُ بحد ذاته فاجعة يصعب تحملها أو استيعابها، ولكن يبقى هناك قدرٌ أخف من قدر.

ـ إذن أنتِ تعنين أن الموت مؤلم؟

ـ مؤلم؟!

بل هو احساس لا يمكن التعايش معه إلا بحزنٍ لا يندمل.

ـ الزمنُ كفيلٌ بأن يُنسينا أغلى من أحببنا ذات يوم.

ـ النسيان لا يقوى على محو آثار من نحب.

(أصابُ بالاختناق وأحاول فكّ اللحاف عن عنقي قليلاً لأتنفس

تنحرفُ بي السيارة خارج الشارع وأحاول العودة لرشدي والعودة بسيارتي لمسارها الطبيعي).

تعودُ لي منى:

ـ إذن أنتِ مؤمنة أن الموت مؤلم، وأنا مت،ألا تتألمين لأجلي؟!

ـ أنتِ لم تموتي، أنتِ حية، لا زلتِ تسكنين قلبه، وتعيشين معه كل تفاصيل يومه الدقيقة، ثم أننا بكينا عليكِ كثيراً ولم نُتقن النسيان أو التناسي.

ـ أنا مجرد طيف لا يلبث أن يرحل كلما حلّ ضيفاً على الذاكرة المنشقة من الواقع.

ـ بل أنتِ الواقع بمجمله، وأنا الطيفُ المنسيُّ حتى في حضوره.

ابتعدي عني، ماذا تريدين مني؟ ألا يكفيكِ أنكِ تحيلين بيني وبينه والحياة؟ ألا أستحقُ بنظركِ الحياة بعدكِ؟ ألستُ أنا من تخلت عن حب عمرها لأجلكِ يوماً ما؟ لماذا لا تبادلينني الأدوار الآن وتتخلين عنه لأجلي؟

ـ اسمعيني يا فاطمة..

أنا لا أطلب منكِ سوى أن تفكري بي كما كنتِ تفعلين آنفاً، أعلمُ أنكِ تملكينه الآن وأنني لم أعد هنا، وأحمد يستحق من الحياة أن تمنحه جمالها وبريقها فلا تقتليه بغيرتكِ من امرأة ميتة، أنا ميتة وأنتِ من تُحييني بشكل لا إرادي في عقلك وبدون وعي أو إدراكٍ لما تفعلينه بنفسكِ وبي، وأنتِ أو أحمد أحدكما يجب أن يسبق الآخر ويكرمني بالنسيان، دعوني أهنأ بميتتي وأنا أعدكِ بأني لن أؤذيك أو أحاول الاقتراب منكما..

أحمد يستحق منكِ ألا تضعيني بينكِ وبينه، وألا تخيريه بيني وبينكِ فلا مجال للاختيار بين الحياة والموت، فقط كوني له كما كنتُ ولن تجديني .

ـ أنا أحبه

ـ وأنا أيضاً كنتُ أحبه، ولا زلت، ولم أكن أنوي أن أتركه لأنثى غيري، ولكني رحلتُ مُجبرة، لم أختر الموت ليسكنني، وما رحمت الشوارع شبابي الذي لم أفرح به، ولكن ما بيدي حيلة.

ـ أحمد لم ينسكِ لحظةً واحدة، أنت حاضرة بتفاصيل يومه، ترتدين فرحه وحزنه، تباتين معه بنفس السرير، ويحملكِ في جيب ثوبه أينما ذهب..

ـ كيف تطلبين منه أن ينساني وكأن شيئاً لم يكن؟ ها أنتِ تتألمين لموت طالبة بمدرستكِ فكيف تستكثرين عليه احساس الفاجعة لموت حبيبته التي كان يمني النفس بأن تشاركه الحياة فانتزعها الموتُ من بين يديه عنوة وتركه عاجزاً ينهشه احساس الضعف والعجز، ليس لأنه لم ينجح في أن يهدي حبيبته فرحاً ظلّت تغزل سنينها لترتديه فنقضته الأقدار دفعةً واحدة، بل لأنه عجز أن يهبها حياةً تليقُ بها، أو ينتزعها من براثن الموت وهو يخطفها منه عنوة..

الدنيا تضيق وتضيق والظلام يكتنف بصري، ما عاد النهارُ نهاراً وما عادت الشمس مشرقة، لا أرى سواها، أشعرُ بها تخنقني، تأخذني من يدي وتجري بي للقبور لتدفنني هناك محلها وتخرج لتكون مكاني، لا لن أسمح لها بذلك، لا أريد أن أموت، وحتى إن أتاني الموت أريده أن يستلّ روحي ويتركني غافية بحضنه، أريد لرأسي أن يسقط على حجره وأن يكون وجهه آخر ما

تُبصره روحي قبل الرحيل، لا أريد الموت بعيدا عنه، ابتعدي عني لن أذهب ابتعدي ابتعدي.

تسيطر منى على تفكيري، ولا أعود قادرة على الفكاكِ منها..

أصحو من أفكاري على صوت ارتطامٍ أرتج له كلي، ويبدأ السوادُ بالالتفاف عليّ ومحاصرتي حتى تملّكني.

وهكذا أصبحتُ أذكر في عُتمتي ما لم أتخيل أن يمر بذاكرتي يوماً.

السواد يُحيط بي من كل جانب، أحاول أن أفتح عينيّ ولكنّ ثقلاً يطغى على جفنيّ يجبرني على الاستسلام لظلامٍ لا أعرف ماهيته ولا أدرك كنهه، أشتاقُ للنور، للضياء، للشمس؛ ولكن ثمة ليل يتغشاني بجبروته ويأبى أن يتركني، ما الذي حدث ولماذا خَفَتَ العالمُ فجأة؟ أين ضجيج السيارات وتصادم الطرقات؟

رباااه! لو أن أحداً يُفهمني..

أرغب بالنوم.. سأنام.. سأنام.. سـ أ نـــاااااام.....

هه!

ما هذا؟ من جديدٍ بدأ الضجيج، ولكنه هذه المرة مختلف، وقعُ خطوات وئيدة وكأن قدماً تتحرك بلا جسدٍ يثقل عليها أو يحد من حركتها شبه المحسوبة، وحده الظلام ظلّ كما هو، فلا عيناي استجابتا لمحاولاتي ولا اليقظة تساعدني كي أفهم ما يدور حولي، رباه، ما الذي يحدث لي؟

الوقت يمر ولا يمر، والليل هو الشيء الوحيد الذي يصاحبني وأنا عاجزة

أمام جبروت سرمديته، فمتى يُؤذن للفجر فيشرق شمساً تعانق قوس قزح بعد أن تطرد أشباح الغيوم من الأفق وتعبره إلي عينيّ الغافيتين منذ أمدٍ لا أعلمه؟

أغفو قليلاً لأصحو على زغاريد أمي مهللة بعد أن اتصل أخي مبشراً بحصولي على نسبة ٩٥٪ في الثانوية العامة أو الدبلوم العام كما يسمونها الآن، وأراني وأنا أتراقص فرحاً لأني على أبواب تحقيق حلمي الكبير بالالتحاق بجامعة السلطان قابوس حلم كل الطلاب في سلطنتنا الحبيبة.

لا أذكر عدد المحلات التي مررت بها لاقتناء الكثير من الملابس والأحذية والحقائب والاكسسوارات، طبعاً لم تكن من أرقى الماركات كتلك التي كانت تقتنيها صديقتي منى الابنة المدللة لعائلة ثرية بها ستة أخوة يطوقون أختهما الوحيدة بعناية لا مثيل لها تصل بها حد الاختناق أحيانا ـ كما أخبرتني يوماً ـ ولكن لماذا الأضواء خافتة بالمحلات؟ لم أكن أراها هكذا، بل كانت تعج بالضوء حتى لكأني لا أفرق بين الليل والنهار بها، ما هذا الهراء؟ وهل أفرق الآن بين الليل والنهار؟ ولكن هل وُلد النهار هذا اليوم؟ ومنذ متى لم تظهر الشمس؟ هل تُمطر؟ ربما هي الغيوم؟ ولكن لِمَ هي داكنة إلى هذا الحد؟

آآآخ..

إنه النعاس مرة أخرى يتوافق مع وقع الخطوات التي بدأت بالابتعاد سريعاً وكأنها أتت لمهمة نفذتها وذهبت، ولكن؛ ما هي هذه المهمة؟

لا أعرف وليس مهماً أن أعرفها الآن بالقدر الذي تهمني به هذه العتمة التي لا تُفارقني، تُرى هل أصبتَ بالعمى؟ ولكن لماذا لا أتحرك؟ لماذا لا

أستطيع لمس الأشياء، ربما لم أُصب بالعمى فقط، أظن أنني أصبتُ بالعمى والشلل في آن، رباااه، لاااا أرجوك، لا يمكن أن يحدث ذلك..

وهذه الخطوات؛ لماذا تقترب مني دوماً ولا تنبس ببنت شفه، كل ما تفعله أنها تقترب وتبتعد دون أن تمنحني تفسيراً لاقترابها أو ابتعادها، ترى لمن هذه الخطوات؟

اووووه! مالي ولخطواتٍ لا تمت إليّ بصلة، الأولى بي أن أفكر فيما أنا به الآن لا أن ألتهي بخطواتٍ تقترب مني وتبتعد بشكل روتيني وحسب مواقيت محددة أشعرُ بها كلما بدأ رأسي بالتخفف من ثقله، بكل الأحوال هي ليست خطواتي بالتأكيد فأنا على وشك أن أغط في سباتٍ عميق..

أحاول تحريك يدي فتخذلني قواي، أصابعي على الأقل ولكني لا أستطيع، لماذا أبدو ثقيلة، أولستُ أنا الفراشة التي حطت على أجمل زهرة في كلية الآداب بالجامعة، يااه ما أجمل ذلك اليوم الذي اقترنت به سعادة وطء أرض الجامعة وسعادة رؤية أجمل وجهٍ خلقه الله على أرضنا المليئة بالوجوه التي لا تمت إلينا بصلة، ثمة ما جعل قلبي يخر ساجداً حمداً وشكراً وامتنانا لمن خلق هذا الوجه وجعله قريباً مني أو لنقل إنه لي، أو هكذا حلمُت، فأحمد لم يلتفت إليّ ولم يثره وجودي كما أثّر بي مروره أمامي لنكون معاً بعدها في محاضرات مادة(مدخل لعلم النفس) كمادة أساسية من مواد السنة التأسيسية بكلية الآداب، لنتشارك فيما بعد أنا وصديقتي منى العاطفة ذاتها، مع اختلاف طرق التعبير، ففي حين أني لم أجرؤ على إظهارها وآثرت كتمانها بقلبي ووأدها قبل أن تُولد ارتأت هي أن تُظهرها جِهاراً دون أن يهمها ما قد يقوله الآخرون عنها، فقد كان ولعها به يصل حد الجنون وكأن الحياة

اقترنت به حين رأته، والمضحك في الأمر أن أحمد لم يكن يلتفت لأيٍ منا، بل كان من الهدوء ما يجعله يمر كالنسيم البارد الخافت دون أن يترك أثراً خلفه سوى تلك العاطفة المخنوقة بداخلي والثائرة بقلب منى، ورغم أن أحمد كان كثير التغيب إلا أن غيابه لم يكن ملحوظاً ولم يحاسبه عليه أحد لأن العاشقة التي اكتفيت بمشاهدتها وهي تمارس جنونياتها كانت تسجل حضوراً دائماً له، مما جعل أحمد يلتفت لها وكأنه يتساءل: لماذا تفعلين ذلك؟

هذا التساؤل لم يكن مجرد استفسار عادي بل أصبح الشرارة التي أججت العاطفة بينهما، وبهدوء قررت الانسحاب فالأقدار التي جمعت بينهما هي ذاتها التي وجب أن تفرق بيني وبينه، ماذا أقول: تُفرِّقُ بيني وبينه؟! وما الذي كان بيني وبينه لينتهي؟ لم يكن بيننا سوى تلك العاطفة الذبيحة بداخلي وآن لي أن أدفنها بروحي لكي لا تخنقني كلما نمت أكثر..

يا الهي!

الصداع أكبر من أن أحتمله، يُطبق على أعصاب رأسي ويشتت عقلي، يمنعني من التفكير أو حتى المحاولة، الظلام يسحبني لهاويته التي ما انفكت تبلعني أكثر وأكثر وأنا لا حول لي سوى الاستسلام لبعده السحيق وهو يلتهمني جسداً غضاً خار كل تشبثه بالحياة وتلاشت مقاومته وبقي كريشةٍ تتقاذفها ريحٌ عاتية تخفت فجأة لتهوي بها من عُلوٍ إلى أقاصي قاعٍ بقيعٍ يذرها هباءً صفصفاً.

مرة أخرى أصحو على صوت تلك الخطوات الوئيدة تقترب مني وتبتعد دون أن أفهم سبب اقترابها أو ابتعادها، أو لمن تعود تلك الخطوات!

الشيء الوحيد الذي بت أدركه أن اقتراب هذه الخطوات يعني أنها لن تلبث إلا وفترة وجيزة ثم تبتعد مخلفةً رأسي ثقيلاً لا يجابه الجاذبية كثيراً حتى ينقاد لها في سحبه بعيداً ليسقط بعدها في غيبوبته الطويلة لا يرافقه شيء سوى السواد والظلام.

أحمد..

أين أنت؟ لماذا لا تأتي لتشرح لي ما يحدث؟

أنت الوحيد القادر على تفسير الأمر، أثق بك وحدك، فلماذا لا تأتي؟

أكرهها هذه الخطوات وهي تغادرني لفراغٍ لا يجمعني بأحد ولا أسمع به صوتاً ولا تلمسني به يدٌ أو.....!

تأتيني منى مرة أخرى لتسحبني من يدي من مقعدي بقاعة المحاضرات بعد أن استأذنت من المحاضر بأنها تريدني في أمرٍ مهم وستأخذني من المحاضرة قليلاً ـ في الحقيقة لم تكن جادة بقولها قليلاً بل قصدت اليوم كله ـ هامسةً بصوتٍ أكادُ أجزم أن كل الطلاب قد التفتوا إلينا من عُلوّه، هيا يا فاطمة سأخبركِ بمفاجأة لن تصدقيها أبداً، وتجرني خلفها وأنا ألملمُ عباءتي خلفي آخذة ما تصل إليه يدي من دفتر المحاضرات وحقيبة يدي، أعتقد أني كدت أقع لأن عباءتي علقت في المقعد وهي تشدني ولكني تداركت الأمر بسرعة وانتزعت يدي من يدها ضاغطة على شفتي وأنا أصرخ بخجلٍ: لحظة! لألملم بعدها نفسي والإحراج يكاد يرميني أرضاً وأعين الطلاب تلاحقني وأنا أجري خلفها كطائرة ورقية يسحبها طفل متهور لا يهمه سوى أن يراها تطير وهي تتأرجح من تلةٍ لأخرى دون أن تُسعفها أجنحتها لتطير ولا الطفل اهتم

بشد الحبل ليعينها على الطيران.

نذهب للجلوس على أحد المقاعد بعد أن أكون قد أُنهكت من الجري خلفها أو الانقياد لها، أنظرُ إليها وأنا ألهث: والآن أخبريني ما الأمر؟

ترفع رأسها بشموخٍ يكاد يصل به عنان السماء وهي تُعدِّل من جلستها، ثم تصرخ بجنونٍ: قالها، قالها، أخيراً قالها.

ـ تُغنّين مثلاً؟ ـ هكذا أجيبها باستغراب ـ من هو؟ وماذا قال؟

ـ قال أحبك قالها..

ـ من؟

ـ أحمد، أحمد أخبرني أنه يحبني

أشعر بالدوار، الأرض تبلعني، إنها تلتهمني بنهمٍ شديد، أحاول التخلص من بين فكيها أحاول أن ألوذ بأي شيءٍ توصلني إليه يدايّ ولكن يديَّ عاجزتان عن الوصول لأي شيء.

يتسللُ الظلامُ إليّ مرة أخرى، لا لا ليس الآن، يجب أن أعي ما يحدث، يجب أن أجد تفسيراً وتوضيحاً لما تقوله منى، يجب أيضاً أن أهنئها دون أن أخبرها أني كنت انتظر أحمد قبل قليل لكي يُفهمني ما يحدث معي.

أشعر بالاختناق، لا ليس الاختناق، الموت؛ الموت هو ما أشعر به الآن..

استمرت منى في حديثها وأنا صامتة لا حول لي ولا قوة، واجبي أجبرني ان أبقى صامدة أستمع إليها وهي تتحدث عن حبيبي وكأنه حبيبها، ما هذا الهراء؟ هو حبيبها فعلا، وما أنا سوى جامعة وهمٍ في حقائب الفراغ..

الحزن الذي أشعر به استفز السعادة لتعلو محياي إكراماً للصداقة، واحتراماً لقلبين اختارا طريقهما بعيداً عني دون أن يعنيهما ما حفراه بصدري من جراحٍ لا أظنها ستندمل يوماً..

سعادتهما منحتني الكثير من السعادة المُرّة التي كانت توقظني كلما غفلتُ عن حبهما، اصرارهما على ارتياد جميع الأماكن بالجامعة معاً ليشهد كل شبرٍ بها على حبهما وإن كان مروراً متباعد اليدين باعتبار أن القوانين تمنع ذلك، والكثير من الجدال حول الأحلام المعلقة بالتخرج والتوظيف، الزواج والأطفال وعددهم وأسماؤهم كل ذلك كنت شاهدة عليه ومباركة له، حتى شجاراتهما الكثيرة حول من تحدثت معه وتحدث معها، من نظر إليها ومن تعقبها بنظراته، كنت الوحيدة التي أحلها حين أقول ضاحكة: ومن يتجرأ على الاقتراب منكما وأنتما كوحشين كشرا عن أنيابهما لكل من تسول له نفسه بالاقتراب؟ هل يوجد بالجامعة من يود أن يقدم روحه أضحية غبية لعاشقين مجنونين لا يستنكفان الفتك بمن تسول له نفسه بالاقتراب منهما؟

تحولي من قسم الاعلام لعلم الاجتماع لأبقى بعيدة لم يشفع لي عذراً لأبتعد فقد ظلت منى تلاحقني بثرثرتها عنه كلما التقينا وما أكثر لقاءاتنا الطويلة وأحاديثها التي لا تنتهي، ولم أكن أملك خياراً سوى الاستماع بصمت أو بابتسامة أسرقها من شفتي لأهديها لها كلما انتبهت لوجودي من سكرة هذيانها به..

أيام الجامعة الرائعة امتلأت بالكثير من الحزن لفقده، ولكن عزائي الوحيد كان في رؤيتهما سعيدين، لا زلت أذكر يوم تخرجنا حين أتى أحمد بباقة ورد لمنى وأحضر لي وردة وهمس لي ضاحكاً: الأطفال تكفيهم وردة

واحدة أما النساء اللواتي على وشك الزواج فيحتجن لباقة زهر كاملة لينثرنها على عتبات قلبٍ عاشق، وأذكرُ أني ابتسمتُ له ولا أدري كيف منعتُ دمعةً من الارتماء على خدي مستنجدة به ليحتويها من ظلم عيني التي جفت مذ تركته لها طائعة، على من تكذبين أنتِ؟ طائعة؟ ألم تكوني مُجبرة على ذلك؟ وما حيلتك أمام قلبين ما شعرا بك؟ وأذكر أيضاً أني شكرته قائلة: يكفيني أن أراكما سعيدين هذه هي هديتي، وكنت صادقة، نعم كنت صادقة فرؤيتهما سعيدين يشفع للقدر ظلمه لي، ويمنح روحي سلاماً دافئاً يُشعل جذوته استسلامي لخيارهما المشترك..

تعيّنَا ـ أحمد ومنى ـ بذات الجريدة وبدأ برسم أحلامهما وبمعنى أدقّ استكملا رسمها حين تقدم أحمد لخطبة منى بعد عامٍ من توظفهما، وكنت أول من هنأهما لأني كنت متواجدة بمنزل منى لحظة اعلان الخطبة فأنا صديقتها الوحيدة التي لن تكتمل فرحتها إلا بوجودي

يقولون إن الدنيا لا تُعطي إلا لتأخذ، وهكذا هي أعطت منى كل ما تتمناه حتى اللحظة، وفجأة سلبتها هي من كل شيء، فما هي إلا أيامٍ وتلونت الدنيا كحرباء وخلعت جلدها الناعم كأفعى عضت قلبيهما ودست سمها بروحيهما، إذ صعقتنا بخبر تعرض منى لحادث أثناء ذهابها لشراء ما تحتاج إليه كل عروس ولم تكن منى كأي عروس فقد كانت تعد نفسها لتكون أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة، ولكن ما حدث أردانا جميعا لهاوية الهلع ونحن نجري للمستشفى ونقبع هناك متناوبين طيلة شهرين ما رفت عيناها لنا ولا همست لنا بكلمة وما ملكنا سوى الدعاء والبكاء كلما سمحوا لنا بالدخول عليها في غرفة العناية المركزة، لا أدري أيُّنا كان يواسي الآخر، وكيف يمكنني

مواساة قلبٍ فُجِعَ في حبيبته النائمة ولطالما ود لو أنه في عالمٍ من الأساطير ليمنحها قبلة الحياة فتعود له أميرته من دفة الغياب ليخبئها في روحه، كم أقسمَ لي أنه لن يسمح لها بقيادة السيارة مرة أخرى، كم غضب وثار وقال إنها متهورة ويجب أن يسحب رخصتها لأنه لن يحتمل أن يحدث لها مكروه، كم بكى وهو يتوسلها أن تستيقظ وهو سيغفر لها كل القلق الذي تُلبِسُه إياه بغيبوبتها المقيتة، وكم خرج وهو يمسح دمعه بيديه مترنحا ليقع أمام باب غرفة العناية مُغمىً عليه تارة ومنهاراً تارة أخرى وهو يبكي: لماذا لا تحدثني؟ هل فقدت صوتها؟ هل هي غاضبة مني؟ ماذا أفعل لتسامحني؟ لتهمس لي بكلمة؟ فقط كلمة، كم جرى إليّ وتوسلني: أرجوكِ يا فاطمة أخبريها أنني سأموت إن لم تُجبني، وكم وددت لو احتضنه وأبكي حبيبي وصديقتي ونفسي في آن، كم وكم وكم؛ ولكن لا إجابة واضحة لكل تلك الأسئلة ولا رد قد يُخرس أفواه التساؤلات..

شهران ونحنُ ما عرفنا من الحياة سوى وجهها المكسو بالسواد ولم يصاحبنا سوى الانكسار والهلع والخوف والترقب، شهران نسيت بهما أني أحبه وأنها سلبته مني، كنتُ أصلي وأدعو أن تصحو ولتأخذه هنيئاً مريئاً حلالاً طيباً، ونفسي راضية يا الله، فقط أعدها لنا كما كانت عصفورة لا تعرف سوى السماء طريقا لخطواتها..

شهران لا أدري كيف مرّا كعامينِ أو أكثر، كعمرينِ أو أكثر، كليلين أو أكثر، ولكنهما مرّا لترحل منى بعد أن هيأتنا لرحيلها بسباتها العميق مدة يقولون إنها شهران ولا ندري أحقيقة ما كانوا يقولون أم لا، رحلت وسقط كلانا لدى اعلان الطبيب خبر موتها، ومن يومها لم نلتقِ إلا في الجريدة..

يال الأقدار..

لا أدري أأنصفتكِ وظلمتني يا صديقتي؟ أو ظلمتكِ وأنصفتني؟!

ما أعلمه أنني لم أستطع تقبل الزواج بآخر رغم غياب أحمد عن عالمي ورغم أنه لم يكن يوماً سوى طيفٍ سكنني دون علمٍ منه، وأن أحمد لم يعرف سواكِ منذ عرفكِ، وما خفق قلبه إلا بحبكِ..

ليس سوى الوهم هو الذي جمع بيني وأحمد حتى الآن، أحلامٌ مُقعدة بلا أقدام ولا عكازات ولا كراسي متحركة، ما برحت مكانها مُذ نُفخت بها الروح ولم تمتد لها يدٌ تُحرقُ البرد الذي نهبها الحياة، يتربصُ بها الدود ليقضم جراحها التي تقرحت، نبتةٌ صحراوية لم تعشقها غيمة فتظللها والعجبُ أنها لا تزال مزهرةً رغم أن أرضها ما ابْتلّت بماء.

أحلامي به كلها جاءت بنفس القدر من الأهمية، لا فضل لأحدها على آخر، ولكنها جميعها ظلت حبيسة أرفف الأمنيات لم تُبارِحها ،مُرتبة كأوراقٍ لم تُلوثها الكتابة ولم تفضُّ بكارتها الأقلام، لذلك لم تجد من يلتفت لها أو يُعيد ترتيبها.

الظلام حولي أعادني إليها، ها أنا أعيش الآن ما عاشته قبل سبعة أعوام مع اختلاف دوري في المرتين، تحتضنني ذات الظلمة وأشعرُ بالخَدَرِ نفسه، ولا أدري هل ستبلعني الظلمة كما ابتلعتها أم ستلفظني للحياة مجدداً، أتراها منى كانت تشعر بنا ونحن نبكي عمرها النازف غياباً كل يوم، والمزدادُ بعداً مع كل دقة قلبٍ تضعف منها، هل سمعت دعواتنا ولهج ألسنتنا بالصلوات لها لتعود؟ هل كانت تود لو يحتضنها أحد، يطمئنها أحد، يصْدُقُها وعدَهُ أحد؟

هل كانت تشعر بالربكة التي أشعر بها الآن؟ أم أنها كانت تُسلم عمرها راضية مطمئنة، هل بكت دون أن نرى دمعها لأنها سترحل وحيدة دون أن تأخذ أحمد بيدها ويضحكا معاً وهما يهربان من أعين الناس، هل كانت تودعنا على عجلٍ، أم أنها كانت تتغصص الرحيل قبل الأوان؟

وبكيتُ كثيراً، لا أدري هل سمعني أحد أو انتبه لبكائي أحد، ولا أدري كم استمر بكائي في الظلام، ما أعلمه أن صوتاً أألفه انتشلني من ظلمتي، هذه الكف التي تلمس خدي وتمسح دمعي، هذه الكف أعرفها، لكم حلمت بها تلمسني بحبٍ كما تفعل الآن، أحاول أن أفتح عيني، الظلام يبدأ بالتلاشي شيئاً فشيئاً لأجدني على سريرٍ أبيض وأحمد يُمسكُ بيدي، والهلع بادٍ في عينيه وأتساءل إن كان هلعه عليّ أم أن عقله يهيم بعالمٍ لا يمت لي بصلة، أفتحُ عينيي الغارقتين بالدموع، ولا أدري هل هي دموع حزن أم ألم أم فرح، كل ما أعلمه أن يد أحمد كانت تنزل برداً وسلاماً على جبيني المضمد بالبياض.

(6)

يجتثُّني..

هذا الصِّراعُ من الحياة

ويعيثُ بي ضعْفاً وحُزناً سرمدياً قاتِما

قلبانِ مُنكسرانِ

يجتمعانِ للنسيانِ

لو ننسى!

بأن العُمرَ أوهنُ من شِباكِ العنكبوتْ

لا شيءَ يُبقيهِ طويلاً خالِداً من دون موتْ

وبأنها الآجالُ..

تسبِقُنا إلى الآمالِ

بعدَ غِوايةِ الأحلامِ والأفراحِ..

والحُبِّ الذي يبقى..

ولا يبلى

وننسى..

أننا كالظلِّ يُجْبِرُهُ المساءُ على الرحيلِ ..

وَأننا..

أضغاثُ أحلامٍ يُبدِدُها النهارُ إذا استفاق على الهديلِ ..

على وجوه المارقين إلى الحياةْ

وكأنها السماء تتساقطُ عليّ كِسفاً من عذابٍ مستقر، لماذا كلما يممتُ حلمي وطناً يسرقه القدر من بين يدي، هل صدقتِ الآن شؤمي على كل من أحب، هل أيقنتِ أن ابتعادي عنكِ لم يكن إلا حباً وخوفاً عليك من نحسي

أحاول الهروب من وجهي، أفترشُ روحي وانكساراتي وهزائمي، وألقي بكلماتي في أذن الهواء، أصرخُ به غاضباً ومحتجاً على ضعفي، أصفعُ جراحي التي غرسَتْ راياتها بروحي، أستبيح دمها وأُخضِّبُ به الشمس لأمنحها غروباً مُلفِتا، لو تعلمين ما يفعله بي صمتكِ المنحاز لحزنكِ دون مواربة، كالأشجار التي تموتُ واقفةً أنتِ، لا تسمحين لأحدٍ أن يلمح انكسارك في عينيكِ ولو اضطررتِ لإغماضهما كلما تراءى لهما شبحُ إنسانٍ يتلصصُ على داخلك من خلالهما، تُتقنين اللعب بأعصابي حين أستجديكِ حرفاً وتولين الكلمات لساناً مقطوعا.

بيني وبينكِ عهدٌ ما وفيتُ بهِ، طريقٌ طويلٌ ما مشيناه، ولا درّبنا أقدامنا على المُضي به دون أن تدهس قلوبنا في سيرها المتعجل نحو النهايات الحتمية لأقدارنا، لو أننا علَّمنا أرواحنا أن ميلادنا وموتنا ليسا مجرد نقطتين في الفراغ لا يمكن أن يمر بهما أكثر من خط مستقيم واحد فقط ـ وما كان سوى منى ـ ليتنا أيقنّا أن خياراتنا كثيرة للمُضي معاً وبأكثر من فرصة، وليس شرطاً أن جميع الفرص تشبه الخطوط المستقيمة، بل لا بأس بأن تتعرج في

مسالكها لتُوصلَ بيننا، ليتني بحثتُ عن أي طريقٍ يوصلني إليكِ، بدلاً من البقاء وحيداً كشجرة تسلب الشمسُ ظلالها كل نهار وتهبه للأرض، وحين يأتي المساء تُلملمُ ما تبقّى من ظلالها وتغفو على وحدةٍ قاتمة لا يُزهرُ بها حُلم

هل توجد بالأرضِ بقعة قد تلم شتات رجلٍ يحمل الموت بدمه كما يحمل الروح بجسده، ها أنتِ الآن تُلونين ذات البياض بدمكِ، مثلها تماماً، الفرق الوحيد بينكما أنكِ استفقتِ من غيبوبتكِ، أما هي فلم يمنحها القدر استفاقة أو فرصة أخرى للحياة، أكان قراري بالاقتراب منكِ هو من حاول قذفكِ للغياب، وما أنقذكِ سوى البُعد الذي لا زال يقفُ بيننا، يُربكني جسدكِ الذابل في أحضان سرير المستشفى البارد، ويغيب به حتى لا يَكادُ يبين، ولا طاقة لي على منحكِ الدفء الذي تستحقين، أنا الممنوع من احتضانك في الوقت الذي أرغب فيه بضمك لصدري وحمايتكِ أو الاحتماء بك من وجعي، من انهياري وسقوطي بين براثن التلاشي، أشعر برغبةٍ جارفة في البكاء، لو أن هذا الدمع الهارب من وجعي يتآمر عليّ ليباغتني بانهماره غزيراً أتطهّر به من كل ما علق بروحي من عمرٍ تلوثِ بغيابين وكاد أن يخطفهُ موتان، فأغتسل من عذابي سبعاً أحدها بالنسيان.

من يحمل الماضي على ظهره ولا ينقصم؟ كاذبٌ من يمضي لآتيه بلا أمسٍ يتوكأُ عليه، ولا يسلب من حرائقه دفئا لشتائه الهاطل في دمه، وأنتِ سنيني المارقة من عمري دون عودة، ودون شمسٍ تتأهب للشروق من جديد كلما حاصرتها ظلمة الليل، مخلفة بمواعيدها كلما راود طُهرها قَمر

العابرون في حياتنا لا يملّون العبث بأحزاننا ونثرها على قارعة أهدابنا، يتفننون في نبش ما طمرناه تحت جلودنا من وجعٍ، ولا يهدأون إلا حين

يتركون جراحنا عارية تعبث بها أعينهم وتلوثها نظراتهم المتطفلة، وهكذا كان محمود زميلنا الذي انتقل مؤخراً للجريدة، ليرتدي في اصبعه وبعد أقل من شهر خاتم خطبته لزميلتنا زينب، وكلما لمحتهما يتهامسان ويضحكان تنتحر عصافير في صدري وتموت أقمار، تطلُّ منى من مكتبها وتخطف الأوراق من أمامي محتجة أن لا شيء يمكنه تقدمها في تسلسل أولوياتي، هي أولاً وما عداها تاليا، وتجلس على المقعد أمامي، وتصرُّ على أن أتفرّس بملامحها ملياً لكي لا أنساها أو يختلط وجهها بالوجوه التي يزدحم بها رأسي وتتراكم على أوراقي، أتراها كانت تُخزن صورتها في دمي لأنها تخشى عليّ نسيانها فعلاً حين ترحل، هل كانت تستشعر رحيلها قبل أن أتمكن من ضمها لصدري، ما صدق حدسُكِ يا حبيبتي، ها أنت تحتلين كل ذرّةٍ بدمي، تُخالطين الأكسجين في تسابقه لرئتيّ،ولا تنفكُّ شراييني تزهو بك ذهاباً، وتختال أوردتي بك إياباً، وزينب هي لعنة فراقك الجاثمة على صدري، لو أنهم يتزوجون سريعاً ويرحلون بعيداً، أو ينتقلون لجريدةٍ أخرى قبل أن ينفلت حبكِ من أضلعي ويحتلّ المكاتب والممرات في الجريدة.

ما الذي أقوله؟ يبدو أن غيابكِ سيملؤني حنقاً على كل من حولي، وسيقتاد طباعي إلى حيث لا أشتهي، هنيئاً لكما هذا الحبُّ يا زميليّ، املأا ثوانيه عشقاً واغرسا دقائقه أزهارا، لوّنا حياتكما بجنونه وهفواته، تسابقا على تحقيق أمنياته، ولا تتركا للأقدار يداً تمتدُّ إليه لتستلّه من بينكما، وحيدكما الذي سينمو بينكما هو، اعتنيا به بقدر حبكما له، وبقدر ما تشعران به مخلوقٌ منكما، وتفخران ببنوّته، وترجوان له عمراً أجمل، وأنا أعدكما أن أبتسم كلما لمحته في عينيكما.

ما عُدتُ أحتمِلُ هذا الصراع الذي يمزقني لشخصين أحدهما كنتُهُ يوماً والآخر أحاول أن أصبحه، ليتني أعقد الصلح بيني وبيني لأحيا حياة الأسوياء، أشعر أني أحتاج لمن أبثه همي ويحمل عني بعض ما أجده من كَدرٍ يتغشاني ولا ينفكّ يبسط عليّ جبروته، ولكن من سيفهمُ أني إلى الآن لم أتزوج فاطمة فعلياً، ومن سيقدر أن وفائي لمنى هو ما منعني من السكن لفاطمة من دون أن يتهمني بالعجز أو الغدر أو الظلم، وأي صديقٍ يصلح لأن أبثه نجواي هذه، ولا صديق لي سوى عبدالله الذي ما فتئ ينصحني بالتوجه للأطباء لمعرفة سبب تأخر الإنجاب لدي فأجيبه ـ بعد أن يئست من إفهامه أن الأمر لا يهمني كثيراً وأنني غير مستعجل على ذلك ـ لأسكته بأننا ذهبنا وأن لا مشكلة لدينا هي مشيئة الله فقط من تؤخر مسألة الحمل، كيف أقول له الآن أنني عاجزٌ عن لمسكِ خوفاً من أن أفقدكِ بغتة، وكيف أُسرُّ له أن الحادث الذي أصابكِ بسببي لأنني فكرت في عيشة سوية تجمعنا بعد أن يئست من الشتات دون أن يتهمني بالتشاؤم وضعف الإيمان والتفكير السوداوي وأن تفكيري بعيد تماما عن الإيمان بالله وقضائه وقدره الذي يصيبنا لحكمة مقتضاها إما ابتلاءً وإما عقاباً، لا يُمكن لأحدٍ أن يفهمني أو يستوعب الفاجعة التي ألمت بي يوم فقدت منى حين كنت أهيئ نفسي لأشاركها حياةً تمت للأحلامِ بصلة وثيقة، منى التي كانت تشبه الغيمات المحملة بالمطر، تترقبها كل أرضٍ تمر فوقها ولا تُمطر الفرحَ إلا بقلبي، طفلتي التي تتسلقُ كتفي لتقطف لي غيمة وتبني لقلبينا عُشاً على القمر، حمامتي التي لا تضِلُّ طريقها لقلبي، وتعلم كيف تُطعمه لنبضاتها لينمو حبها بقلبي بعدد كل نبضة يخفق بها قلبها، فجأةً أطعمتني سنين عمرها دُفعةً واحدة حزناً دون أن تمنحني فرصة

لاستيعاب الأمر، كل شيءٍ كان مفاجئاً وصادماً وقاتلاً، فتحتُ عينيّ على منى وقبل أن أُغمضُها كانت قد رحلت، هكذا بدون أن تودعني أو تترك لي عُذراً يشفع لها لدى قلبي لينسى.

ها قد رحلتِ..

دون أن يبقى نهارٌ..

يستفيق إذا المساءُ طوى جناحه

من يُوقظُ الأزهارَ من سكراتها..

والعطرُ غافلها وأقرضها جراحه

أو يُسكن الأطيارَ من قلقٍ..

وقد أسرت لقِبلتِها..

وما وجدت مدائنُها مُباحه

من يخبزُ الأفراح هذا العيد

كي يصحو الصغار..

وهمّهم يُفنون باللُّقيا صباحه

ألملمُ بعضي الذي تبقّى مني وأُسلمه للشوارع المبللة بالمطر، أتُراها تفكر الآن بخطفي كما فعلت مع منى، وكما حاولت مع فاطمة، أم أنها لا ترى فيّ ما يستحق الالتفات إليه، بودي لو أصرخ بوادٍ سحيقٍ لا أسمع به سوى تردد صرخاتي لعلها تُطفئ النار التي تستعر بقلبي أو تُعيد لي بعض ما فقدته مني،

أنا الذي ما بكيتُ حزناً عليكِ، وما استجاب دمعي لجميع من توسله أن يُشفقَ على حالي وأنا أترنحُ يومياً بين قبركِ وبيتكِ، وكلما ذهبتُ يسقط فرح، وكلما عُدتُ يتناثر عمر أهدرته الأقدار عنوة، أواهُ يا حبيبتي: كيف للسلوانِ أن يطرق قلبي وأنت تفترشين التراب، وكيف للحياة أن تسألني المُضي بها وقد نَفَثْكِ عنها، أي غُربةٍ هذه التي تركتِها بداخلي، وأي حضورٍ طاغٍ ما استطاع الموتُ حملهُ بين يديه وهو يمضي بكِ سريعاً قبل أن ألمحه، كسارقٍ مُحترف يعرف كيف يقتنصُ ضحاياه من أعمارهم، ويمضي دون أن يترك خلفه أثراً أو بصمة تساعدنا على النيل منه واسترجاع ما خطفه أمام أعيننا دون أن نملك خياراً بمنعه.

أتساءل أحياناً لو أنكِ لم ترحلي، أي سعادة كنت سأحياها؟ هل كان للدمع أن يمر رمشي ويطأه عنوة ويبقى رافعاً رايته يأبى السقوط ليريحني من عبء حمله على الأقل؟ كم من الأطفال كنا أنجبنا؟ أترانا سننجب طفلاً يشبهني أم أن جميع أطفالنا سينحازون لجمالك دون مجاملة لأبوتي؟ هل كنا سنخبرهم عن عشقنا المجنون؟ هل ستعترفين لهم أنكِ أنتِ من بدأ بالحب؟ ونسج شباكه حولي ليصطادني؛ وحين نجحتِ تركتني معلقاً ورحلتِ؟ وما نجحتُ يا طفلتي في الفكاكِ من شباككِ، هل كنا أنجبنا ذكراً نهبه اسم أبي كما كنتُ أُصرَّ وتوافقين سعيدة رغم أنكِ تُبدين امتعاضكِ كونه اسماً قديما ـ ولا تعترفين بجماله مع كونه قديماً ـ في حين أنّ عينيكِ تشيان بفرحك لأنك تعشقين كل ما يمتُّ إليّ بصلة، أم أن افتتاني بكِ سيمنحنا إناثاً يحملن لون عينيكِ ورهافة خديكِ وابتسامتك، وهل كنت ستُصرين على منحهن الأسماء التي كنتِ تخترعينها لتحمل كل طفلةٍ من بناتنا اسماً لم يسبقها إليه

أحد، أم أنكِ ستكونين أقل عناداً حين تُصبحين أماً؟ وهل كنتُ لأبقى طفلكِ الأحب أم أنهم سيسبقونني إلى رئاسة قلبك؟ وحين أقترع معهم ستكتبين أسماءهم بكل الأوراق عكس ما كنتِ تقولينه لي من أنكِ ستكتبين اسمي على كل الأوراق لأبقى دائماً سيد قلبكِ الأول.

أتراكِ تشعرين بالخذلان لأني أحاول العيش بعدكِ؟ أم أنكِ تمنحينني عُذراً بحجم قلبكِ الكبير؟ هل سامحتني لأنني لم أقع صريعاً وأنا أرش الماء على قبركِ لأبلل طينتك وينمو على تربتكِ ريحانٌ نثرتُ بذوره ليظلّل قبركِ حتى لا تلفحكِ الشمس في حين أنني سمحت للدود أن يتسلل إلى جسدكِ الصغير ويصل لكل جزء منكِ لم تتجرأ على لمسه يدي تطهيراً لكِ من كل دَنَس، وحمداً لله أنني لم أفعل، وإلا لما كنت سامحتُ نفسي وأنا أُودِعُ خطيئتي معكِ التراب دون أن أسألكِ المغفرة.

رباه! ماذا لو أنني انجرفت لعاطفتي وجنوني ولوثتك بخطيئتي ورحلت وبقيتِ بعدي تدسين حزنكِ في التراب، هل كنتِ لتغفري لي إساءتي؟ أم أنكِ ستقضين ما تبقّى من عمركِ تشكينني لله ليخسف بي ويُحيل قبري حُفرةً من حُفر النيران لتحرقني كما حرقتُ براءتك؟ هل كانت الأرض لتقذفني للدود عشاءً دسماً أم أنها ستلفظني خارجها قَرفاً من هول ما اقترفتُ بحقك؟ يالله؛ ما هذا الهراء الذي أهلوسُ به وقد كنتِ أطهر حبيبة اصطفيتها لنفسي والجنة.

هل سيفيدني الآن توبيخي لنفسي لأني لم أستعذ بالله ثلاثاً كل شروقٍ وغروبٍ أن يسلبكِ مني قدرٌ لا يد لي به، ولأني لم أستودعه حياتكِ كما استودعتكِ قلبي، ولأني ما خبأتكِ بين ثنايا صدري وتركت أضلعي حراباً

تدفع عنك كل أذى؟ لماذا لم يكن اسمك حاضراً في كل سجدة علّ عُمركِ يطول بكل دعوةٍ يوما، ألم يقل رسولنا أن «لو كان لشيءٍ أن يدفع القدر لدفعه الدعاء « لماذا لم أدفع عنكِ الموت بدعواتي الضارعة إلى الله بأن يُبقيكِ عمراً يمتدِ بكِ إلى أن تبلُغي من العمر عِتيا، هل كان ذنبي أنني لم أكن أعلم أنني كنت أخطط لشيءٍ والأقدار تُخطط لشيءٍ آخر يمشي باتجاهٍ معاكسٍ لاتجاه أحلامنا.

لو أنهم أهلكِ من منعوني منكِ، لو أنهم وقفوا ضد زواجنا وعارضوه بكل ما آتاهم الله من قوة، لو أنها الوظيفة لم تأتِ بوقتها، لو أنني لم أجمع مهركِ، لو أن بشراً حاول خطفكِ مني، لكنتُ سللتُ قوّتي وحاربتُ الكون لأجلك، ولكنه الموت يا صغيرتي، أقفُ أمامه عاجزاً بلا يدٍ تمتدُ إليه دفاعاً عنكِ، وبلا رجْلٍ تجري بكِ بعيداً عنه، ماذا أفعلُ وعدوي لا يُريني نفسه لأقتله قبل أن تقترب منكِ أنفاسه، أين أخبئُ خجلي منكِ لأني أخلفتُ وعدي معكِ بأن أصونكِ من كل شيءٍ وما مر ببالي الموت الذي كان يتربصِ بكِ ليأخذكِ على حين غرةٍ من الفرح.

أعوذ بالله من حزني وكَدَري، أعوذه به من يأسي وضعفي، أعوذ به مني دونكِ ضعيفاً، ذاويا، خاوياً، أعوذ به من صدرٍ ما عاد يسترق النبض إلا ليذكركِ، لماذا تهاوى إيماني وأنتِ التي علمتني أن الصدق مع الله هو أقرب الطرق التي ستوصلنا إلينا، لماذا نكثتُ عهدي معكِ وما عُدتُ أصلي الضحى بعد أن توقفت رسائلك الصباحية التي تذكّرني بها، لماذا صغُر كل شيء بعيني وما تعاظم إلا غيابكِ المُفجِع، لماذا تمردت الحياة عليّ وعاندني بها كل شيءٍ وما استسلم لي إلا الحزن ليشاركني وفائي لك دون أي مقابل،

هل فعلاً لم يأخذ مقابلاً لوفائه، أم أنه كان يمتصُّ عافيتي وفرحي وابتسامتي ويرميني كئيباً بائساً لما تبقى من عمرٍ لفظته الأيام خارج أحلامها.

وفاطمة!

تلك الصديقة التي كنتِ تستترين بها حين تهربين من منزلكِ لتمنحيني عمراً كالمراجيحِ التي تدغدغُ الهواء وتشاكس الريح وتَطْرَبُ لأغاني الأطفال، تلك التي رضيت بأن تدفنني حياً بقلبها وتهبني لكِ حلالاً طيباً مباركة لكِ بي، دون أن تُشعر أياً منا بما كان يتلوى بداخلها من ألمٍ وحسرة على حبٍّ لم يُكتب له الصراخ في وجه الحياة، تلك السماء التي تطيرين لها بفرحتك فتهبكِ نجوماً تشاطركِ الحُلم، ولم تنسَ يوماً أن تُزين وجهها بابتسامةٍ تطاردُ بها دمعةً تولي هاربة من عينيها، تلك التي صارت بعدكِ محاربة ارتدت عشقها واستلّت وفاءها ومضت تُقاتلُ النسيان تنوي أسْرَهُ واقتياده إليّ ذليلاً صاغراً ليمثُل بين يديّ ويعتقني منكِ.

أين هي من كل ما أمر به الآن، لماذا أعلنت فشلها بعد أن حاولتْ تبرئتي منكِ حين تيقنت أنني مُصابٌ بكِ حتى النخاع، لا كيّ ولا استئصال قد يُعافيني، فرضت أن تحيا مع خيال رجل ليس له من رجولته إلا ذكراكِ وقلبها، لماذا تأتين إليّ مُعاتبةً كلما هممتُ بمنحها ما يجب عليّ كزوجٍ من واجبات، وأحارُ بينكِ وبينها وتنتصرين دائماً حين ألمح دمعة تتسلل من عينيكِ مستنجدةٍ بحبكِ، وتُحلِّفُني بأن أظل وفياً، وأكسرها لكي لا تنكسري، لو تعلمين خجلي منها ومنكِ، أنا الممزق بينكما، لم أكن أُدركُ حجم الورطة التي سأضع نفسي بها حين قررت الزواج من فاطمة بعد أن رأيتكِ فيها، ترتدين ثيابها وتلونين عينيها، وتضحكين ذات ضحكتها المخنوقة خجلا،

وما فرقتُ بينكِ وبينها في حُجرات قلبي حتى اصطدمتما معاً هناك، فكانت الشرارة التي اشتعل منها هذا الصراع الذي أشعرني بعجزي وقلة حيلتي.

كل جمالكِ ارتدته فاطمة، طفولتكِ التي لا تكبر، عقلكِ الذي يقف بي دائماً حيثما أتمنى، قلبكِ الذي يتسع لكل القلوب، الفرق الوحيد بينكما أنكِ كنتِ تثرثرين كثيراً وهي نسجت من الصمتِ ثوباً فضفاضاً وارتدته، ومضت تجرجر أذيال خيبتها، ربما لأنها شعرت أن لا جدوى من استجداء قلبٍ عاثت به أخرى عشقاً وجنوناً وتسيّدته عُمراً، وما تركت لسواها مُدخلاً تلج منه إليه.

مسكينة جارتنا ليلى، المرأة التي توفيت ليلة زواج زوجها بأخرى، ترى أي عشقٍ كانت تكنه هذه المرأة لزوجها، وأي قهرٍ اعتراها حتى انتهت الحياة بالنسبة لها بمجرد تيقنها من احتلاله من قبل امرأةٍ أخرى ستكون لها ضرّة وستشاركها كل شيء بدءاً من الفراش الذي ستقاسمه زوجها ولن تترك لها نصيبا مفروضاً منه بحجة أن قلبها الضعيف لا يحتمل، إلى قلبه الذي لا تعلم أي قدرٍ ستحتل منه وماذا سُتبقي لها منه، إلى كلماته التي لن تعبر أذنها وستتخطاها إليها، إلى أفراحه التي ستنعم بها معه، وأحزانه التي ستواسيه عليها وستذرف أدمعها بدلا منها حزناً لأجلها، ما الذي يتبقى لامرأةٍ منحت رجلها كل شيءٍ ورمى بها مع كل شيءٍ، ولاذ بأخرى لم تمنحه إلا خنجراً مسموماً يغرسه في صدرِ من أهدته عمرها ومضت متمنيةً له حياة سعيدة.

لماذا لم يأكل الذنب سلطان ـ زوجها ـ وتزوج قبل مُضي شهرٍ على وفاة زوجته ـ بعد أن اضطر لتأجيل يوم زفافه المحدد احتراماً لتراب زوجته الندي ـ وحين عاتبه المقربون منه قال بأن التي سيتزوجها لا ذنب لها بوفاة زوجته

ولا يمكنه أن يؤجل زواجه بها أكثر احتراماً لاتفاقه مع أهلها، فقد كان بحاجة لامرأةٍ ترعاه بعد أن مرضت زوجته ولم تعد تقوى على الاهتمام به وقضاء حوائجه، ولم يتزوج لأجل متعةٍ أو رغبة، خاصةً وأن زوجته لم تمت إلا لعَطَبٍ أصاب قلبها، وليس بسبب حزنها على تسليمها لرجُلِها لأخرى على طبقٍ من الوفاء الخالص، ورغم ما قاله سلطان عن سبب زواجه إلا أنه وبعد تسعة أشهرٍ فقط رُزِق بطفل، وقبل التسعة أشهرٍ كان قد نسيَ ليلى، وأسلمَ نفسه لحياته الجديدة دون أن تُعكِّر ذكراها صفو سعادته.

أتُراها ليلى كانت تخلت عن زوجها لو أن قلبه هو الذي اشتكى العَطَب بدل قلبها، أكانت بحثت عمن تُجدد معه حياتها وأمنياتها وتركته للداء يستعمر قلبه وروحه؟ أيُعقلُ أن النساء أكثر وفاءً من الرجال، أم أن المسألة تتعدى مصطلحات الذكورة والأنوثة لتتخطاها إلى القلوب التي تسكن تلك الأجساد، وأن الوفاء مسألة نسبية كالحب والكره والخيانة والإخلاص وككل شيءٍ في هذه الحياة يختلف بحسب طبيعة كل شخص؟ أهو الوفاء فعلاً ما يلزمنا بالتعايش مع مثل هذا الوضع أم أنه الواجب وحده يفرض علينا التوافق معه؛ وهذا ما يبرر اختلاف تعامل كل منا مع الموقف كلٌّ حسب احساسه بالمسؤولية تجاه الأمر؟

من أين لي بقلبٍ كقلب سلطان طالما أني عجزت عن امتلاك قلبٍ كقلبِ ليلى أخرُّ به صريعاً قبل أن تمتد يدي لحفنة ترابٍ أذرها على قبركِ وأرحلُ خالياً من الدمعِ محشوراً بالموتِ في حلقي، فلا هو استلّ روحي وذهب بها ولا هو أعادها لجسدي ليستكين قليلاً، لماذا وبعد مُضي سبع سنواتٍ على

رحيلكِ لا زالت ذكراكِ تجلد ذاكرة حزني دون رحمة، لماذا لم تبتلعني الحياة وتمضي بي بعيداً عنكِ وتلقّمُكِ للنسيان وجبة شهيةً يتناولها سريعاً؟

يا أنتِ..

يا ذات الرداءِ الباردِ المنسيّ خلف الحُلْمِ..

دون جِنايةٍ

ماذا أصابَ الغيمُ من عينيكِ حتى أمطرا

أصغيرتي..

لمي سحائبكِ السخية من دمي

وامْضي بعيداً..

دون حُزْني..

دون خوْفي من غدٍ لا أمسَ يشنقهُ وحيداً..

مُعدَما

لا زال المطر ينهمر وبغزارة وأنا أمشي وحيداً دون أن أحاول الاحتماء من وابله تحت شجرةٍ وارفة الأوراق، أو أخبئني بسيارتي التي تستجديني العودة بها إلى مظلتها قبل أن تغرق، أحتاجُ لأن يغسلني هذا المطر من كل ما علق بجسدي من حزن، ولا زال يتفنن في ممارسة نرجسيته على روحي، وأدعو الله أن يستمر هطوله طويلاً ساكباً برده في عظامي قبل أن أحترق بذاكرتي الملتهبة ككرةٍ نارية انشطرت في دمي.

أيُّ قلبٍ هذا الذي تتنازعه امرأتان وتصران على اقتسامه بالعدل دون أن تطغى احداهما على الأخرى، لا تحضر فاطمة إلا وقد اقتادت منى بيدها، ولا تأتي منى إلا وفاطمة تحتضنُ كفّيها، وأنا المشدوه بينهما لا أدري أين أوجه مصيري وقادم أيامي، لا قدرة لي على ارتكاب خطوةٍ تهربُ بي إلى الغد، ولا تطاوعني عيناي على الالتفات عن عمري الذي خلعته قبل سبعة أعوام، وارتديت بدلا منه سنيناً مُرقّعه بالحزن والخوف واليأس والدمع والكثير الكثير مما يُوغِل بروحي في عُمقٍ سحيق، أحاول أن أتخذ لي صاحباً يصدُقني، ويهبني أذناً خالية من الهم وأصواتاً لم يلوثها الحنين، ولا يقبلُ مُؤاخاتي سوى الليل وسواده الذي يستر شتاتي كثيراً، وحده دون سواه ينجح في إخفاء التجاعيد التي رسمها الحزن على قلبي، امرأتان كالشمسِ والقمرِ لا تجتمعان إلا لتفترقا بي، أنا الذي لا يُمكنُ شطري لرجلين بجسدين وروحين وقلبين، وحين لم تتمكنا من اقتسامي انزوت كلٌّ منهما بركنٍ قصيٍّ واستنفرت دمعها تحثُّ به كفي وتتوسله حضورا، السنون يا صغيرتيّ بترت يداي وما أبقت لي أصابع تتلهفُ المناديلُ لِتُسكنُها دمعا، ولستُ كالأخطبوط تنمو لي يدٌ بديلة كلّما قُطعت مني يد.

لم أعد قادراً على تفسير مشاعري، إلى أين سيُوصلُني هذا الارتباك والتناقض، الكثير من الاحتمالات غير المؤكدة، والكثير من القرارات موقوفة التنفيذ، دوائر لا توصلني بجريي اللانهائي إلا لبداياتها، وكأني لم أجتهد إلا بالمكوث واقفاً مكاني، ولم أُحفِّزُ أقدامي على انتعال الطرقات وسبر أغوار الدروب، ليمتد بي العمر وأنا مكاني كنخلةٍ ما ملّت الوقوف، ولم تجر للحياة

ولا تسابقت إلى الموت، ظلت تغرس جذورها بذات الأرض، وتفرشُ ظلالها بذات الأرض، وتهب ثمارها وعمرها لذات الأرض.

قلوبنا تشبه العلب البلاستيكية التي لا تصلح للاستعمال إلا مرة واحدة، وإن أعدنا استخدامها فإننا بالتأكيد نغامر بالكثير مما لن نرى نتائجه إلا بعد أمد، هكذا أثبت لي حبكِ الذي ما فتئ يتغلغلُ بداخلي ولم يترك مجالاً لأخرى من بعدك لتستوطن هذا القلب أو تمر به مرور الكرام.

لا زال الغيمُ يبكي، أتراه يسكب فاطمة بدمي، أم أنه يُسيّلُ منه منى التي اختلطت مع كرياته الدموية، أم أنه يحاول خلطهما معاً بدمي، ويرتكب معي ذات الخطأ الفادح الذي يتمادى به كل شيء حولي، وكأنني لا أكون إلا بهما معاً رغم أنني ما عدت أحتملُ حزن امرأتين خُلقتا من عشق وتربتا على الوفاء، وأخشى ان يُفنيني انسجامهما، وتفانيهما من أجل الحفاظ عليّ.

أتعلمين أي حزنٍ يبعثُ المطر؟

وكيف تنشج المزاريبُ إذا انهمر

وكيف يشعر الوحيدُ فيه بالضياع

بلا انتهاء ـ كالدم المُراقِ ،كالجياع

كالحبِّ ،كالأطفالِ ،كالموتى هو المطر

بأي روحٍ كتب السيّاب قصيدته هذه، وكيف عَبَرَ المطرُ روحه حتى عرّاها في عين القصيدة، وما ترك حجاباً بينه والدمع إلا ومزقه فصرخ مع.

ketab4pdf.blogspot.com

[كل قطرةٍ من المطر

حمراء أو صفراء من أجنّةِ الزَهر

وكل دمعةٍ من الجياعِ والعُراة]

[مطر مطر مطر

مطر مطر مطر

ويهطلُ المطر]

ها هي تُمطِرُ أيها السيّاب، لا زالت دموعك تسابق القطرات وتسرق الابتسامة من فم الوليد، لن تبكي وحدكَ هذه الليلة، كائنٌ آخر سيتساقطُ معك، سيذوب مع حزنك، وينشجُ دمعك، سيُصلّي كثيراً مع كل زفرةٍ تطلقها غيمةٌ حبلى بأن يُبرّأَهُ الله من كلِّ حُزنٍ ويطهّرهُ من كلِّ هم.

وهذه الأرض؛ أتعجب منها لماذا تطرد قطرات المطر قبل أن تسمح لها بالغوص إلى أعماقها، فنجد القطرة تضرب في الأرض وترتدُّ عنها قبل أن تحتضنها بهدوء، أي علاقة حبٍّ هذه التي تجمع بين الأرض والمطر، عِشقٌ لا يُمكنني تفسيره، كعلاقتي بفاطمة تماماً، كلما اقتربت مني أبعدتها عني بجفائي غير المقصود واللاإرادي، أتراني سأحتضنها أخيراً كهذه الأرض التي تلقفت المطر بعد أن شاكسته جفوة؟ أهي رسالةٌ لي من هذا التراب الذي خُلقتُ منه ليعلمني طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة وأن أي جفاءٍ لا يعقبه إلا عشقٌ زائد، وها أنا أعترفُ بأني أحبك.

نعم أحببتكِ دون أن أشعر، ودون أن أقصد، وأخفيتُ حبكِ سراً بداخلي

ketab4pdf.blogspot.com

حتى لا تلمحه منى فتغضب، أخفيته حتى عن قلبي ولم أعترف له بنبضاتي التي بدأت تثور عليه كلما اكتنفني اهتمامك، وكلما منحتني جناحين لأحلق بعيداً واثقةً بأني مهما ابتعدتُ سأعودُ إليكِ لأختبئ في قلبك الذي لم يتسع لسواي، فأنعم بدفئه كلما حاصرني البرد.

ها هو المطر يزداد، والبرد يشتد، والزكام يعلن محاصرتي، والسعال يتخبط بين صدري وحنجرتي، أشعر أن الحمى بدأت بمراودتي عن نفسي وقواي بدأت بالتخاذل، أعتقد لا بد من العودة للمنزل قبل أن أقع بأحضان الطرقات وينهشني البرد وحيداً.

وصولي للمنزل بهيئتي تلك كان مربكاً جداً لفاطمة التي اقتادتني من يدي كطفلٍ صغير، ودون أن توبخني ساعدتني على استبدال ملابسي بأخرى جافة، ثم طلبت مني أن أحتمي بفراشي لأنعم ببعض الدفء وتركتني وخرجت من الغرفة، وليتها بقيت لتحضنني فأنا أحتاج لها كثيراً هذه اللحظة بالذات، أشعر أني أود اللوذ بحماها، فلا شيء سيُسكن البرد سوى دفئها، ولكنها ذهبت، أيعقل أنها لم تشعر بحاجتي إليها، أم أنها تعمّدت أن تتركني لتُشعرني بالألم الذي نُخلفه بأرواح من نتركهم وأعينهم تستجدينا البقاء، ولكن عودتها بكوب الحليب بالزنجبيل خلصتني من تلك الأفكار السوداء التي بدأت بالتآمر مع الحمى عليّ.

يدك التي سكنت فوق جبيني زرعت أزهاراً في أرضٍ بور، وعلّقت سماوات ملأى بالنجوم في سقفِ غرفتي، تعرفين كيف تُغرين الأطيار لتزقزقَ في المساء، وأنا عاجزٌ عن منحكِ الحياة التي تستحقين، والحب الذي تتمنين،

طفلةُ الشمسِ أنتِ، وابنة الغيمِ المُدللة، تضحكين فينبتُ في وجهكِ قمر، وتبكين فتنطفئ قناديلٌ وتنكسرُ فراشات، تعلمين كيف تراودين العطر عن زهره، وكيف تترجمين الصمت في الأحاديث، وتضعين لكل حكاية نهايتها التي تستحق، ولكنكِ تصلين إليّ وتنكسين راياتكِ استسلاما، تُصبحين أخرى لا تشبهكِ أبداً، تُربكين الكلمات بصمتكِ، تجبرين الشمس على الانسحاب باكراً تُلملمُ هجيرها وتسحب خلفها ظلال كل شيء وتهرب للغروب، تخنقين الغيم حتى يبكي ويذرف أطفاله للطرقات، يصبحُ الصمت أبلغ من الكلام، وتقف حكاياتنا بمنتصفها، هل يئستِ مني، أم أفزعتكِ رؤية نهايتي في عينيّ فكتمتِ أمرها عني خوفاً عليّ من أن يقتلني الخوف مبكراً، أو يغتالني الاستسلام من بين قلقي أو من خلف ضعفي؟

ثلاثة أيامٍ والحمى لا تفتر عن جبيني، والحرارة تعيثُ بجسدي وذاكرتي فساداً، استهلكت كل طاقتي، لم أفتح عينيّ إلا ووجدتُ فاطمة إلى جواري تُمسكُ يدي لتهبني بعض برودتها وأسرّبُ لها بعض حرارتي، تضعُ لي الكمادات الباردة، وتقيسُ لي حرارتي بين فترةٍ وأخرى كطفلٍ ما أنجبته، وتُصمُّ أذنها عن هذياني بمنى، لماذا لا أرى إلا قلقها عليّ لعدم انخفاض حرارتي، لماذا لا تُشعرني بانزعاجها من هذياني المتواصل، أيُعقل أنها غير منزعجة، أم أن خوفها عليّ فاق كل ما عداه؟

ها هو اليوم الرابع يأتي بصباحٍ أخفُّ وطأة من رفاقه الذين سبقوه لجسدي، أستقبله بابتسامتها وهي تحضر لي كوب الحليب بالزنجبيل، وتشاغبني بمداعباتها الجميلة:

ـ ما شاء الله! هذا الصباح تبدو أجمل، يُحبُّكَ كل شيء، حتى العافية اشتاقت إليك فزارتك سِراعاً.

ـ الحمد لله، بالفعل أشعر بحالٍ أفضل، شكراً لوقفتكِ لأنكِ كنتِ إلى جواري دائماً، أتعبتكِ معي، لا بد أنني أزعجتكِ بهذياني (كنت أريد أن أستشف ضيقها من هذياني بمنى، ولكن ردها جاء صادما ومحيراً في آن).

ـ بل كان هذيانا لذيذا، يكفي أنكَ كنت تهذي باسمي طوال الوقت، فأي هذيان أجمل قد أنتظر؟

اشرب الحليب بسرعة لأن الشوربة بانتظارك والإفطار يتوسد الجمر ليلمس فيك، والصحة يا حبيبي لن تتوسلك القدوم لجسدك إن لم تستحثها على ذلك.

خرجت مبتسمة، وتركتني لحيرتي، أيعقلُ أنني كنتُ أهذي باسمها، أم أنها لم تشأ احراجي، وأرادت إعفائي من عناء تكبد تبرير حُلمٍ فرضته حُمى، ولكن أذكرُ أني كنت.....، لا بأس، المهم أنها لم تتضايق، والأهم أنها مبتسمة وراضية، والأكثر أهمية أنني بدأت أُوقن بأني أحبها كثيراً، وسعيدٌ بمشاركتها حياتي، لا أحتاج إلا لمناسبةٍ استثنائية أطلب بها منها الزواج بي بشكل فعلي، لن أفاتحها في الأمر الآن، فهي تستحق أكثر من مجرد زواجٍ عادي، هذه التي صبرت عليّ ثلاث سنوات تحمل اسم زوجة وليس لها من الزواجِ نصيبا مفروضا، وعشقتني قبلها سبعاً تستحق عرساً استثنائياً يشبه ليالي ألف ليلةٍ وليلة لا تنتهي بانتهاء المساء، عُرساً لا يُشاركنا فرحته أحد لكي لا تتقسم الفرحة على أكثر من قلبين،أريد مفاجأة يستحقها قلبها الكبير، سأُعدُّ

لها وأفاجئها بها قريباً، وحتى ذلك الحين سأترك الأمور تبدو لها كما هي، فمن حبلت بعشقٍ عشرة أعوامٍ لن يضيرها أن تنتظرَ أياماً معدودة.

أشعر بالراحة تتسرّبُ إلى روحي، كل الضيق الذي حاصرني عمراً، والتوتر الذي نخر بصدري سنينا، والسماء التي لم تتلبد إلا باليأسِ والوَهَنْ بدأت غيومها بالانقشاعِ أخيراً، ثمة شمسٌ تراود عيني عن غشاوتها، تُبشِّرُني بغدٍ جديد لا يمت للأمسِ بصلة قرابة لا من قريبٍ ولا من بعيد، فقط هي الأحلام تُوشك أن تُزهر في دمي ياسميناً تتفتحُ براعمه بوجهكِ قبل أن ترتد عنه ابتسامته العذبة.

(7)

أحلامنا واحنا مثلْ أرض وْسما..

ما نلتقي!

نجري ونجري وآخر السّكّة طريقٍ ملتوي

ملّيت بعدك ألتفت..

صوب الفَرح

والضحكه عنّي تلتفت

من ينتبه..

للطفله إللي في غيابك شيّبت

تظفر جدايل لعبها وتخاطبك

شفْني كبرت وْصرت أجمل...

واكْثر احْلى لا ابْتسمت

بسّ الْحقيقه ..

في غيابك ما ابْتسمت ..

وْلا فرحت ..

وْلا ضحكت ..

وْلا عرفت أْعيش دونك ..

وانْت عنّي..

ما عرفت !!!

الحزن فايض من ضلوعي وْزاد عن حاجة دَمي

والروح تسألني استكانه من تراتيل العذاب

أهذي وأذن الكون صمّا أخرست صوتي بفمي

لا باب تطرقه الأماني أو يزاوره السحاب

ثلاثة أسابيع مرّت منذ خروجي من المستشفى، كنتُ أظن أن ما حدث معي قد يهبني إياهُ مبرئاً من كل أنثى لا تحملُ روحي، وتفيض من جوانبها أنوثتي، ضربات الألم التي كانت تدقُّ بجسدي كانت تذوب أمام اهتمامه بي، حتى بِتُّ أشعرُ أنني قاب قوسين أو أدنى من الوصول إليه، والتنعّم بحبه صافياً من شوائب الماضي الذي ما أعتقه مذ تلبّسه، ولكن خروجي من المستشفى خيّب كل توقعاتي ودهس على الأفراح التي بدأت بالتراقص بقلبي على وقع عطفه وحنوه، خروجي من المستشفى لم يحملني إلا لحياتي التي مللتُ منها ونخر بها الضجر، للحكايات التي يثرثر بها الآخرون، والأحاديث التي تتململُ في أذني دون هُدىً، عاد بي للجدران التي جمّدها البرود الذي يسكن جنبات بيتنا الكبير دون داعٍ لكبره، ما فائدة منزلٍ لا يُشعرنا اتساعه إلا بالفراغ الذي يحيط بنا بداخله، وبخلوه من كل شيءٍ عدانا، وبأننا اثنان لا ثالث لنا، ولا أمل بأن يملأه طفلٌ بصراخه وألعابه وضحكاته.

حتى مرضه الاسبوع الماضي حمل لي الكثير من الأمل، لم يمنعني هذيانه بمنى من احساسي بقربه، فقد لفظ اسمي أيضاً أكثر من مرة ـ وقد كنت صادقة حين أخبرته أنه كان يهذي باسمي، الأمر الوحيد الذي أخفيته هو هذيانه بها أيضاً، فبعض الأمور لا يجب ذكرها أحياناً لكي لا نجر على أنفسنا الخيبات، ونجنب أرواحنا عناءً لا داعي له ـ والأهم من ذلك أنه

كان يشعر بالذنب تجاهي، وقد بدا ذلك جلياً حين كان يطلب مني السماح وهو في غير وعيه، وأقسم لي بأنه يحبني، وحكى عن حيرته وتخبطه ما بيني وبينها، لذلك لم أشأ أن أعاتبه على هذيانه بمنى وأن أمنحه فرصة الوصول إليّ لبدء حياةٍ جديدة لا تأتيها منى إلا زائرة، اعذريني يا صديقتي، آن أوان رحيلكِ لأحيا، وآن أوان استرداد أحمد من قلبك.

ولكنه وبانتهاء مرضه عاد لما كان عليه، ونسي الأمر بعد أن تعافى، أغمض عينه عني ولم يعد يرى سواها، وعدتُ لعادتي في مصاحبة الوحدة وتعاطي البرود كل مساء لأشتت به اشتياقي إليه واحتياجي الذي لا يفتر للاقتراب منه، وما شفع لي حبي له، ولا اهتمامي به، ولا تجاوزي عن تعلقه بغيري، ولا اقترابي من الموت، وعودتي من بين أنيابه التي كادت أن تنهشني بغتة، ترى ما الذي قد يشفع لي، وكل ذلك ما نجح في منحي التفاتة منه تُشعرني بأن حياتي معه لا تزال بخير؟

أستأذن من المدرسة وأخرج، أحتاج لأن أُشتت تفكيري قليلاً، لن يفيدني شيءٌ كالتسوق، ككل النساء حين لا أعرف ما أعمل أفعل ما لا يجب علي فعله، ولا أشعر بحمقي إلا حين أجدني أمتلك ما لا حاجة لي به، أدور على بعض المحلات التجارية لأستقر بسيتي سنتر السيب أخيراً، أحب الضجيج الذي يملؤه، رغم أنني أنزعج كثيراً حين أبحث عن موقفٍ كمن يبحثُ عن إبرةٍ في كومة قش، إلا أن انزعاجي لا يلبث أن يتلاشى أمام الحياة التي تملؤه وكأن مسقط تعيش بداخله، أرى به كل ما أود رؤيته، حتى التباين في المحلات بين تلك التي تفتح أبوابها للعامة وتلك التي فتحتها

للأثرياء فقط، لأن البسطاء أو ذوي الدخل المحدود والمتوسط لا يفكرون حتى بدخولها لغلاء أسعارها، وأضحك حين أرى التخفيضات المستمرة بها والتي تجعل أرخص بضاعة بها بسعر أربع أو خمس سلع بمحلات أخرى، أُفرغ محفظتي مما ملأته بها من نقودٍ، ولا أُبقي بها إلا اليسير مما قد أدلل به معدتي التي تتضور جوعاً، وأُنهي تسوقي بطبق تبولة وعصير طازج في المطعم المفتوح بجوار ألعاب الأطفال ـ فلا بد من فراغٍ بمعدتي لأملاه بالغذاء الذي سأشاركه أحمد في المنزل حين يعود من الجريدة مساء ـ هذا المكان يهبني حياة أخرى، أُحب التفرج على الناس والغوص في أعينهم لأستشف منها ما يدور في أعماقهم من حيواتٍ أخرى قد تشبه وقد لا تشبه ما نراه من ظواهرهم، ترى كم أسرة تعيش في هناءٍ من بين هذه الأُسر التي تتنقل بين بضاعةٍ وأخرى، وكم عدد التي تبتسم لتداري خلف ابتسامتها هزائمها الدائمة، أتراها تملأ سلالها لتُفرغ قلوبها قبل جيوبها كما أفعل، أم أنهم يمارسون دوراً روتينياً يفرضه عليهم الواقع لا أكثر، كم هو ممتعٌ بكاء الأطفال وهم يطلبون الآيس كريم من أمهاتهم اللواتي تعبن من مهمة تسوق صعبة، جذبهم لملابسهن بأيديهم الصغيرة، غضب الأمهات ونهرهن لهم، واستسلامهن أخيراً بتلبية رغباتهم، كم يبدو الأمر جميلاً، بعض النساء تأتي منفردة للتسوق صباحاً استغلالاً لخلو المكان من الزحمة التي تكتنفه مساءً ويصعب على أحدٍ احتمالها إلا مُجبراً، وتنفرد باتخاذ كل القرارات الخاصة باحتياجات المنزل ومقتنيات أفراده، دون أن تترك لهم فرصة تقديم آرائهم، في حين أن بعضهن يصررن على جعل أزواجهن يستأذنون أو يتسللون خِفيةً من أعمالهم لمرافقتهن في هذه الرحلة الممتعة لهن والمزعجة لهم، خاصة إن

رافقهم بها أكثر من طفل وأكثر من رغبة، ولكن بالتأكيد هم لا يملكون خياراً أمام جبروت النساء حين يتعلق الأمر بشيءٍ اسمه تسوق، أتناول طبقي بهدوء وتلذذ وعيناي تدوران في المكان متنقلة ما بين الألعاب والأطفال كلُّ يجر والديه جرّاً من لعبةٍ لأخرى، مستسلمين وبحبٍ لرغبات أطفالهم، سعداء بمنحهم ما يستحقون من فرحٍ يلهو بأضلعهم، وبين الطاولات الغاصة بالطعام وآكليه، الأكثر سعادة هنا ليس الأطفال رغم البراءة والرضا الذي يُظهرونه بضحكاتهم التي تملأ المكان، وعدم الرضا أحياناً لعدم اكتفائهم من المرور على جميع الألعاب بالمركز، الأكثر سعادة هن النساء لأنهن نفضن عناء أيامهن في عربات التسوق، وختمن متعتهن بالتخلص من مهمة طبخ الغداء اليومية بوجبة سريعة يلتهمنها ومن معهن على عجل، لو علم الرجال أن أكبر مشكلة قد تعترض حياة أي أسرة ستحلها رحلة تسوق، لحُلّت أغلب مشاكل المجتمع ولقلّت نسبة الطلاق، ولكننا دائماً نبحث عن الحلول الأصعب لمشاكلنا ونُغمضُ أعيننا عن أسهلها.

أعود من رحلتي التسوّقية مُحمّلةً بالكثير من البضائع التي لا حاجة لي بها، وكأنني لم أكتفِ بملء دماغي بما لا حاجة له به من الأحاديث اليومية والحكايات التي لا تقف عند حدّ، ولكم حاولت خلعها عند عتبة بوابة المدرسة، ولكني لم أفلح بذلك أبداً، فأكتفي بأن أهدهدها لتغفو بعيداً عن الوعي من عقلي، ولكنها هذه المرة ارتأت أن تستفيق دفعةً واحدة من سُبات ذاكرتي عندما استقبلتني الخادمة باكية وهي تقول لي:

ـ زوجي سرق أموالي التي كنت أبعثها لابني ليواصل دراسته في مدرسته

الداخلية لعدم وجود من يستطيع رعايته بالمنزل وأنا هنا أبحث له عن كوّة ينفذ منها للمستقبل الآمن بعيداً عن حياة الشقاء والفقر التي نرفل بها ،وتُصرُّ على التمسك بنا حتى آخر نفس، وتزوج بأخرى تعوضه غياب زوجته في الغربة، وتم طرد ابني من المدرسة بعد أشهرٍ من عدم دفعه لرسومها، أشعر أن حياتي لم يعد لها قيمة، كل تضحيتي نسفها وارتمى بأحضان أخرى تمنحه الدفء وما التفت للبرد الذي يعتريني بعيدة وحيدة بلا أهل ولا أصحاب ولا أذن قد تسمع شكواي سوى تلك التي أبثها لربي كل ليلة في سجودي بعد أن ينام الجميع فأصحو أسامر وحدتي وسياط الغربة تجلدني ولا من يغيثني منها حين تدمي روحي، وبعد كل ذلك يلوذ بأخرى ويدفع مهرها مستقبل ابننا الوحيد محطماً كل أملٍ له بحياةٍ لا تتيمم الشقاء ولا تصلي الغربة.

«أطرقتُ ألماً، بماذا قد أرد والكلمات تهرب من بين شفتيّ قبل أن أصبها بمسمعها لكي لا تحترق بأنفاسها الحرّى»

ـ سيدتي؛ أعلم ان الأمر صعب،ولكن..

هل يمكنني ان أستدين منكِ مبلغاً أرسله لمدرسة ابني ليعود للدراسة أحتاج لما يقارب الأربعمائة ريال أي راتب خمسة أشهر تقريباً، وخلال هذه الأشهر الخمسة سأعمل بدون راتب حتى تسترجعي المبلغ، لا أريد لابني أن يخسر مستقبله بخسارة أبيه، فبعد ما فعله لم يعد يستحق أن يكون أبا، أنا أعلم ان الرجل لا يصبر على غياب زوجته ولكننا اتفقنا أن نحتمل مدة من الزمن لأجل حياةٍ كريمة نحياها لاحقاً، لم أقرر الأمر بمفردي لأتحمل تبعاته وحدي ،كان شريكي في اتخاذ القرار لذا وجب عليه تحمل مسؤوليته معي،

فلماذا نكص عهوده الآن وتخلى عنا، أم أن الأخرى أنسته أن بالحياة متعاً أخرى سواها؟

ـ لا بأس، بإذن الله سأدبر المبلغ، لا تحزني، كل الأمور ستكون بخير.

ـ نعم، بالتأكيد ستكون بخير، لأنني وبمجرد عودتي سأطلب الطلاق وسيدفع ثمن ما فعله بي وبابني، ليس من السهل أبداً تخيلي لابني يهيم بلا مأوى ولا منزل يعود إليه، كانت المدرسة الداخلية بيته، أما الآن فالشوارع هي حاضنته الوحيدة، وكان ليبقى بها ولربما تلقفه رفاق السوء واقتادوه إلى الضياع لولا أنهم بالمدرسة اتصلوا بخاله وأبلغوه بالأمر فأخذه لمنزله إلى أن أدبر المبلغ الذي يجب علي دفعه للمدرسة، هم لا يعلمون أن جميع ما أحصل عليه أرسله لهم ،لا يرون سوى أنني الدجاجة التي يجب أن تبيض ذهباً ولو نفقت مقابل هذا الذهب.

كفكفت أدمعها واسترسلت:

ـ سأذهب لأحضر لكِ الغداء.

ـ شكراً لكِ، ولكني لن أتغدى الآن، سأتناوله مع أحمد حين يعود مساءً

تركتها وصعدت لغرفتي، وفي داخلي حسرةٌ لا يمكنني وصفها، يالمرارة الخيانة، ويالصعوبة العيش حين يتوجب علينا أن نتجرع قسوة الغربة وضنى الغدر ونبلع آهاتنا ونصمت،أتذكر تلك الخادمة التي لاذت بأمي صبيحة أحد الأيام لتحميها أو لتدلها على طريقة تُرجعها لبلدها قبل أن تنفق على يد

مستخدميها، وحين كشفت عن جسدها كانت آثار الضرب تغطيه بشكل ينم عن وحشية ربّ عملها، بعض البشر لا يفرقون بين مسمى خادمة أو عاملة ومسمى جارية أو مملوكة، وحتى هؤلاء لا حق لبشرٍ بامتهان كرامتهم، رحمكَ الله يا عمر، كنت صادقاً حين قلت: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) ولكن الغالبية يتجاهلون أن الله خلقنا متساوين كأسنان المشط، لا ترفعنا الأموال بل أعمالنا هي التي تقربنا إلى الله زُلفى، من يملك المال اليوم قد يفقده غداً ،ومن لا مال لديه اليوم سيكتسبه ويصبح هو ربّ المال،يخطر ببالي قول الإمام زين العابدين الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله:

إن الغريب لهُ حقٌّ لغربتهِ

على المقيمين في الأوطانِ والسَّكَنِ

لا تنهرن غريباً حال غربته

الدهرُ ينهرهُ بالذل والمحنِ

من منا استشعر بروحه أن الغربة تشبه السجن البارد، وأن من ترك أهله وعاش معنا استوجب علينا أن نكون أهلاً آخرين لهم، ولكننا نحن البشر مجبولون على الكِبر.

أشعرُ أن حياتي مزدحمة بالكثير من التفاصيل، والغريب أنها جميعها توصلني إليك، عشرات الطرق وكلها تسلك ذات الجهة، وتحمل على ظهرها نفس المصير، أنت.

أستسلمُ للنوم وبصدري ما به من الغضبِ والتقزز من هؤلاء البشر المنتمين

لفصيلة الكلبيات، رغم أن الكلاب وفية لمن يطعمها ويرعاها وأما هؤلاء فلا هم لهم سوى التلذذ بإيذاء الآخرين بأي شكل من الأشكال، والتخلص من عقد النقص لديهم، ولا حيلة لهم سوى التشفي بهؤلاء الآسيويين القادمين من الفقر إلى الذل، وما رحموهم ورحمة الله وسعت كل شيء، هذا يضرب وذاك يغتصب وآخر يتفنن في البحث عن أعمال يطمرهم بها آناء الليل وأطراف النهار بحجة أنه يدفع لهم راتباً، ونسي أنه يتقاضى راتباً عن عمل يؤديه من الساعة السابعة إلى الثانية ظهراً وليس طوال اليوم، أذكر أن احدى الزميلات قالت إنها تتعمد رمي الأوساخ تحت السجاد لتنظر هل ستنظفه الخادمة أم لن تنتبه له لأن المنزل يبدو نظيفاً ظاهرياً، ذكرتني بمن يصف أحدهم بصاحب القلب الأسود وكأنه دخل قلبه وبصُر بلونه، وأخرى بمجرد أن تصل للمنزل تنادي الخادمة لتحمل عنها حقيبة يدها التي لا تتعدى الخمسمائة جرام، أي عنجهيةٍ تتسلى بارتدائهم، وأي سوادٍ يداعب قلوبهم ويحرقها، أعاننا اللهُ على ما ابتُلينا به من مخلوقاتٍ عفنة نضطر للتعامل معها تحت مسمى الزمالة والجيرة والقرابة.

عندما استيقظتُ مساءً تعلّقَ بصري في فراغ السرير بجواري، سريرٌ مزدوج ما استوى عليه جسدان إلا وافترقت روحيهما، وسادتي التي أحتضنها، وكلما زادت حدة اشتياقي إليك ضممتها لصدري أكثر، يداي اللتان تتشابك أصابعهما معاً قبل أن أنام ـ ولا زالا كذلك ـ مدعية أن احداهما تنتمي إليّ، في حين تُتقنُ الأخرى دور كفك بمنتهى البراعة وتُذيب أصابعي الغافية في كفها بِدِعةٍ واستسلام، الغريب أني أصدق كل ذلك، ولا يمر ببالي أبداً أن ما

يحدث ليس سوى مسرحية هزلية ستنتهي يوماً، ويغادر أبطالها حلبة المسرح، ووحدها كفي ستبقى هناك ترتعش برداً.

مساءٌ آخر لا يُسعفني فيه وجهك، ليتني أحملُ أقدامي علّها تتماثل للغياب حيث لا حزن يحترق بداخلي، ولا آآآه تخنقني، ولا ذكراك تفتعل شجاراً بروحي كل وقتٍ لتذكرني بأنك هنا في أدنى الروح وأنا التي ما نسيتك، أدندنك كعصفورة أطلقت جناحيها للريح وطارت، وحين عادت ما وجدت عشها على الشجرة، تخذلها أجنحتها والأرضُ أشرعةٌ تُبحرُ بها إلى حيث لا تدري وتخشى أن تدري بأن وجهتها لا سماء بها فتنكصُ على عقبيها عائدة لشجرةٍ نكثت وعودها معها..

يقذفني الشوقُ بعيداً وما عُدتُّ أجيدُ التقاطي، أُديرُ اسطوانة لكاظم الساهر وأرتمي على أقرب مقعدٍ أوصلتني إليه قدماي المنهكتان بحملي الثقيل، لم يكن التعب الجسدي الذي أشعر به يساوي شيئاً أمام ما يعتصرني من ألمٍ نفسي وروحي، كل شيء يبدو جميلاً للآخرين، لكن ما أخفيه أعظم من أن تمنحه للآخرين نظرة عابرة، كلُّ شيءٍ بداخلي يتداعى وكأني لستُ أنا، من قال إن الحب قد يهبنا الحياة فهو كاذب، ومن يقول إن الحياة بلا حبٍ لا تمضي فهو كاذب، ومن يقول إن الحب والسعادة رفيقان متلازمان فهو كاذب، ومن لا يصدقني فليأتِ وَيَحْياَ حياتي ليرى كيف بات الحب رداء الشقاء والقلق والتداعي، لا صبر يحملني لنفسي لأجدها، ولا أمل يوشك أن يلوح في أفقي الذي يشتد ظُلمة كل يوم، وأحمد! الويل لي من أحمد الذي ما نبض قلبه بحبي يوماً، مللتُ من حربي معه، لو كانت الدنيا كلها ضدي

لما اهتممت وهو معي، ولكنه ضدي فماذا أفعل وأين أوجّه أسلحتي؟ أو أين أولّي قِبلتي عنه وهو قِبلتي الوحيدة؟

أُريد الانتهاء من كل شيء فهل سأقدر؟ بودي لو أموت وأُبعثَ امرأة أخرى؛ امرأة قادرة على التلون كيفما شاءت لها الأقدار، قادرة على التأقلم والتمايل مع الريحِ كغصنٍ غضٍ يأبى الانكسار، امرأة تخلِقُ من الحزنِ كهيئةِ الفرح وتضحك مُصدقةً أن الأشياء كلها بلون السماء وهي تعانق الغمام مهللة لقطرات الغيث وهي تُبشرُ بالكثير من الاخضرار، امرأة من جليدٍ لا يذوب حين تشتدُ وطأة الشوق ومن صخرٍ لا تفتته الكلمات، امرأة ليست أنا، لربما أني أودها لو تشبهني قليلا أريدها بيضاء نقية كأناي التي لم أستطع تغييرها ولم يلوثها غبار الكذب فسلمت من ربو الغدر، امرأة لا تبكي إن هجرها حبيب أو عاتبها أب، امرأة تضم أمها كلما احتاجت دون أن تخشى رمي حملها في قلبها وتحميلها من الأسى ما لا تطيق، فتمنع نفسها عنوة مرددة: أنا لا أحتاج لحضن أمي، لقد أصبحتُ الآن كبيرة، ولا تحضن الأم سوى صغارها، امرأة لا تضحك حين تهُمُّ بالبكاء ولا تبكي حين لا يراها أحد..

رباااااه!

يخذلني الصبر وأنا المخلوقة من ضعفٍ حين تغشّاه وهن..

صوت كاظم الساهر يجز روحي ولا يُسيلُ دماً وهو يردد:

بس طيفك ما تركني

ظلّ ساكن وسْط جفني

كان يذكر وانته ناسي

كان طيب وانته قاسي

انته وينك؟

انته وينك؟

كان هذا الفرق ما بيني وبينك

جيتني تشكي الزمن وجيتك أريد أدفى

لقيت في صدري وطن ولقيت بك منفى

وأغرق في بكائي الذي اعتدت عليه وما نضب معين عينيّ وهي تنزف ألمي بشكلٍ شبه يومي.

في هذه اللحظة يدخل أحمد ليراني أبكي، أعلمُ أنهُ يُشفق عليّ ويخجلُ منّي لتقته أنه سبب بكائي ولكني مُوقنةٌ بقرارة نفسي أيضاً أنه لا يستطيع عمل شيء تجاه ما أشعر به، فزواجنا تم في لحظة ضعفٍ منه حين استحلفته أمه برضاها أن يتزوج لترى أبناءه قبل أن يخطفها الموت بعيداً، فكنت أنا التي احتوته عامين كاملين منذ التقينا أول مرةٍ في الصحيفة، في الحقيقة هي ليست المرة الأولى بل الأولى بعد رحيل منى صديقتي الأقرب وحبيبته الوحيدة، ولذلك ارتمى في حضني حالما شعر بإمكانية ذلك وكأنه كان يرى فيّ منى أو لعل الأقدار غافلتهُ صحوَهُ فغيّبت حسه ودون أن يشعر وجد نفسه ينجرف لي بمشاعره، ولكن هل انجرف فعلاً؟ لا أسهل من إيهام أنفسنا بما نحب لنسترضيها، أما الزواج فقد كان أمراً آخر، فما أن جمعنا منزل واحد

حتى تغير كل شيء، وحين أقول كل شيء أنا أقصد كل شيء..

ـ ماذا حدث؟

لماذا تبكين؟ هل ثمة ما يُضايقك؟ هل جرحك أحدهم؟ هل أساء إليكِ أحد ما؟

ـ ضمني إليك، يجتاحني البرد فهل ستدثرني أم ستتركني للبرد ينهبني ويسلب روحي مني؟

"وأُجهش مرة أخرى بالبكاء، ليتهدج صوتي بكلماتي المتساقطة من بين شفتيّ كسيلٍ يجرفُ معه كل سنين الصبر"

لقد تعبت.

"ويُطرق حزناً وهو لا يدري بما يجيب، فهو يعلم أنه سبب بكائي وحزني وقهري، ولكنه غير قادر على تغيير الوضع لما أطمحُ إليه من عيشةٍ سوية طبيعية تكون بيننا كأي زوجين يحبان بعضهما أو لا يحبان لم أعد أهتم بالأمر كثيراً ـ أو هكذا أظن ـ لكن أن يعيشا معاً كغريبين خانهما مأوى فهذا هو الظلم بعينه، أحاول أن أفهم ما يمر به من صراعٍ داخلي ما بين الوفاء والحب، وما بين الماضي والحاضر، ما بيني وبينها، ولكني لم أعد قادرة على تمثيل هذا الدور، أحبه ولا يمكنني العيش دونه، أو العيش معه وكأني لست معه، هذا يقتلني أكثر مما قتلني بعده فيما مضى".

ـ تعبت يا أحمد تعبت؛ ولا أدري إلى أين قد أصل معك، لا تعلم حجم الموت الذي يُظللني حين ألمحها في عينيك، وكأني أنعتقُ من رحم القهر

لأولد أنثى أخرى لا أعرفها ولا تمتُّ إليّ بصلة، أحاول إطفائي كلما أشعلني الحنين إليك وأنت بقربي، أو كلما أينعت أحلامي وما اقتربت لتقطفها وترتبها حسب أولوياتك، أو كلما جلدني الشوق بسياطه التي تترك آثارها علي دمي ولا تبالي، تخذلني حتى أمنياتي الصغيرة وكأن كل ما أبنيه لا يستحق إلا الهواء ليحمله بعيداً، لا أمل لي دائماً إلا بالتلاشي كلما حضرَتْ ولم تعرف الغياب يوماً، أفقدُ الكثير مني، أتساقط كورقٍ هدّه الخريف وحاصره الاصفرار، لم يبقَ الكثير لي، فقط بعضي الذي أحاول التشبث به رغم كل شيء..

ـ فاطمة، تعلمين أني أحبك، امنحيني بعض الوقت أرجوك .

ـ تحبني؟

وماذا قد أقول أنا؟

أنا الممتلئة بك حد التخمة، ممتلئةٌ بك حتى لكأن قلبي سينفجر!

أراكَ في الأشجار وثمارها المتدلية شاهدة على عشقٍ لم يُبتلى سوى بالجنون، أراكَ في النجومِ وهي تُغازِلُ القمر لحظة اشتياق، وتنتظر منه نظرة وأنت عيناه السارحة بعيداً في ملكوتٍ ليس به سواي، فأغمزُ لها منتشية: لن يراكِ؛ لن يرى سواي، وكأني تلك الطفلة تلهو بهواك ويلهو بها عشقك المجنون، وكأني أمكَ؛ ولدتُكَ في روحي بعد أن حملتك في دمي، وكأني أنت؛ لا أعرفني إلا بك،وكأنكَ طفلي، أبي، أخي، صديقي، وكل الرجال في عيني، لكنكَ والكونُ تآمرتما على أن يَضيقَ عليَّ وتتسعُ بدماك أوردتي.

ممتلئةٌ بك!

والأرضُ لم تعد واسعة والسماء ما عادت بعيدة والبحر استنكف تقبيل الشطآن وما بات يهتم بأن يعدها بالرجوع وهو راحل وما دلت نوارسهُ طريق الرجوع وصدفاته ما ضمت لآلئها البيضاء ممتلئةٌ بك، وقلبي يضيقُ يضيقُ يضيق، وشارفتُ على الاختناق بك.

لم أحلم يوماً بأن ألمس النجوم أو أحضن القمر وأنام ولكني حلمتُ بأن أتلمّسُ طريقي بيديك وأمضي وحين أغمضتُ عينيّ أفقتُ ولم أجد يدي!

لم يهلني يوماً حجم الفراغ بين أصابعي إلا حين استيقظتُ على غيابك، أنت الحاضر في دمي الغائب عن أطراف أناملي..

ألم تنتبه للنوافذ المشرعة في منزلنا دائماً؟ ألم تُخبرك أن هذه التي تحاصرها هذه الجدران تختنق وهي خالية منك وأني أموت وأنا أحاول البحث عن فسحة نور أو أمل تعينني على البقاء حية؟

ـ فاطمة "ويُطرِقُ حزناً وهو عاجز عن اكمال كلمته لتلد جُملة تامة تحملني إليه".

ـ أريد أن أكون أماً..

فطالما أني عجزتُ أن أصل لقلبك فلا تحرمني من تحقيق حق بسيط من أبسط حقوقي كأنثى، لا يعقل أن تحرمني من كل شيء، صدقني رغم كل السعادة التي تملكتني حين خطبتني إلا أنني الآن لا أعرف هل ما شعرتُ به حينها فرحاً اكتظت به حنايايَ أم حزناً يتربص بي ليقتلني على حين غرة

من الفرح، فإن كنت غير قادرٍ على منحي هذا الحلم فاعتقني لوجه أطفالي فهم بانتظاري وإن جئتهم قاتمة الرؤى، مُنهكة الروح، سلّمني لآخر على يد الوداع، ولا تبالي بي والموتُ يتسلمني جثة هامدة..

- .....“ويطول صمته مُطرقاً وكأن الأرض كانت تدور حوله لا به، أعلمُ أن كلماتي كانت تخترقُ روحه كرصاصة طائشة، فتصيبه في مقتل وتُخرِسُ صوته فلم يعد يقوى على النطق، يستجمعُ وهنه وضعفه وشتاته ويهذي بصوتٍ أقرب للهمس:

لا أستطيع، لا يمكنني أن أتخيلك مع آخر، نعم أنا لم أكن لكِ يوماً، ولكنني أحبّكِ، هكذا أوقن الآن، لا أدري كيف أحببتكِ، ولكنني أحبك!

ويطولُ الصمتُ، فما قاله لم يكن سوى وسوسة وشوش بها قلبي لروحي علّها تطمئن وما اطمأنت والصمت يطول.....“

- لا بأس، يمكنك الصمت كما تشاء، فأنا معتادة عليه جداً، ولكني أريد حلاً سريعاً، فأنا لم أعد أحتمل، حتى صمتك عجزت أن أفهمه، لا أدري أهو عجز أم أنه برود، أم أنني لا أعنيك البته، وكل ما أمر به الآن لا يهمك بحالٍ من الأحوال، اووه، عفواً يا عزيزي، عذراً منك، لربما تستهويك رؤيتي أتعذب لتُرضي غرورك بأنثى تعني لها الحياة بكل تفاصيلها الممتعة والمرهقة، وتتسلى بها كلما رأيتها على مشارف الموت فتهبها حياة ناقصة وتمضي تاركاً إياها فاقدةً كل شيء..

- كنت أتعمد إيلامه بكلماتي علّ عدوى أوجاعي تنتقل إليه.

ـ صدقيني ليس الأمر كما تقولين، كل ما في الأمر أني أحاول أن أتفهمك، وأحتوي غضبك لكي لا ينفرط الود من بيننا.

ـ ماذا؟ تفهمني؟ لا، أنت لا تفهم!

لا تفهم ما معنى أن تسلبني أنوثتي وتحرمني التمتع بها وأنا التي تخيلت كل تفاصيل حياتي اليومية معك دون أن يمر ببالي أنني لست سوى واهمةٍ تكيل الحزن لأيامها الغارقة في عينيك، لا تفهم ما معنى أن أمثل الفرح وأتصنع الابتسامة أمام الآخرين بدءاً بأهلك وأهلي وانتهاءً بكل من يحيطون بي وبداخلي أحترق حتى لم يتبقَ مني سوى الرماد وكلما هبت ريح الشوق اشتعل الجمر المتقد أسفل منه وكأنني في غفوةٍ أصحو منها على كابوسٍ ينهش روحي ولا يُبقي مني شيئاً، وأنت؛ أين أنت مني؟ متى شعرت بي أو احتويت كل ما يلم بي من خوف وضعف وتهاوٍ يبلغ حد الموت فأذبلُ ولا تحس، وأتساقط ولا تحس، وأموت ولا تحس..

وبعد هذا كله تقول أنك تتفهمني؟!

عن أي تفهمٍ تتحدث؟

ـ .....

ـ آه صحيح نسيت أن أخبرك أن أعين الرجال تستشعر حرمان المرأة، وأنت أعلم مني بهذا الأمر، والويل لي ثم الويل لك إن رأى غيرك احتياجي إليك، ألا تخشى عليّ الخيانة، ألم تفكر يوماً أن الحرمان قد يتردى بي لهاوية الغدر؟

ـ أنا أثق بكِ.....

"وبضحكٍ هستيري أُجيبُه"

ـ ماذا؟ تثقُ بي؟ الأولى بك أن تشعر باحتياجي لرجلٍ يعصمني لا أن تثق بي ثقة عمياء لا محل لها من الواقع، فأنا لستُ ملاكاً خُلق من نور، رغم أنني حين عشقتك خِلْتُ أنني ارتقيتُ بك منزلةً تغبطني عليها الملائكة، وتلقفتني الزهورُ عطرا، وهطلتُ من الغيم أمطاراً فأشرقت سماواتٌ وتماهت أراضين، وربت أمانٍ وأحلام ورؤى، فجريتُ للحبّ كسرابٍ بقيعةٍ يخاله الظمآن ماء، وكنتُ أظنك معي وما وجدتك، فشربت كثيراً حتى كدتُ أنفق ظمأً، الطين بدمي ينادي الطين، أحتاج لأنفاسك لتغمرني كيما أتشظى، أحتاج لحضنك ليلمّ شتاتي، أحتاج لك كلك لأحيا، لماذا تقتلني؟ ماذا فعلت بك؟ ما الذنب الذي افتريته بحقك؟ عذراً أقصدُ بحقها، هل أتيتك وهي معك؟ هل سلبتك منها؟ أو سلبتها منك؟ طوال سنين الدراسة كتمت عشقي لك بداخلي احتراماً لكما وكنت أول من هنأكما وبارك حبكما..

"وأسقط جاثية على ركبتيّ وأنا أبكي"

ـ كم مرة فكرتُ في الرحيل ولم أقوَ، كل خطوةٍ تأخذني منك تُرجعني إليك، وكل غيابٍ يسلبني منك يتلبسني بك، أشعرُ أني أدور في حلقةٍ مفرغة من العدم واللا وجود، بِتُّ لا أعرفني، وكأني لستُ أنا، وكأني أخرى لا تشبهني سوى بهذه الرتوش التي تضعها لتخفي وجهها الذي سكنه الشحوب وعلاه الاصفرار..

رباااااه؛ لو أستطيع إحصاء خيباتي لظللتُ أردد أحرف اسمك حرفاً حرفاً ولعددتُ دقائق شوقي ونزوات عشقي، ولكني عاجزة، عاجزة عن النظر إلا إليك، عاجزة عن الهمس إلا لك، عاجزة عن البكاء إلا أمامك..

الأرض لا تحتملني يا أحمد، ارحمني أرجوك، لا تقتلتني، امنحني عمري الذي بدأ يذوب .

"أحمد الذي لم يبكِ منذ رحيل منى بكى اليوم حزناً وألماً وهواناً، أشعر بأنني في هذا اليوم هتكت ستر رجولته وكبريائه وقلبه في آنٍ واحد، فكانت كل كلمة تخرج من فمي خناجر مسلولة سلطتها على عنقه، ولكن لا بأس فليشعر بما أعاني، ليشعر بأنه مجرمٌ ما ترك شيئاً إلا وسرقه منّي، وبأنه قناص ما أتى حُلُمٌ بداخلي إلا واغتاله ولا فرحٌ إلا وأجهز عليه، أعلمُ أنني أقسو عليه كثيراً، ولكنها محاولة أخيرة للحفاظ عليه، فطالما أن حبي وحناني وعاطفتي لم تنجح جميعها في وصولي لقلبه، فلأترك للقسوة دوراً لتلعبه في علاقتنا المُربكة..

احتضنني وبكينا طويلا وكأننا كنا نُفرغ كل أوجاعنا التي أغمضنا واقعنا عنها، أو كأننا كنا نتخلصُ من كل شيء علّنا نسترجع بعضنا أو نفسينا على الأقل، فكلانا فاقدٌ لذاته قبل أن ينتبه لفقد الآخر..

لماذا تحتاجُ أرواحنا لمن يهزها لتتساقط قلوباً جنية، كم ممن حولنا تجاهلناهم ولم نعرهم اهتماماً ونحنُ نعلم أن تجاهلنا يشبه الموت وأقسى، وكم من الأفئدة ذابت حنيناً ونحنُ نمتهن البعد ونمارس الرحيل مع سبق الاصرار والترصد دون أن نُشفق على من يئنون خلفنا ويذرفون الوفاء بُعيدَ

الغياب، وكأن المشاعر لا تحتاج سوى لمسة اصبع لنطفئها عقب اشتعال، أو كأن القلوب بعد أن نستهلك نبضها تُصبح كأعقاب سجائرٍ مُستعملة آن أوان سحقها بمنفضة النسيان..

كم من الأرواح تعمدنا تركها خلفنا، وأغمضنا أعيننا عن نزفها دون أن ترفرف لها أهدابنا شفقةً على الأقل، وكأنها لا تستحق العيش إلا على أعتاب الحزن والجراح، لماذا نتوارى خلف الذكريات ونهرب من الواقع الذي يفترض بنا أن نتقبله، لماذا نترك الماء ونلهث خلف السراب لمجرد أنه كان يوماً لنا رواء أو هكذا ظنناه؟!

احتضنني، ولأول مرة شعرت بقربه منّي، وكأنني وُلدت من جديد، أو كأنني تخطيتُ تلك العقبة التي تعثرت بها يوماً وما استطعتُ النهوض من يومها، شعرت بأنه مد يديه وانتشلني من هوّة ضياعي إلى فسحة روحه التي لطالما غمرتني بالصدق وإن بخلت بالحب، فهل ستمطرني حباً بعد طول جفاف، أم أن ما يحدث الآن ليس سوى غمامة صيف لن تلبث أن تتلاشى أمام صحوة قلبه بمجرد طرق منى له، أغمضت عينيّ واستسلمت له، كنت أُمنّي نفسي بالكثير الكثير مما لا يمكنني تخيله حتى، تخيلت نفسي أنثاه الوحيدة وحلمه الذي لن يصحو منه وطفلته التي لن تكبر أبدا وأمنيته التي ستتحقق، ولكن كل ذلك تلاشى بلحظة حين همس لي في غمرة بكائه بحضني: منى!

فانتفضتُ كعصفورٍ بلله المطر، فخذله جناحاه وما عاد يقوى على الطيران،

فتلقفته أعين الصيادين وأطلقت صوبه رصاصاتها وأردته صريعاً وظلت عيناه معلقتين بالسماء..

سحبتُ نفسي من حضنه وجريت للخارج، في حين بقي مصدوماً على الأرض ينظرُ إليّ، وكأن خرَساً أصابه فما استطاع مناداتي، لربما أنه خاف أن يُخطئ مرة أخرى، أو لربما أنه نسيَ اسمي، وما عاد يعرف هل أنا منى أم فاطمة أم أنني أخرى لا تمت لاحداهما بصلة".

(8)

أيا بعضي

أيا كُلّي

أيا ترنيمتي الأشهى إذا ما جُدتُ باللحنِ

تعالي رمّمي المهتوكَ من ضلعي

ولا تَعَثي بسِترِ الشوق حتّى ..

تنجلي ريّانةَ الأحلامِ في بِضْعي

تعالي خبّئي وجهي بكفّيكِ

بعينيكِ

تمادي في دَمي عمراً ..

أحبيني

بعد أن خرجت فاطمة من المنزل وصلتني منها رسالة نصية: «أحتاج لأن أخلو بنفسي بعيداً عن أي أحد وأن أتخذ قراري دون أي مؤثرات، سأخبر أهلي أني مسافرة إلى بيروت لحضور مؤتمر نسائي، طبعا أنت تعرف أن الأمر غير صحيح فوزارتنا لا تبتعثنا لأي مؤتمرات خارجية، ولكن أهلي البسطاء لا يعلمون، لذا أرجو ألا تسأل عني لديهم لكي لا ينكشف الأمر».

حاولت الاتصال بها فور استلامي لرسالتها، كان هاتفها مغلقاً، رباااه! كيف يمكنني الوصولُ إليها والاطمئنان عليها؟

لو تعلمين أن خوفي عليكِ يبتلعني كأفعىً مريضة تنفثُ سمها بدمي وتلتف على قلبي وتعصره فلا تسقط منه قطرة دم واحدة لأنكِ سلبتِ كل دمي حين رحلتِ.

القلقُ طفلٌ مشاكس، لا يتوقف عن اللهو بخوفي عليكِ، أراهُ ينشطرُ إلى ألف طفل، ولا أملك ألف قدمٍ لأجري خلفه، وكل واحد منهم يطلب مني أن أتبعه ليرشدني إليكِ، فأجري متلفّتاً في كل الاتجاهات، حتى إذا ما أنهكني الجري سقطت على الأرض لأكتشف أن عجزاً سرق قدمي ومضى.

مصابٌ بداء الوفاء أنا، فلماذا تخليتِ عن علاجي، لماذا تركتني وأنت

تعلمين أن كل العلاجات الكيماوية ما استطاعت استئصاله من روحي، ولا نجحت في تقليص حجمه في صدري، وأنتِ الوحيدة التي كانت تبارك هذا الورم النابت في صدري، لماذا استنكرته الآن؟ لماذا لم تحاولي استئصاله بيدكِ علّني أتمكن من الحياة كما يجب؛ ألستِ أنتِ التي كانت تقول أن الوفاء داءٌ حميد لا يجب علاجه لأنه كلما تعاظم بداخلنا ازددنا سمواً؟

لماذا تنكّرتِ الآن لكل وعودكِ لي بأن تعيدي لي الحياة التي شاكست السماء ذات حُلمٍ فخطفتها نجمة وقبل شروق الفجر كانت قد هربت بها بعيداً ولم تعد، ومن يومها وأنا أبحث عن نجمتي الشاردة وما أشرقت، وحين سألتُ عنها قالوا لي: أنها نجمة تظهر كل مائة عامٍ مرة، والمحظوظُ هو من رآها، ماذا عمن سرقت عمره ومضت؟ أيُعتبرُ محظوظاً أيضاً؟ أم بائساً قليلَ الحظِّ ما عاد له أملٌ بعمرٍ جديدٍ؟ ماذا لو لم تُمهلني الأقدار مائة عامٍ أخرى؟ هل سأفنى وأنا أنتظر نجمة قلّبت عُمري بين كفيها كبضاعةٍ مُزجاة وحين أعجبها سرقته وهربت.

ليت للسماء أبواباً وأطرقها باباً باباً علّ أحدها يُفتحُ وأراكِ تختبئين خلفه فلا مكان يليق بنبلكِ سوى السماء، أو ليت لها سلالمَ أرتقيها كلها بخطوة واحدة، أنا الذي كنت أخشى صعود الدرج دائماً لكي لا أكون مجبراً للنزول وكأنه كان يمثل لي كل ما أرتقي إليه بحياتي ويتهاوى من يدي دفعة واحدة، ولكنني هذه المرة مستعدٌ لأن أرتقي السماء وأقطفكِ من منتهاها حورية لا تجرؤ بشرية على التشبه بها، وتتمنى الجنيات التمسح بطيفها علّه يسمح لهن بالظهور لأعين البشر.

أخيراً أدركتُ أنني بلا عمرٍ أجره خلفي كخيباتي المتلاحقة بدءاً بمنى التي نفضت يدها مني ومضت إلى حيث لن أكون، وامتداداً بكِ وأنتِ تخلعينني ثوباً مهترئاً لم يستركِ من أعين الشوق ولم يمنحكِ الدفء الذي يُهرّبُ الشتاء من ثوبكِ ككلبٍ أجرب لم يجد ترحيباً، فهرب والحجارة تجري خلفه وتتوعده بفقء عينيه إن عاد.

تكتضُّ رئتاي بأنفاسٍ لم أعهدها، جميعها تلهثُ باحثة عنك، تتسارع في دفق الشوق إلى أوردتي دون أن تمنح رئتيّ فرصة تنقيته، وأكحُّ غيابكِ سُعالاً يُشقق صدري، ينقصني الكثير من الأكسجين، والكثير من الحب، والكثير من الشوق، والكثير الكثير من الصدق والوفاء، أشعر بالاختناق، تنقر دماغي خيباتي المتلاحقة، ألمٌ يتصاعد من أدنى جبهتي إلى آخر جمجمتي، يظل يصعد بالذاكرة إلى أعالي الوجع ثم يهوي بها سريعاً دون رحمة إلى أقاصي الانهيار، وأسقط بين عمرين وموت، فاقداً اسمي وهويتي، مصاباً بنزيفٍ حادٍ في الذاكرة.

اسبوعان مرا من دون أن يأتيني خبرٌ منكِ قد يُصبّرُني على غيابكِ، أو يمنحني التماسك لأقف صلباً أمام نفسي التي عرّتني من شهامتي ورجولتي حتى أكلتني أعين المرايا وهي تسألني عنكِ وعما فعلته بك، وما اقترفته في حق أنوثتكِ وحنانكِ، وكيف جازيت احسانكِ إساءةً تجعلني أرخي جفني خجلاً من دمعةٍ تستحلفني بالله ألا أُسقطها؛ وتسقط.

أربعة عشر يوماً بلياليها، لم أذُق فيها طعم النوم إلا حين يباغتني فجأة دون أن أشعر لأصحو فزعاً حين ينقر رأسي كابوسٌ قاتل بأن ثمة ما أصابكِ بعيدا عني، وأبقى شارداً أخاطب جدران غرفتنا عنك، أثرثرُ لها كثيراً عن يديكِ الناعمتين وكيف أنهما كانت تمسحان الهم عن صدري كلما أطبقت عليه الحياة كهذه الجدران التي أخاطبها الآن وهي تضيقُ علي، ثم أطرق السلالم علّي أسمع صدى خطواتكِ على الدرج، فلا أسمع سوى هسيس قدمي يسألني عنك، ألوذ بالمطبخ علّني أجدكِ هناك تُعدُّين لي عصير المانجو بالفراولة الذي أحبه، كل شيء هنا يسألُ عنكِ، كلُّ شبرٍ اعتاد أن تطأه خُطاكِ ما احتمل غيابك، وأنا؛ الويل لي من نفسي إن لم تعودي، ماذا قد أفعلُ بنفسي؟ هل أقتلني لأستريح وأُريحُ قلبكِ من عبء حَمْلَي ظلاً ميْتاً وسنيناً ذابلة، أم هل أحملني بعيداً وأرحلُ أنا الآخر إلى أرضٍ لا يعرفني بها أحد، ولا يلومني على وفائي بها أحد.

أربعة عشر يوماً ما تركتُ عادة علمتني إياها في حضورك إلا وأدمنتها في غيابك، الكثير من الرسائل التي أرسلتها لكِ ولم تصلك، كل التي وصلتكِ ولم تردي عليها، جميعها بعثتها لتتوسّلكِ العودة، أرقي الذي سرّبتُه لهاتفي عبر كلماتٍ ما أوفتكِ حقكِ من الحضور في الغياب، وقُبلاتٍ ختمتُ بها كل رسالة وما لامست جبينكِ، شفاهي التي نسيت اللوذ بالكلمات عدا التلذذ باسمكِ كل آن، والسؤال عنكِ كل حين، جميعها ما استطاعت أن تمنح قلبي السكينة التي يترقبها منكِ.

ـ صباحٌ يباغتني بلا وجهك، وبلا أصابعكِ تتلكأُ في عبورها على شفتي أو تتعرجُ في سيرها على وجهي لتوقظني، وبلا كوب الشاي من يديك مُدللاً بإغفاءةٍ يُغيظني بها كلما أبصرتُهُ مستلقياً بأمان بحضنِ كفّكِ، وبلا عصافير تناديكِ من نافذة غرفتنا وتنتظركِ لتفتحي لها وتُطعميها صوتكِ وأغنياتكِ وبعض الخبزِ المُفتت من يديكِ..

ومساءٌ يجلدني بسياطِ هلعي عليكِ، ويرميني على قارعة غيابكِ، بلا أقمار ولا أضواء ولا شُرفاتٍ تتسعُ لضيقي دونكِ، وبلا [تصبح على خيرٍ] و[أحلامك جنة].

ـ الفجرُ اختبأ في حقيبتكِ وغادر معكِ، فمنذِ ذهبتِ وهو لا يُشرق والليلُ طويلٌ طويل، والسهرُ أنهكني وأنا أعدُّ دقائقه الحارقة، والصحوُ عدوٌ يتربصُ بي كلما خطفتني غفوة.

ـ نبتةُ الورد التي غرستِها بجوار الباب بدأت بالذبول رُغم أني أسقيها كل يوم، ولكني عجزتُ أن أمنحها سحر يديكِ ودفئهما، والصقيع في يدي يحمل الموت لوردتك، حاولتُ كثيراً إغراءها لتوشوشَ لي بأسرارِكِ التي همستِ لها بها فلربما كانت تعرف مكانك فأصلُ إليكِ، ولكنها آثرت الذبول على أن تشي عليك..

ألن تعودي لتمنحيها بعضاً منكِ في شكل حياة؟!

ـ كيف أنتِ؟ هل تبكين؟ هل ضحكتِ منذُ غِبتِ؟ وهل يخذلكِ الصبر أم يُسلّيكِ عني؟ هل تنتظرين رسائلي هذه بفارغ الصبر أم أنني لم أعد أعنيك

ولا ترين برسائلي ما يستحق القراءة فليست سوى حماقات رجل ما صان ما بيده وحين انساب مضى يتعقب أثره فوجد الشمس قد سرقت كل أثر؟ هل يتنازعكِ الشوقُ والحنينُ والكبرياءُ أم أن كل المشاعر تساوت لديكِ وما عدتِ تشعرين بشيء؟.

ـ كل شيءٍ يبدو بخير، فالأشجارُ مكانها على ذات الأرصفة، والعصافير تغدو وتروح على أعشاشها، والبشر يتسابقون لأعمالهم يحملون رغباتهم ونزواتهم ويعبرون بوابات الحياة واحداً تلو الآخر، نعم كل شيءٍ بخير إلاي أنا وأنتِ، تجرّعنا الغياب دواءً مراً واضطررنا لبلعه حتى نشفى، وما شفينا، ظلّ الوفاء يسلبنا صلابتنا يوماً بعد يوم، أصبح كمتلازمةٍ لا نتعرفُ علينا إلا بها ـ وإياكِ أن تُمثّلي الصلابه وتدّعي الشفاء مني ـ فأنا أعلمُ أنكِ مثلي لستِ بخير دوني..

ـ اليوم هو ذكرى زواجنا، أشعلتُ الشموع لكِ ونثرتُ الورد على السرير وانتظرتكِ لتأتي، وما أتيتِ، كنتُ قد راهنتُ على حضوركِ في هذا اليوم بالذات، وما مرّ ببالي أنكِ قد تخذليني، هل نسيتِ هذا التاريخ الذي قلتِ لي يوماً أنه بمثابة ميلادٍ ثالثٍ لكِ، فقد وُلدتِ يوم رأيتني في الجامعة لأول مرة وبقيتِ تحتفلين بذلك التاريخ وحدكِ حتى تزوجنا وصار يوم زواجنا هو يوم ميلادكِ ورفضتِ أن تمنحي يوم ميلادكِ الأول احتفالاً يليقُ به لأنكِ كنتِ ترين أنْ لا يوم يستحق الاحتفال كهذا اليوم، فهل تحتفلين به الآن وحدك مثلي، بلا أصابعنا لتتشابك وبلا يديكِ تحيطُ بعنقي وبلا يدي تلتفُّ على ظهرك وتفتتنُ بسحركِ..

ـ اليومُ لا يمضي، والغدُ لا يأتي، وأنتِ بسطتِ يدكِ على كل العمر يا فاطمة، وأخشى من لساني أن يفضح خوفي عليكِ فأصرخ لليل أن انقضي ففاطمة تخاف من الظلام وأترك المصابيح مضاءة لكِ، وأُفضي للقمر ليهمسَ لكِ أني اشتقتُ إليك عودي، فهل أخبرك أم أنه تآمر مع كل شيءٍ ضدي، واصطفاكِ له خليلةً دون سواكِ، إن كان فعل فلا عتب عليه ولا لوم، من ذا الذي يعرفكِ ولا يخرُّ من عليائهِ صريع عينيكِ.

ـ هذا الصباح توضأتُ طُهركِ وصافحت الصدق في عينيك وذهبتُ لأصلي أن تعودي إلي فما عدتُ أحتمل يوماً آخر لا يهمس بك في أذني تاريخاً من الأساطير والخرافات التي تأتي بعرباتٍ تقودها الأحصنة لتحملنا إلى حيث نشاء من النشوة، ولا تختفي حين تدق الساعة معلنةً انتصاف الليلِ..

ـ الخامسة عصراً؛ ذهبت إلى محل الحلويات واشتريت لكِ الكثير من الشوكولاته التي تحبينها، كما اشتريتُ لكِ آيس كريم الفستق وبقيت أنظرُ إليه وهو يذوب على لسانكِ ثم مسحتُ ما علق بشفتيك بأطراف أصابعي وقبلتكِ وصحوت..

ـ الساعة السابعة صباحاً ولا زلت جاثياً على مقعدك في الحديقة، البارحة لم أقل لكِ شيئاً، لم أعاتبكِ، ولم أخبركِ أن صبري بدأ يتهاوى ويأخذني في دوامة من الصمت الذي لا يعي الأحاديث الدائرة حوله، وأنني لم أعد أملك من عينيّ سوى ذلك الشرود في فضاءٍ لا كوة أنفذ بها منه إليك..

ـ هل أخبرتكِ أنني من يومها لم أُغلق أبواب المنزل خشية أن تأتي ولا تجدي من يفتحها لكِ وترحلين متعللة بأنكِ نسيت مفاتيحك، ولا تعودين..

ـ صباح اليوم افترشتُ الطريق بجوار المنزل فلربما مررتِ ذات حنين، لو تعلمين عدد السيارات التي طاردتها لعل أحدها كانت تقلك؟!

ـ في المستشفى ومحلول التغذية الوريدي يتدفق في دمي ليمنحني يوماً آخر من الانتظار، ولكنني لستُ متيقّناً أن هذا الجسد المرمي على السرير الأبيض يمتُّ لي بصلة..

كم علّمتكِ أن تُذيبي الليل في فناجين القهوة، وتفصّلي النهار على مقاس أحاديث رفيقاتك لترتدي التّسلي عن غيابي بالكثير من الأعمال، ولكنكِ كنتِ تقولين أن روحكِ لن تكون حية إلا بي، لماذا تبرأتِ مني الآن وما عُدتُ ذاك الذي يحتّل تفاصيل روحكِ الرقراقة كأنهارٍ من عسلٍ مصفّى وأنهارٍ من خمرٍ لا يُسكر، ولماذا لا أتتبع نهج دروسي الآن، لماذا أرسمكِ قمراً في لياليّ الحالكة، وشمساً لم تتعلم المغيب بعد؟!

ـ الغد خائنٌ يا فاطمة، لا يأتي إلا ليبصق في وجهي شمسه الحارقة، ويخرج لي لسانه وهو يضحك علي وأنا عارٍ منكِ، من يسترني وهو يتلصص علي وأنا أخفيني في غسق حُلُمٍ بشّرني بعودتك، فهيأتُ نفسي لاستقبالك ونظمتُ لكِ الكثير من القصائد وغلفتها بعاطفتي التي لم أخبركِ عنها قبلاً، ولكنه فاجأني بوجهه ينتزعك من بين أصابعي، وتسربتِ مع خيوط شمسه وأعميتني عن رؤية الحياة وعيناي تسترقُ النظر إليكِ ورغم ذلك لم أركِ..

أقسمُ أنني لن أطأ هذا البيت إلا معكِ، دعيه للعنكبوت تنسج شباكها به، امنعي عنه الشمس والهواء، اقتلعي عرائش الياسمين التي غرسناها معاً، فلن يضمني دونك سوى الطرقات بحثاً عنك ، لن أُبقي شبراً إلا وسأبحثُ عنك فيه، وبمفردي دون أن ألجأ لأحدٍ لمساعدتي في البحث عنكِ، فما أضعته بإهمالي يجب أن أكرس جهدي لإيجاده، ولن أعود إلا وكفك تمارس سطوتها على كفي..

حبيبتي..

عودي إليَ..

وأنا أعدكِ أن الشمس ستشرق حين عودتكِ مرتين، ولن تغرب إلا في عينيكِ، وأنني سأغفو على صدركِ كثيراً، وسنرتب أحرف الكلماتِ معاً، وسنطير للسماواتِ معاً، وسنشْرَقُ بالجنونِ معاً، فقط عودي..

عودي إليّ..

لنُعيد لملمة عشقنا في عناقٍ سيطول كثيراً حتى تهدأ روحينا الثائرتين، وينساب الحزن من أضلعنا كطائرٍ خرافيٍ انقرض منذ أمد لن نذكره وسننساه معاً، ونتناسى اضطراب قلبينا ساعة ارتعاش الوجد، ونلملم خفقاته التي تبعثرت زمناً طويلاً وأعلمُ أنني أنا من بعثرها ومنحها تذكرة عبورٍ إلى الأرضِ التي تبلعُ العشاق ولا تلفظهم أبداً، وأنني أنا من رماها حافية على قارعة الغياب، ولكني اليوم آمنت ان الحب أكبر من مجرد ذكرى استعمرتني طويلاً وآن أوان التحرر منها، الحب وجهٌ آخر نرتديه كل صباح ونغفو على

ملامحه كل مساء، الحب كلمة تخرج من شفتيك فتستقرُ في قلبي، الحب رنة هاتفي كلما اتصلتِ، الحب رئتي التي أستنشق بها عبيركِ وشفتي التي أستلذُ بها حضورك..

اشتقتُ إلى اتصالكِ الصباحي وكلمة حبيبي تخرج من شفتيكِ كقطعة سكر، اشتقت لجملتك التي ما مللتِ تكرارها كل صباحٍ ومساء: «اشتقتُ إليك « وما كنتِ تشعرين أنها كانت تهزّني فأتساقطُ ضلعاً ضلعاً، وما أخبرتكِ أن صوتك كنغمةٍ سحرية من فم قيثارة وما أخبرتكِ كم أحبكِ كطفلٍ خرج لتوّه من رحم أمه التي ماتت أثناء ولادته فتشبث بكِ أماً رآها لحظة فتح عينيه..

صغيرتي فاطمة..

خذيني بعيداً، حيث لا ضوضاء تشغلني عن سيمفونية صوتك الرقراق في أذني، ولا أشلاء للحزنِ في تلابيبِ فرحكِ، ولا أبواب تُغلق في عيون الفجرِ أو أطفال للفقر في عالمنا الموبوء بالمجازر والمجاعات والأجساد التي يتربص بها الموت، حيث لا أحداق يستوطنها الدمع ولا شفاه تشاطرنا الحزن، ولا جدران شائكة لمدننا المدفونة تحت أنقاض القهر، حيث أنتِ لا سواكِ يستعمرُ روحي ويعيثُ بها عشقاً وجنوناً وينثني مني إليّ..

دعينا نغفو ونصحو بلا عمر ولا ذاكرة، وَلْنَزْمِ خلفنا كل السنين التي لم تجمعنا ولنبدأ عمراً من نبيذ عينيكِ، ولنعتّق معاً قلائد الشوق لنسكر في ترنيمة عشقٍ لا تنتهي.

لنتفق إذن أن نطوي الحزن طي السجل للكتب، لا يهم أن نمحو ما سجلنا بصحائفنا، المهم أن ننسى، أن نُقلّبَ صفحات الفرح بطفولةٍ تشبه روحكِ، كما لو أننا أمام ألبوم صورٍ مليء بالمفاجآت المدهشة والتفاصيل المغموسة بالضحكات المرتفعة كضحكاتك حين كنتُ أخبركِ عن قصة (الفأر إللي قحم الحظار) ـ التي كانت ترويها لي جدتي، حين كنتُ أتجمعُ أنا وإخوتي حولها صغاراً ـ والمفارقات التي حدثت معه بدءاً من الشوكة التي طعنته إلى منحها لامرأة تخبز لتوقد بها النار، وبعد أن رأى النار تلتهمها طالبها بها أو استبدالها برغيفٍ من الخبز، ولأن الشوكة كانت قد احترقت لم تجد المرأة مناصاً من منحه رغيف خبزٍ طازج، ثم استبدل الرغيف بدجاجة والدجاجة ببقرة والبقرة بحصان، ونحن نسمع باندهاش المُصدقين، يالَدَهَاءِ هذا الفأر، ولو أن عقلاً خاطبه لقال: أنه هو من طلب استخراج الشوكة المغروسة في بطنه ورميها بالنار وبالتالي لا حق له بها، لذا فإن كل مطالبه باطلة، ولكننا ببراءتنا أو سذاجتنا لم نكن نفكر سوى بالنهاية التي ستوصلنا لها حكاية جدتي ومن سينهزم ومن سينتصر، لا أصدق الآن أننا كنا حمقى لدرجة أن نُصدِّق أن فأراً يُكلم امرأة ويتحايل عليها ويغلبها على الرغم من أن الفئران تعتبر من أذكى الحيوانات حسب ما أثبتته الدراسات العلمية، حكاية تراثية كالحكايات العالمية التي تأتي بها الرسوم المتحركة ووالت ديزني إلينا، ولكن حكاياتنا لا تبتعد أبعد من آذاننا الصغيرة، وأكاد أجزم أن أطفالنا لن يسمعوها أبداً، كم نحن محظوظون بسذاجتنا تلك، هل تذكرين يا صغيرتي كيف كنتِ تطلبين مني إعادةسردها دائماً، وفي كل مرة كنت تضحكينِ وكأنكِ تسمعينها

لأول مرة؟ هيا يا طفلتي: قلّبي معي ألبوم الطفولة والفرح واسكبي الدمع على أول صفحةٍ منه واتركيه هناك ليجفّ وامضي معي إلى الصور التي تليقُ بكِ وتأسرها عيناكِ، لوني وجهي بابتسامتك الجذلة وعطريني بأنوثتك وتلمّسي بأصابعك طريقاً يوصلكِ لعيني ويقتص لكِ من قلبي الذي آذاكِ كثيراً دون أن يشعر بالذنب، آن لكِ أن توبخيه لينتهي، أن تعاقبيه ليرتدع، أن تثرثري له طويلاً ليتعود الاستماع دون أن يُقاطعك بأخرى تقف في حنجرته.

كيف ترحلين في الوقت الذي كنتُ أهيئ نفسي لأهبكِ عمري وأحلامي وحياتي، ماذا أفعل بالتذاكر التي قطعتها لأفاجئكِ برحلة شهر عسلٍ في جُزر المالديف، حيث نستأجر جزيرة هادئة لا نجتمع بها إلا بأرواحنا وعشقنا الذي نضج وتدلّى وآن قطافه.

هل كان خطأي أنني أردتُ أن أفاجئكِ بإعلان حبي لكِ بصوتٍ عالٍ أصرخُ به بعيداً حيث لن أخشى أن يتلصص علينا أحد الجيران أو الأهل أو عابري الطرقات، وأن أُشهِد على وفائي لكِ الأشجار والبحر والسماوات السبع وكل غيمةٍ تمرُ بها وكل نجمةٍ تتدلى منها، وأن أخطفكِ كل مساءٍ من حضني وأهربُ بكِ إلى عيني، ثم أستلّكِ من عيني وأنفيكِ لحضني؟

هل كان الأولى بي أن أخبرك باكتشافي المتأخر أنني ما عدت أحتمل الحياة بعيداً عنكِ، مشقوقاً بصراعٍ بين وفاءين، ما نفعُ مفاجأتي الآن وقد اخترتِ الرحيل دون أن تتركي لي طريقاً يُرشدني إليكِ؟

كيف تعيدينني لدوامة الحزن مرة أخرى لأغرق دونكِ وحيداً ضائعاً، ولا

أجد يدكِ تمتد لي لتنتشلني من السقوطِ بين براثن الموت.

حبيبتي..

عودي؛ لنعيد صياغة الحزن في تراتيل فرحٍ لا تنتهي، وهذه المرة لن أنسى أن أدعو في كل صلاة أن تبقي حارسة أحلامي ما حييت.

عودي؛ وأنا أعدُكِ أن نهزّ أشواقنا لتتساقط أطفالاً جميعهم ينتمون إليكِ، أبرياء من كل حزنٍ، عُتقاء من كل هم، لا يعرفون سواكِ أماً لهم، أريدهم أطفالاً ثرثارين ليقتصّوا لكِ من أذني الصمّاء، أريدهم مشاكسين يتقاذفون ضحكاتنا ويسكنون اهتماماتنا.

عودي قبل أن أموت كَمَداً، وترتعش خطواتي وأنا أبحثُ عنكِ، وتُغريني الأرض بالانزواء إليها، وتتخطّفُني السماء ولا أعود.

(9)

شيءٌ في صدري يحترق

إذ يمضي الوقت فنفترق

ونمد الأيدي

يجمعها حبٌّ

وتفرقها طرق

وأحس بشيءٍ في صدري

شيءٌ كالفرحةِ

يحترق

الشاعر أمل دنقل رحمه الله

آآآآآهٍ يا حبيبي..

يا رجل التفاصيل المُربكة والحكايات الفارهة، من أوحى للسماءِ لتُمطركَ حتى كِدتُ أغرق، وما لعينيكَ من سبيلٍ؛ فكيف أُنقذُني من الموت؟

كثيرةٌ هي الامتحانات التي توقعنا بها الحياة، ولكن أقساها هو ذاك الذي خيرني بين إجابتين لا ثالث لهما: أنتَ أو أنتَ، واحترتُ أي الاجابتين أختار فكلاهما توصلني إليك وتأخذني منك، كتلك الخطوط المتوازية التي لا تلتقي أبداً مهما امتدت ولو كان امتدادها إلى ما لا نهاية، الآن عرفت لماذا كانت الرياضياتُ تحيرني، لأن قوانينها لا تعرف الثبات أبداً، دائماً هناك ما هو قابلٌ للتقريب زيادةً أو نقصاناً، وحكايتي معك لا تعرف الثبات، يتضاعف حبي لك مع كل ثانية يمتد بها عمري، وتتناقص الآمال باكتمال هذا الحب مع كل يومٍ يقتربُ به أجلي.

أتلذذُ بانتمائي إليك، أنا المخلوقة من ضلعك لا أكتملُ إلا بك، لا أريد أن أتساوى معك، أريد أن أبقى دائماً تلك الضعيفة التي يقوى عودها إن استندت إليك، أن أبقى طفلتك المدللة لا أكبر أبداً، أن تمارس عليّ قوامتك الشهية، أريدني ناقصةً كأنصاف الأشياء وأنت نصفي الملتصق بي لا أحيا إن افترقنا، ولكن ما أشاؤه لا يتوافق ومشيئتك، أنت البعيد جداً، لم أنجح

في اختبارك لي حين سألتني قلباً لا يتألم، وتألمتُ كثيراً حين رأيتها تستوطن عينيك وأنا أحاول التسلل إليهما كلما غفوت، فتنتبه على حركة غير معتادة وتفرك عينيك لتطرد ذلك الشيء الغريب الذي علق بهما، ولا تعلم أنك تسحقني كرحىً ما انتفضت يوماً لتلك الحبوب التي تتلاشى تحت وقع أزيزها وهي تدور وتدور ولا تترك حبة إلا وأتت عليها، تلك الحبوب هي دقات قلبي التي تتوارى من جفائك لتحيا على بارقة أملٍ أنك ستُخلصها ذات يوم قبل أن تطحنها رحى جفوتك.

ربما لم أُخبركَ قبلاً عن لذة "أحبكَ" حين كنتُ أنطِقُها من جرحٍ بأقصى حنجرتي، لتصلك بيضاء لا يشوبها حزن وتبلل قلبك الظامئ لها أو هكذا أوهمُ نفسي وأصدقني، وتتسعُ دائرةُ التِيهِ الغارق في لذة العذاب، وترتجفُ شفاهُ الليلِ مع كلِّ رشفة عشق، أو كلمةٍ مسروقةٍ من فمِ طفلةٍ نطقت كلمتها الأولى بعد تأتأةِ الصمتِ المسكونِ بالخوف..

أنا التي أشرتُ لقلبك ذات يوم وهمست: هذا وطني، هذا جنتي، وشطبت كل الحدود وثرت على نفسي وأتيتكَ طائعة، وما كنتَ لي!.

أنا التي كفرتُ بكل ما عداكَ من حياة، وأقسمتُ أنك الأرضُ وما حوته من سنابل قمحٍ تمايلت مع زغب الضوء وتمرد الهواء، وسكبتُ لي منكَ كأسات جنونٍ حتى أسكرتني وترنّح صدري بين ألفك وفائي، وارتديتُك مِعْطفاً من دفء النايات وتواتر الحنين.

كنتُ أخشى أن الحبّ الذي خبأته لك في صدري لن يكفيك لتربو في

روحي ورَبَوْت، ولن أتمكن من سرد أحداثه في حكاية يبتسم لها أحفادي، وصَدَق حدسي!

كنتُ أخشى ألا يكون قادراً على جعلك تبتسم ليغفو وجعي على ابتسامتك طويلاً طويلاً، ولتبعث في داخلي ألف أنثى وتتراقص في كبدي ألف طفلة.

منذُ أن أحببتك وأنا أصلي لربي أن ألتقيك ذات عشقٍ يُثمر طفلاً يشبهك كثيراً، يكون قطعةً مني وقطعةً منك، وكم تخيلتك تتحسس وجوده في أحشائي وتعض خدي حين أخبرك أني سأحبه أكثر، ولا أخبرك أني أكذب فلن يكون حبه سوى عشراً من عُشرِ مثقال حبك، وكم رأيتنا نتشاجر على تسميته قبل أن نتفق على أن يحمل اسم أبيك، وكم اختلفنا على لون غرفته، ونوعية ألعابه، وكم دعوت الله سراً وجِهاراً أن يهبني إياكَ قلباً لا ينبت به سواي، كم دعوتُ أن يبقيك اللهُ في عمري أبداً، وكم غرستك للجنة عشقاً، وللدنيا رجلاً أمنحه الأبوة كطفلةٍ تنتشي بحضنه وأنا في عزّ أنوثتي، وأهديه الطفولة كأمٍ تناغيه وتمسح عن جبينه غبار الحزن والخوف والتعب وأنا في قمة تعبي، وكأخٍ تستمع له وهو يهذي بأسراره ويخبرها عن أخرى تسكنه وتبعث لها معه الرسائل الملغمة بعبارات الوجد، كم تمتمتُ باسمك في دعواتي، وما شككتُ يوماً بأن صلواتي لن تأتي بك، حتى سمعتُكَ تُؤمّن خلفي: اللهم لا تستجب..

أحببتك باندفاعٍ ولم ألتفت خلفي وأنا أمضي إليك وأصومُ عن كل الرجال

وأنت لغيري، وما طاوعني عقلي إلا في حبك رغم أنه ختم بإبهامه على جنون ذلك الحب، ورُغمَ أنه شهد بعبثية تشبثي بالهواء وارتمائي بأحضان الريح، حتّى تلاشيتُ كلّي أمامك وما عُدتُّ أعرفُني أو أشبهُني بامرأةٍ تراودني عن قلبك وتضحكُ كلّما استعصيت عليها وامتنعت منها..

أشتاقني كثيراً، ثمةُ فقدٍ يستوطنني، لا زال ثمة أحرفٍ مفقودة بلغتي لم أتعلمها بعد ولم أعتد نطقها، ولا زلتُ أتلعثمُ وأتأتئُ: حبيبي، ويذرفني المساءُ بصمتٍ كئيب تتلاشى معه ملامحي وأرتبك: من أوصاكَ بقتلي؟ طفلتكَ التي ما أطفأتَ شموع ميلادها أنا، من هداكَ لقطفِ أوراق عمري هامساً: أحبك، لا.....، أحبك، لا.....، ومع كل ورقة يسقط قلب، ومع كل ورقةٍ يتوقف نبض، ومع كل ورقةٍ أفقدني، لتصرخ منتشياً وأنا ألفظُ أنفاسي: أحبك؛ حين لا أكونُ معك!

كنتُ أظن أنني إن تطهرتُ من عشقكَ سبعاً سأنسى؛ وما نسيت، بقيتُ متلبّسة باسمك حدّ الهذيان آناء الليل وأطراف النهار، متشبثة بعينيكَ كآخر وطن، واستمر سؤالك لي كل مساء: أخبريني كيف أحببتني؟ وكم تحبينني؟ وتسكنني البلاهة كثيراً وأنا أبسطُ يديّ ثم أُرخيها يائسة: أكثر من أكثر شيء!

الحبُّ هو الفاصلة بين الحياة والموت، هو أنت/أنا حين نصبحُ أنا/أنت

الحبُّ هو صِدقُ أرواحنا وأنين قصائدنا، هو أحبارنا المُعلّقة على الورق بمشاجب الكلمات، هو ثرثرة قلوبنا الصامتة دهراً والناطقة عشقاً.

ولأني بقيتُ مؤمنة أنْ لا رجل يشبهك وأنك لن تتكرر في تاريخ الرجال

عشقتك حدّ اهتزاز صدري لكلمة تخرج من فيك ولو كان اسمي أو اسمها..

تتلاشى معالم وجهي، تنكرني مرآتي، وأراك، نعم أراك تحتلُّ كل تفاصيلي وأنا التي أثبتّكَ وأنا أحاول إنكارك، وتذكرتك كلما حاولتُ نسيانك، كم صمتُّ وما أسعفتني كلماتي، مجبرةٌ أنا صدقني على ابتلاع الصمت ووأد كلماتي التي ما فتئت تغتابك كلما هممتُ بالنطق، أتُراها تسعفني أبجديتي إن نسيتك أم أنني سأبدو كخرساءَ نطقت للتو أحرفها الأولى وكان اسمك أول وآخر ما نطقت، فنادتك ومضت تردد اسمك على كل من يمر بطريقها..

وتهبُّ رياح البعد فتنحت دمي لتُسقطك منه وأنزفني دمعةً دمعة، وتبقى هنا، حيثُ لا أحد سواك يحتلني.

حين تهجرُ شخصاً لأنك تحبه، فإنك تموتُ مرتين: مرةً في داخلك ومرةً في داخله وما بين الميتتين: حياةٌ تشبهُ الموت!

رباااه!

كيف أتخلصُ منك ورائحتك تُزكمُ دمي، وأنفاسك تتقطع بصدري، وحبكَ جنينٌ كفرَ بالأشهرِ التسعة وبقيَ مرابطاً برحمي، وأنا التي ما عدتُ أحتمل.

تُرى كم عِرْقاً سيتقطعُ معك وأنا أحاول إبراء قلبي منك، وكم روحاً بداخلي ستُزهقُ بفقدك، وكم نَفَسًا سيُسْلَمُ بغيابك..

منذُ أن تركتك وأنا أحاول أن أفرّغ ذاكرتي في حقيبة سوداء لا أرى بها شيئاً لو فتحتها يوماً، نزعت من صدري كل الكلمات التي همستها لك

والقصائد التي كتبتها عنك والأغاني التي تخيلتُ كثيرا أنها ما كُتبت إلا لنا والطرقات التي مشيتها إليك، والأماكن التي ارتدتها لأنك تحبها، وفي غمرة انشغالي بتبرئة ذاكرتي من ذنبٍ لم تقترفه يوماً نسيتك هنا وأغلقتُ حقيبتي ومنحتها أول متسولٍ طرق وجعي، وحين التفتُ رأيتكَ تضحك على سذاجتي.

لا أرض، ولا سماء، ولا بشر، فقط أنا والكثير الكثير من الحزن، وصمتٌ يُطبقُ على صدري، إنه يخنقني وأكادُ أموت!

لا أُتقنُ الهذيان، أنا فقط أحاولُ ترقيعي ببعضه علّني أجدُ بعضيَ الذي فقدته حين كممتُ فاهي وصرخت!

لاتزالُ أذني تثرثر لي بأحاديث استعارتها من أفواه الآخرين عن حبيبتك التي رحلت وأخذتك معها، أُدخل إصبعي في أذني لأُسكتَ الضجيج، ثمة صدى يتأرجحُ بداخلها، يبدو أنني لا زلتُ في غيي، وتتساقطُ روحي على عَجَلٍ، وبلا ذنبٍ لها أو وجلٍ تمضي نحو حتفها.

مُحبطة!

وكأني نحتُّ في الماء فلم أجنِ سوى تعبي!

يخونني صدري، إنه يتنفّسك وأنا أجري، كشاردةٍ من الريحِ والإعصارُ يسبقني وأقف، بلا حولٍ ولا قوة مني.

الآن؛ وأنا أمضي دونك أستودعك سنين عمري التي أورثتُها قلبك الذي

نبتُّ به كزهرة ياسمين في صحراءٍ ما أروتها، وحين ذبلت تساءلتُ بعجب: كيف لها أن تموتَ وأنت ماؤها، حتى أيقنتُ أن الحب غاض بصدرك وما عادت جذوري قادرةٌ على التشبث به أكثر أو التسلل لأعماقه أكثر.

كل الدروب التي وقفتُ بها أنتظرُ قدومك أقسَمَتْ لي بأنك لن تأتي ولكني كذبتُها وراهنتُ على حضورك في دمي، هذه الدروب ذاتها تبرأت من أقدامي، وكلما حاولت المُضي في أحدها وجهني لآخر، وما دللتُ طريقي إليك، ضاعت كل جهاتي وارتبكت سُبُلي وما أتيت، وما أثمر انتظاري حضورك..

أحلامي العظيمة التي تمادت في رُقيها للسماء اصطدمت بكَ هُناك تُصلي لأخرى، فتلاشت كالدُخان، أُقسمُ أنني حاولتُ كثيراً لملمتها في كفي ولكنها كانت تتسربُ من بين أصابعي، وكلما أدركتُ حُلُماً سقط آخر، حتّى سقطّتُ كلّي وأنا أحاول الجري خلف أحلامي لالتقاطها، وحين فتحتُ كفيّ وجدتهما خاليْن..

الآن؛ وأنا أقفُ على شفا جرفٍ من الرحيل، وأُباري بكَ هديل حمامةٍ فقدت أطفالها في يومٍ عاصف، أتساءلُ:

أتراكَ ستعرفني إن جمعتنا صدفة؟ هل ستُشبّهُ عليّ، أم أنك ستمرُّ بجواري وكأنني الهواء الجامد لن أُحرّك فيكَ ساكناً، وسأبقى أنا جامدة بعدك وكأن روحي غادرتني معك، أرقبُ خطواتك وهي تنتعلُ قلبي وتذروه هشيماً تنفرُ منه الأرض وتقذفه السماء؟

كم حملتُ أحلامي وأتيتك أجري وتعثرت بها على مشارف عينيك حين أبصرتُ بهما أخرى كانت تسكنهما ذات يومٍ ورَحَلَتْ تاركةً إياك بلا عينين قد تُبصرُ بهما سواها، فما أبصرتني، ولا هبّت يداك لتتلقفني، وسقطتُ..

هل كانت أمي تستقرئ ما يحدث معي الآن حين أصرت على رفض زواجي بك وظلت تردد: الرجل يا ابنتي لا ينسى حبه الأول أبداً، وخيرٌ لكِ أن تتزوجي رجلاً لا تعرفينه بدلاً من الارتباط برجلٍ عشت حبه السابق، لن ترتاحي أبداً وستظل منى رحمها الله حاضرة بينكما تقاسمكما اللحظة واللقمة، كان بودي لو أعترف لها أنني أحببته قبلها ولا زلت حتى الآن أتلذذ بعشقٍ لم آخذ منه سوى التهميش، وددتُ لو أقولُ لها: حتى النساء حين يعشقن بصدق لا ينسين أبداً، انظري إليّ، احسبي عدد الأعوام التي سرقها حبه مني وأنا أنتظره كمن ينتظر المطر والسماء تشتكي قسوة الشمس وحر لهيبها، لماذا أصر أبي على زواجي من ابن عمي وظل يردد: يا ابنتي القريب أولى من الغريب ـ وكأنني قسمة ورث أو متاعٌ يوزع على الأقارب بدءاً بالأقرب ـ هل كان كل ذلك دعوةٌ من القدر لي لأتراجع عن قرار زواجي منك؟ لماذا وقفت أمامهما يوماً وقلت: صليت استخارة وأشعرُ بالارتياح التام لزواجي من أحمد، وكذبت، لأنني لم أُصلِّ، فقد حسم حبك خياري، الاستخارة للمتشككين، ولمن لا يملكون القرار، وقراري كان رهن قلبي، لم أكن محتاجة لأن أصلي لك استخارة، أو هكذا ظننت، أيعقل أن انتكاستي الآن هي نتاج كذبي، أتراني لو كنتُ صليت الاستخارة يومها اختلفت أقداري، هل كنتُ سأراك في الحلم تطردني بعيداً عنك وتتشبثُ بمنى، هل ستأتيني بشكل

سقفٍ يتهاوى عليّ، أيعقل أن صلاتي لن تتأثر بما يعتمل في نفسي؟ وماذا لو كنت صليت لك ورأيتك تمنحني الفرح، هل كانت أحلامي لتكذب عليّ؟ هل كانت أقداري لتتغير لمجرد أن أصلي استخارة قبل أن أُقدم على أمرٍ ما؟

ماذا لو ذهبت الآن لأشتكي لأمي؟ هل ستفهمني؟ أم أنها ستلومني لأنني لم ألتفت لنصائحها وهي تلقيها عليّ، ماذا عن دعواتها لي دُبر كل صلاة؟ لماذا لم تثمر توفيقاً؟ ألأني لم أكن بارةً بها ولم أتلقف نصائحها وأدسها في روحي؟

هل سيلومني أبي لأني لم أتزوج بابن أخيه الذي أصبح أباً بعد أن تزوج بأخرى غيري، وأنا التي ما بللت رحمي نطفة، هل كنتُ لأسعد معه، هل سيُنسيني أحمد الذي يسكنني كصلوات التائبين وخشوع المُصلين، هل ستهجرُ قلبي حين أُصبحُ أماً، ماذا لو بقيت بداخلي وحُلت بيني وزوجي، هل كان سيراك مُخبئاً في أثوابي، هل ستباغته أصابعك حين يهم بلمسي فيتراجع ناكصاً على كبده لاعناً كل القلوب الوفية، ماذا لو أنني نسيتك، هل كنت سأعشقُ بعدك، أيعقل أن قلوبنا قد تتسع لأكثر من عشق، هل حقاً أننا نعشقُ بعدد الحجرات في قلوبنا، إذن يفترض أنني قادرة على عشق ثلاثة آخرين غيرك، أم أن الأمر هذا خاص بالرجال وحدهم، لماذا إذن لم أنجح في حجز حجرة بقلبك وبقيت منى تتربع على عروش حُجراته الأربع وحدها

يقولون إن الجسد مقبرة الحب، هل كان عشقي لك ليخف لو أن جسدينا التقيا ذات رغبة، أم أن الرغبات تتوالد بداخلنا حتى تملؤنا وتحتل دواخلنا، وكلما سلمنا أنفسنا لرغبة راودتنا أخرى عن نفسها، وهل كان حبك لمنى

تناقص لو أنها لم تمت، وبقيت بجوارها تُلقمك جسدها كل احتياج؟ وتنفث أنوثتها بدمك فتحيلك رجلاً لهاً كل آن؟ أم أنه سيتضاعف كلما سربت جزءاً من جسدها لفمك، أو تناولتها كقرصٍ يخفف حدّة الصداع الذي بات يلازمك كاسمك بعد أن رحلت وتركتك وحيداً من كل شيءٍ عداها.

تعبتُ من كل شيء، حتى عملي الذي يرميني دائماً على قارعة الحكايات، والقصص التي لا تنتهي، أصبحت حياتي مزيجاً من أحاديث مسمومة بالوجع، وتساؤلات لا تجد إجابة وإن بَحثتْ عنها، أو بحث أصحابها عن تفسيرٍ يلائمها ويليق بالحزن الذي يترك نُدبه على أرواحهم، لربما لو أنهم وجدوا إجاباتٍ شافية لحيرتهم لتخلصوا من آلامهم التي لا تبارحهم.

الجميع يلوذ بي، وأنا أحتاجُ لمن ألوذ به، أشعرُ أني كـذاك الطبيبُ الذي يطبّب الناسَ وهو عليلُ، وعلّتي لا دواء لها، يئست من البرء منك، يقولون إن رغبة المريض في الشفاء هي أساس أي علاج، لا شيء يُسلم المريض للموت مثل استسلامه له، وأنا فقدت إيماني بالحياة، تداخل يقيني بالمُسلمات مع شكي بالأماني، وحدها الأمنيات تمنحنا دقائق إضافية من العمر بعد انتهاء الرغبة، وأنا فقدتُ رغبتي ولا أماني تمنحنى فرصة البقاء.

ما رأيك لو تبادلنا قلبينا؟

هل كنت ستحتمل ما يعتملُ بداخلي الآن؟

هل سيكون من السهل عليك نفض وجودي كما تنفض فراشك قبل أن تنام وتغفو دون أن تتشبث بي كآخر نَفَسٍ يربطكَ بالحياة؟

هل كنتَ ستنسى كل صدّي لك حين تتبعثر بين يدي ولا ألمُك، وستمسح غضبك مني قبلةٌ ميتة كالتي كنتُ تُهديني إياها حين أشتعلُ فألوذ بصدرك لأنطفئ؟

وهل ستتوارى خجلاً من ثورتك حين أهمسُ لك أحبك وأنت تعلم أني كاذبة كما كنت أفعلُ وتفعل؟

وهل كنتَ ستشهق باسمي بين قُبلةٍ وأخرى تستشعر طعمها في فمك وحين تفتحُ عينيك تجد نفسك وحيداً؟

هل ستسرق عمرك وتمنحه لي في قبلة تطبعها على جبيني؟

هل ستقيس حبي لك بقدر اليقين الذي تمنحني إياه بأنكَ لي وما كنتَ لي؟

هل سترتبُ نبضات قلبك على وقع همسي: "أحبك"، وتتركني لأتوالد في صدرك سِراعاً وتمنحني حميمية أضلعك ودفق دمك؟

هل ستُتقنُ لعبة الغياب كما أتقنتُها، وتنسى وجهك بالمرايا وتستبدله بوجهي؟ كل التفاصيل الصغيرة، لونُ عينيّ، نداوة شفتيّ، وتلك الجفون الغارقة في زحمة حضورك، أتراك قادرٌ على التلبّسِ بها في غيابي، هل سيكون وجهي جهتك الخامسة حين تختل بوصلة أحلامك وتَضِلُّ طرقاتك؟

هل سيصغر عمرك عشراً حين أقبّلك ؟وهل ستسرق قلوب العشاق لتحبني بأكثر من قلب؟ وهل ستطلب من الله أن يمنحك أكثر من روح

لتموت بي وتحياني مرات عدة؟

هل ستحبني كما أحببتك؛ وطناً من غمام، وكلمات ممشوقة العاطفة، وبقناعةِ تملؤها كلمة، لأحيا كأميرةٍ توّجت لتوها على عرش دولةٍ أرضها ثابتةٌ ورايتها في السماء، ولا تعودُ تُبالي بالسلاطين إن حاولوا تدنيس طُهر وفائها لأرضها الناتئة من أقصى ضِلْعٍ بصدرها؟

هل ستتسِعُ عروقك بي كلما ذبتُ بها؟ وهل ستثورُ دِماكَ كإعصارٍ لا يُوقفه زمانٌ ولا مكان؟ وهل سأضيء بشراييِنك كبرقٍ ولّدَهُ عِناقُ غيمتين دون أن ينطفئ بمجرد أن يلمسه الهواء؟ فتُخضِبُ بي أمسياتك اللاهثة خلف نجمةٍ آفلة؟

هل سترمي أضلعك في مواقد الحنين لتدفئني إن باغتك البردُ فجأة؟ وهل ستُغلِقُ نوافذ الليل بوجهِ الظلام كلما أغمضتُ عيني؟

هل من سماءٍ ستمطرُ هذا المساء قناديلَ ملونة؟ أم أن هناك أرضاً ستتفجرُ ينابيعَ وأراجيح ستحملني إلى حيثُ لا حزن ولا دمع ولا ذكرى تؤرقني؟!

هل؟ وهل؟ وهل؟ ولا إجابة قد تشفع لك ما فعلته بي

حتماً أنا أعلمُ أنني لستُ البداية التي انطلقت منها أُمنياتك قبل أن تُطلقَ صافرةُ القَدرِ بدءَ الحياة، ولكني رجوتُ ألا أصل معك أبداً لتلكَ النهاية التي تأخذنا بعيداً لجهتين لا تؤمنان بالتلاقي، وحلمتُ بأن أكون جهتكَ التي تصِلَ إليها دون هُدىً ودون أن تبحث عن بوصلة ترسم لك وجهتك، وترصُدُ

لها نذورك وأُضحياتك وتراتيلك الصادقة..

بِتُّ أعلمُ أنني مشطوبة من دفاتر قلبك، فما نفعُ بقائي؟

لماذا أطالبك بالبرء من منى، وأنا التي ما برئت منك؟ كيف أجرؤ على مطالبتك بالتضحية بحبيبتك في الوقت الذي أتشبثُ بك حتى آخر رمق؟ كلما بحثتُ عن ملجأٍ منك ألوذُ بك وألتجئ إليك، أي حماقة هذه التي ترافق حياتي معك، وأي تناقضٍ هذا الذي يحوم كشبهةٍ حول عشقي لك، وكأن أقدارنا تترنح بين قلبينا المعجونين بالوفاء، الذي يتغلغل عبر شرايينهما ليروي كل شبرٍ تتسلل إليه دماؤهما، أنا أحبك وأنت تحب أخرى، أترى معي حجم الظلم التي تطوقني به كخاتمك الذي ألبستني إياه خاوياً منك، قطعة ذهبٍ باردة كشتاءٍ لا ينزف المطر فحسب، بل يُعري أرواحنا ويتركنا للحيرة تنهش ما تبقى من جيفنا التي أكلها الجفاء قبل أن تطالها الأرضة وتذروها تراباً كما كانت قبل أن تُولد.

إنها قِسمةٌ ضِيزى صدقني هذه التي اقتسمناها ذات عشق، كلانا ظن أنه نال ما اشتهى، وتردى من عُلوٍ حين اكتشف أنه حصد الريح من قِفاره ومضى مزهواً بحصيلته من الوهم، وحين فتح جُعبته وجدها خاوية، هل كان إنصافاً أن أعشقك حتى تصبح عينيّ اللتين أُبصرُ بهما، وشفتيّ اللتين أتحدث بهما، وقلبي الذي ينبض بداخلي، وأنت تلوذُ بأخرى تهبها ذاتك حيةً وميتة.

إن كان ثمةُ ما أستطيعُ لملمته؛ فقد آن الأوان للملمة شظايا روحي..

أحتاجُ لذاكرة بيضاء خالية من كل الوجوه حتى وجهك، وفضاء لا يمطرك

كل حين، وأياماً لا تهرمُ بي دونك، وأقداماً لا تقودني إليك..

أحتاجُ أن أمضي إلى حيث لا أراني لكي لا أراك..

أعلمُ أن هذا الرحيل سيقتلني، وسيشرِّدُ آلاف الفراشات من صدري، وسيطحنني برحى الصبر، ولن يُبقي ولن يَذَرَ عِرْقاً إلا وسيمتص دمه، فأنت لستَ مجرد عابرٍ تركَ أثرهُ على خطوط يدي.

هل تعلم بمَ أشعر الآن؟ حسناً؛ دعني أعترفُ لك:

أعترفُ أنني لم أحبك كما يجب، لذلك سيأكلني الندم ما حييت لأنك لم تصنّي كما يجب.

وأعترفُ أيضاً أنني أدمنتك حتى باتت كل قطرةٍ بدمي تطلبك، ولكني لن ألومك لأنك لم تُحرك ساكناً وأنا أنهشُ قلبي الذي يطلبك كنبضه.

وأعترفُ أنني الآن ألوذ بضعفي وقلة حيلتي وأسأل الله لك مغفرةً بحجم هذا الوجع المتمرد بصدري وأكثر.

وسأعترفُ أن البرد زائد عن حده هذه الأيام وبدأت أشك بأن ملابسي الشتوية جميعها مغشوشة.

ولن أنسى أن أعترف أنني أشعرُ بالخدر ولا أتألم، وأنني أضحك ولا أبكي، وأشاهد التلفاز وأثرثر ولا أحب غرفتي ولا ألوذ بفراشي.

أخيراً سأعترف أن جميع اعترافاتي الواردة أعلاه صادقة إلا واحد.

وداعاً يا أحمد، ولك الدعاء والصلوات يا حبيب العمر ويا زهرة أيامي المغروسة بدمي..

أسألُ اللهُ لي الصبرَ والسِلْوان

وأن يغفِرَ لكَ ما تقدّم من حزني وما تأخر..

والسلامُ عليكَ..

يوم أحببتُك

ويوم قتلتني

ويوم تنكسِفُ شمسٌ حين يُشرقُ صبحي دونك!

(10)

وينك حبيبي خايفة؟

طَبْطبْ على قلبي بكفِك لا يموت

لا الليل جاب الحلْم ..

لا صحّاك

أو علّم أمانينا على الدنيا تفوت

بعد أن أودعتُ رسالتي صندوق البريد تذكرتُ أنني لم أكتب العنوان على الظرف، أصلاً أحمد لا يملك بريداً خاصاً به، يالَتشتتي بعيداً عنه!

ألتفتُ خلفي، ليس ثمة صندوقُ بريدٍ في المنطقة على مدّ بصري، ليس سوى البحر والشارع وبعضُ حاويات القُمامة..

ما الذي يحدث؟ يبدو أني مرهقة قليلاً، وأحتاج لبعض الراحة والصفاء الذهني.

عدت أجر خيبتي كمن نفض عنه شتاءً وارتدى خريفاً، ولا تسألوني كيف يسبقُ الشتاءُ الخريفَ فأنا حقاً لا أعلم، كل ما أعلمه أن حياتي بدأت تنحى منحىً لا يشبه الطبيعة في شيء..

أعود لغرفتي بالفندق لأعيد إرسال رسالتي لأحمد عبر بريده الإلكتروني، وبمجرد فتحي الباب أتعثر برسائل مرمية على الأرض، يبدو أن أحدهم أحضرها ورحل، كانت ثلاث رسائل،كُتب على الظرف الأول: إلى أحمد وفاطمة وحياة أخرى معلّقة على تخوم الانتظار، وكتب على الثاني: إلى أحمد مع باقة حبٍّ ذبلت، وكتب على الثالث: إلى فاطمة ،كفى!

أبدأ بفضّها واحداً تلو الآخر:

الرسالة الأولى:

كل شيء يبدو جميلاً، أحلامي المزركشة بمصابيح العرس، وخاتم الخطوبة الذهبي الموشى باسمه، وسواري الذي ترصع بالزهور اللؤلؤية،و ..... أحمد..

أحمد الذي انتقل بي مبكراً من عالم الطفولة البريء إلى دنيا الأنوثة الطاغية والثائرة والمتمردة، وعالمٍ من الأحلام الوردية المُورقة، والجنون الذي لا يعترف بالعقل ولا تراوده الأفكار بمنطقيتها، بلمحة بصرٍ انتشلني من عالمي إلى عالمه، بنظرة أصبحت لا أرى إلاه ولا أحلم بسواه ولا أنطق إلا باسمه، ومنذ ذلك اليوم وأنا أخرى، كل الوصايا التي لقنتني إياها أمي عن الرزانة والتحلي بالمسؤولية واسم العائلة والابتعاد عن الشبهات والكثير الكثير، كلها ما عادت تعني لي شيئاً فالمهم في الأمر هو أحمد..

أحمد الذي لم أعرف كيف أحبه بالقدر الذي يستحق وبالقدر الذي يُرضي غروري الأنثوي، هل كنتُ مُضطرة لأن أحكي عنه للعصافير وأخبئه في جذوع الأشجار؟ أم هل أستبدل اسمه بنبضات قلبي الثائرة والتي تكاد أن تتطاير كعصافير شاردة من قفصي الصدري دون مبالاةٍ إن كانت ستصادف الحياة أو الموت بعيداً، أم أُقبّلُ رجليه صبحاً ومساءً إنْ منحني قلبه بلا مُقابل وإن كنتُ منحتهُ كلي قبله، أم ماذا أفعل لأُثبت له أني أحبه، حسناً لا أدري، سأقول له: أحبك؛ وكفى..

أحمد الذي تتسع رئتاي وتتمادى اتساعاً كلما طرقها بكلمة «حبيبتي» على شاشة هاتفي الفقير إلا من رسائله التي لا تتركني ساعة دون أن تشاكسني،

فأنسى أني في الجامعة أو في حضن والدتي أو هيبة والدي فأسترق نظرة لهاتفي كلما رنّ وارتجف على وقعه قلبي، غير مبالية بتذمر أمي من كثرة تعلقي بالهاتف لأجيبها باحتجاج دائم: لا أدري متى سيكون مسموحاً لي أن أتواصل مع رفيقاتي بحرية؟! ولا أدري عن أي رفيقاتٍ أتحدث، فلا أحد سواه يستدلُّ طريق هاتفي وصديقة وحيدة لن أذكر اسمها الآن لأني واثقة بأنكم تعرفونها، ولا مكترثة لنظرات أبي وهو يسلطها عليّ كلما تركت الاستماع لأحاديثه الطويلة لأبتسم على وقع كلمة «أحبكِ» ثم أمررُ ابتسامتي إليه فيبتسم ممتناً ويواصلُ حديثه..

أحمد الذي منحني تجربة العشق الأول واللهفة المتسلطة، عرفت معه لذة العناق الأول والقبلة الأولى، ولذة الاختباء خلف الأشجار والمشي على الظلال والتواري عن أعمدة الإنارة، ومتعة الجري على الرمل ومشاغبة الأمواج، واستنطاق الصمت والاستماع للصدى، أن أركض للشمس وأصرخ فيها أن اغربي لكيلا لا يرانا أحد، ثم أصرخ لها أخرى أن أشرقي فأنا مشتاقةٌ إليه، أن أمدّ له كفي ليقرأها فيتلعثم ويمطرها قُبلا، فأخطف كفه وأقرأ: عاشقٌ حتى الثمالة، و «حبيبية قلبك يا ولدي ساكنةٌ في قصرٍ مهجور» فلتطلب يدها ولتخطبها ولتتزوجها ولتهرب بها بعيداً عن حرّاس القصر، فيسرقني مني ويجري بي نحو البحر وأنا أضحك وأنسى عينيّ مغمضتين فأنا بين يديه وأيُّ طريقٍ قد أَضِلُّ وهو هُداي..

أحمد الذي أثبت كذب مقولة: الحب أعمى، فقد كنتُ بصيرةً حين أحببته، ومن يومها وأنا أرى كل شيء جميلاً، وتسكنُ السماءُ في كل أرض،

ويُزهرُ الغيمُ في ظل الشمس، ويتلون البحرُ بقوسِ قزحٍ ويُبحرُ به بعيداً ليهديهُ لأمواجه لتلهو به قبل النوم قبل أن يبعثره الغيث..

أحمد الذي علمني أن أضحك وحدي كلما تذكرتُ كلماته ووجهه، وألا أُبالي إن رآني أحدهم واستغرب بلاهتي، أن أختم تسوقي بزيارة لمحل فساتين الأفراح لأختار أيها سأرتدي يوم زفافنا، وفي كل زيارة أكتشفُ أني ما أحسنتُ الاختيار في المرة الماضية وأختار آخر وأبعث صورته لأحمد ليهتف: واااااو! سيبدو رائعاً عليكِ ويختم جملته بغمزة، وما مللتُ وما ملَّ من تعدد خياراتي وعدم استقراري، فالوقت لا يزال طويلا وسنين الجامعة لا زالت تكتم على قلبينا اللذين قاربا على الشيب وهما ينتظران، أن أتلون بأصباغ ألف أنثى، وأُعيذه من كل حاسدٍ، وأفقأ كل عينٍ تتلفتُ إليه، وأستطيرُ بحبه من كيد النساء ومكر الرجال، وأهربُ به منه ومني إلينا معاً..

أحمد الذي خططتُ معه يوم عرسي ومكانه ورحلة شهر العسل، حسبنا معاً كل دقيقةٍ أين سنقضيها وكيف سنملؤها بفقاعات الجنون والغرام ثم نفرقعها في قلبينا المتلهفين، وكيف أننا سنزرع في كل مدينةٍ نزورها وردة، وكيف سنعود طفلان يرقصان على وقع عازفٍ متجول، وكيف لن نُبالي بالمارة ولن نلتفت للغرباء، وكيف سنشتري الحلوى ونوزعها على العشاق والعجائز والمتسولين ،وحتى المتلصصين سنمنحهم بعض الحلوى ولن نستثني أحداً، وكيف سنطلب منهم جميعاً أن يباركوا حبنا، وكيف سنصنع من الرملِ قلوباً ونرسم حرفينا على الماء ونغطي آثار خطواتنا بأوراق الأشجار المتساقطة حتى لا يتبعنا أحد..

أحمد الذي همستُ له يوماً:

ـ خبئني في الغيم يا أحمد

- بل سأخبئك في عيني، فأنا أخشى أن يأخذك الغيم بعيدا، أو يمطرك في غير أرضي

- وأيضا في عينك قد تسقطني دمعة

- يتوارى الدمع خجلا من ابتسامتك

- وماذا إن رأوني في عينيك؟

- سأغمض عيني، فلا حاجة لي للإبصار بعدك

* ومضيتُ بعيدا، خطفتني غيمة صيف وما أمطرتني، وبقي يستهدي الظلمات طيفي علّه يرتد بصيرا..

كم حلمنا وتمنينا وخططنا وما حسبنا أن كل ذلك لن يأتي، وأن تذاكر الذهاب التي قطعناها ما حملت درب العودة، وظللنا بعيداً نتخبط في الغياب من مدينةٍ لأخرى، ولم نصل، ورأينا قطارات العشق تحمل الأفراح عاشقين عاشقين، وأنا صعدتُ وحدي حين باغتني الوقت وما كنتُ متأهبةً للرحيل، فصعدتُ أنا وبقيت يدي معلقة على الباب تنتظره أن يأتي وما أتى ،وفي انتظاره ذاك خطفتهُ يدٌ أخرى امتدّت لتعانق يده، وتمضي بها مسرعة قبل أن أعود، وما علمتْ أني لن أعود..

الرسالة الثانية :

أتلمّسُ وجهي بعينيك ولا أجدني، ما عدت أملك تلك الملامح التي أحببتها، ولا عاد لي قلبٌ ينبض بحبك، ليس سوى الموت وحده أعرفه ويعرفني، وجدران ترابية تضيق عليّ وتتوسع بحسب ما يُرسلُ باسمي من دعواتٍ إلى السماء.

نامت المرايا يا أحمد، وما عدت أعرفها ولا أقف أمامها لأتهيأ لك كي تراني دائماً جميلة، وإن أردت أن أحدثك فلن أحدثك إلا عن التراب وما تفعله به الريح، لا أعرف سوى حكايات النباتات التي نبتت على قبري وظلت توشوش لي عن عشقٍ لم يُبتلى بوصال، وتشتكي ظمأها وأن السماء لم تُمطر أخيراً، ولساني توقف عن الحديث منذ دفنتني أو قبل ذلك بشهرين، ولربما أنني قد أُتاتئ إن حاولت نطق اسمك بصوتٍ عالٍ، وقد لا أستطيع

القطط السوداء والكلاب الضالة كلها تستعمر المقابر ولا تتركها، وكأنها تعرف أننا نشعر بالوحشة وحيدين لا مؤنس لنا، فتأتي لتؤنسنا، هل تذكر أنني كنتُ أخاف من الكلاب؟ نباحها يشعرني بأن ثمة ما ينبئ بالشر، وهل تذكر كيف كنتُ أستطير من القطط السوداء؟ ما عاد أيٌّ منها يُخيفني، لا يُشعرني بالخوف سوى النسيان الذي يداهمني كل حين، ولا أتمكن من التملّص أو الاختباء منه.

حبيبي أحمد..

لم أتخيل يوماً أن تكون لأخرى، وما كنتُ لأقبل بذلك لو كان الأمر

بيدي، ولكني أراكَ تنفرطُ من يدي كسنين عمري التي تساقطت دفعةً واحدة، أعلمُ أن لا ذنب لك، فمن يحتمل الغياب ولا يُصادق النسيان؟

ومن تصادفه امرأة كفاطمة ولا يستشعر معنى الحياة ويلاحق فراشاتها المتطايرة في أفقه؟

ها أنا الآن أُطلُّ عليك من برزخي لأخطف روحي من صدرك علّك تنسى!

أصبح البعدُ هو الخيار الوحيد لروحي الظامئة لظلال غيمةٍ لن تأتي بك.

آن الأوان لأن أمضي بعيداً حيث لا حياة ولا ظلال للذكرى وحيث لن آتيك في أحلامك ولن أقف كحائطٍ متداعٍ أمام عمرك المتبقي، ولكني أعدك أني سأغرسك في الجنة نخلة تدلت أطرافها وحملت ثمارها كأمٍ رؤوم تحتضن أطفالها، هناك لن أتنازل عنك وسأدعو الله ليلاً ونهاراً لتكون لي وحدي دون سواي، ولتعذرني فاطمة لأني لن أقبل أن تشاركني بك، من يدري فقد تهبني إياكَ في الجنة كما تنازلت عن حبها لك حين علمت عن حبنا في الجامعة!

ها أنا ذي أتخلى لها عنك، كما فعلت هي من قبل، الفرق بيننا أنها سلمتك لي بإرادتها، وأنا مجبرة على التخلي عنك لها والانزواء بعيداً حتى لا أنغص عليك سعادتك، واحدةٌ بواحدة يا صديقتي وموعدنا في السماء، وهناك ستحاول كلانا امتلاكه والغَلَبَة لمن تمنحهُ فرحاً أكثر.

يكفي ما ضاع من عمرك في الطريق الذي كنت تتلمسه خلفي وما علمتَ أن الطريق إليّ لا نهاية له، ولن تصل مهما ركضت، حتى حجارته التي يلعقها

حذاؤك لن تشي بمكاني، وستمشي حتى تتفطر قدماك ولن تصل إلا لفراغٍ لا تستوعب عينيك مداه.

آن لك يا حبيبي أن تذاكر النسيان كطفلٍ ما انتبه لشرح أستاذته وباغته موعد الامتحان قبل أن يستعد، ولم يعد أمامه سوى احتضان كتابه، وتجميع أحرفه المتناثرة ككلمات تمت لما يعرف بصلة رغم أنه يقسم أن المعلم لم يشرحها أبدا، ولا بأس من اعداد بعض البراشيم التي قد تساعدك على النجاح.

وفي غمرة زهوك بنجاحك تذكر أن تمنحني بعضاً من صلاتك في كل فرض، ودع لسانك رطباً بالدعاء لي، ثم أطلقني كيمامةٍ برية وامضِ إلى الحياة بصدرٍ منشرح.

الرسالة الثالثة:

صديقتي فاطمة..

الموت حكايةٌ أخرى وبداية مجهولة لا تنتظر الخاتمة، لذا لا تُنبّشي عن الحياة بين أرفف الموت.

أعلمُ أني كنت قاسيةً عليكِ في الأيام الماضية، لم تكن قسوةً يا صديقة عمري بل كان امتحاناً لصبركِ وحبكِ لأحمد، قبل أن أُسلّمَهُ لكِ ـ أحمد الذي أحببناهُ معاً وظننتُ أني ظفرتُ به وما علمتُ أن الأقدار تخبئه لكِ في جيبي، حتى رحلتُ فانتشلتُه من صدري وسلمتهُ إليكِ ـ ولأعلم مدى استعدادكِ لأن تصمدي وتضحي من أجله كما ضحيتِ قبلاً من أجل صداقتنا خصوصاً أنكِ فاجأتني بحبكِ له قبل أن تُبصرهُ عيني، وأنكِ تنازلتِ عنه لأجلي، ولو كنتُ مكانكِ ما سلّمتُ حبي لأخرى ولو كانت أختي، ولكنكِ أثبتِّ لي أن الصداقة ثمنها غالٍ جداً وقد دفعتِهِ لي بنفسٍ راضية،لهذا السبب ربما أعادهُ اللهُ إليكِ.

كيف لم أُبصره في عينيكِ وأنا أتلو عليكِ حبَّه آناء الحُلمِ وأطراف الصحو، وكيف لم تصرخي في وجهي أن كفّى، لقد تعبت، وما عاد هذا المُجوّفُ في صدري يحتملُ أكثر، وكيف لم تتركيني أهذي وحدي وأبكي وحدي وأضحك وحدي، وكنتِ معي كظلي حين يأخذني إليه وأنتِ معي كخيالٍ ما ملّ من تتبع خطوي، وما سمحتِ لدمعكِ أن يتسلل إلى عينيكِ فأبصرهُ وأسألكِ: ما الأمر؟ بل اكتفيتِ بمنحي ابتسامتك الدائمة كنورسة اعتادت أن تُقبّل الشطآن وتهمس في أذنها قبل أي سفرٍ: لا تكتئبي، فجناحي لن يحملني بعيداً حتى أعود طائعة، وهكذا أنتِ يا صديقتي ما ذهبتِ عني إلا

إليّ كلما عبثَ بكِ الوَجْدُ وخفتِ أن يُرابط بعينيكِ فأُبصرُه فتبتعدين عني قليلاً حتى تهدأ ثورة روحكِ ثم تعودين كغمامة ناصعة البياض تُقرئين روحي السلام..

هل تذكرين المقهى الذي كنا نرتاده كل صباح، لنرسم في أكواب الشاي وجهينا وكيف أني كنت أضع وجهه في الملعقة وأحرك بها الشاي دون أن أضع به السكر وتضحكين عليّ: لم أرَ كجنونك ـ كيف ستشربينه مرّاً، وأضحك وأرفع رأسي بغرور: ومن قال أنه بلا سكر؛ وحبيبي أشهى قطعة سكرٍ قد تذوب بفنجاني؟ وتكتفين بأن تزمي شفتيك وتصمتين، فلا طاقة لكِ على مجاراة نزعاتي العجيبة حين يتعلق الأمر بأحمد..

حسناً حسناً..

وهل تذكرين حين كنتُ أقطفُ في كل صباح وردة من حديقة الجامعة وأتركِكِ خلفي تراقبين الوضع كي لا يضبطني أحدُ متلبّسة، ثم نهرب مسرعتين، دون أن يرانا أحد، وإن رآنا فعليه أن يلحق بنا لأننا حينها سنخلع نعلينا ونحملها في أيادينا ونجري، ولم نكن لنفعلها ولكننا كنا نشاكس أنفسنا بالضحك على تصرفاتنا الأقرب للجنون من عقل طالبتين بالجامعة، ولكن احداهما عاشقة، عُذراً منكِ فأنا لم أكن أعلم أن الأخرى عاشقةٌ أيضاً ولكن بصمت، ثم أُشيرُ إليكِ بغتة أن توقفي فأحمد ينتظرني هنا ولا أريده أن يرى سواي صباح كل حياة، فتديرين وجهكِ بعيداً وأمضي إليه أُهديه وردتي وقبلة لا تصل وصباح الخير من شفتين توردتا عشقاً، ثم أتركه وأمضي إليك حيث تكونين هناك تعانقين الوهم بصمتٍ، ونمضي.

لن أُطيلَ عليكِ ثرثرتي، فقد قررتُ الرحيل وتركِكِ تعيشين بسلام، أنا

التي حمّلتُكِ أكثر مما قد أحتملُ لو كنتُ مكانكِ، ولكنتُ تركتكِ تغرقين وحدك ونجوتُ بنفسي، ولكنكِ ما تركتني، وظللتِ تُمسكين بقشة الرجاء وأنتِ تتوسلين السلام لروحي، وبقيت صامدة وأنا أُمشّطَ روحك بذكراي كلما هممتِ بالنسيان، ورفضتُ أن أتركِكِ تنعمين بمن حال بيني وبينه قدرٌ كان لي به يدٌ كبرى حين انصعت لفرحتي وأطلقت العنان لأحلامي ونسيتُ أنّ التي أقودها وألوذُ بحماها غدرت بالكثيرين قبلي حتى غدرت بي، ورحلت..

وما رحلت، بقيت بداخلكم، أنتم من زرعتموني بعد الرحيل نرجسة بيضاء على مشارف الحياة، وظللتم تروون وجودي بذكرياتكم، وكلما هممتُ بالرحيل تشبثتم بي أكثر، لا تلوموني أن خطفتُ بعض الفرحِ منكم، فهناك حيث أنا نعانق السماء بذكرى، وتتخطفنا الطير إن ألبستمونا النسيان.

اقرئي روحي السلام يا صديقة، ودعيني أرقدُ هانئة، وكلما مررتُ بصدركِ دمعة اهمسي إلى الله: اللهم ارحمها، وثقي أنه سيسمعكِ، وأني سأبتسم، ثم أمضي بعيداً..

اتصلت بموظف الاستقبال لأستفسر عمن وضع الرسائل، أخبرني أن أحداً لم يأت أثناء غيابي، فسألته:

ـ ماذا عن عمّال النظافة؟

ـ أنتِ يا سيدتي لم تتركِ المفتاح لدينا، لذا نعتذر لأننا لم ننظف الغرفة هذا الصباح.

ارمي الأوراق على السرير، أشعر بهذه الأوراق تخنقني، بودي لو أتخلص منها، ولكنها أمانة وعليّ توصيلها، لا أدري كيف تمكنت منى من الوصول إليّ وأنا هنا، رغم أنني ضللتها كثيراً وهي تتبعني بعد خروجي من المنزل، مضيت بأكثر من شارع وارتدت أكثر من فندق قبل أن أصل لهذا الفندق البعيد تماماً عن توقعاتها.

تعترينى الربكة، يبدو أنني سأدخل مرة أخرى في دوامة منى، والحرب الناشبة بيننا منذ ارتبطتُ بأحمد وأخذته منها، رغم أنني حاولتُ كثيراً إفهامها أنني لم آخذه منها، هي لم تكن موجودة حين تزوجته فهي رحلت وتركته وحيداً، ولكنها لا تصدق، وتصر على أنني كاذبة خطفته منها قبل أن تصل إليه.

يبدو أن عدوى الصداع انتقلت إليّ قبل أن تترك أحمد، سأدخل لأستحم فأنا بحاجة لأن أستوعب الأمر، أن أفهم ما يدور حولي، وما يحدث معي ويزلزلني إلى الحد الذي أبدو فيه كغيمةٍ بددتها الريح ولم تكن أمطرت بعد.

الاستحمام أعادَ لروحي بعض الحياة التي افتقدتها، أشعرُ أنني كسماءٍ نفضت للتو شتاءً طويلاً، لم أكن أتخيل أنني وبعد كل ما حدث بيننا

سأتبعثر بعيداً عنه إلى الحد الذي يجعلني غير متيقنة من كل ما يتنازعني من صراعٍ بيني وبيني، لا بد أن أوصل الرسائل لأحمد، يا الله كم أشتاق إليه، ستكون هذه الرسائل هي حجة رؤيته دون أن أعترف له بأن الشوق ما أتى اخضراراً بروحي إلا وأينعه حتى تمادى بروحي ونما إلى الحد الذي لم أعد أحتمله، ولا بد من رواءه قبل أن يتغلغل بروحي أكثر بحثاً عن دمائي التي ما ارتشفها بعد.

حين خرجت لم يكن على السرير أية أوراق، ليس سوى صورة أحمد بابتسامةٍ تُغري شفتيّ بتقبيلها، أُقلّب الفراش وأنفضه علني خبأتها تحت الغطاء لكي لا يراها أحد، أو ربما سقطت تحت السرير، ولكن لا شيء، الغرفة خالية إلا مني وصورته التي لا زالت تبتسم لي، انظر إلى الباب لا يزال المفتاح بداخله، هل ثمة من فتحه وسرق الأوراق وذهب؟ أحرك الباب لأفتحه فلربما أنني نسيت إقفاله فدخل أحدهم وسرق الأوراق، ولكنه لا يستجيب، كل شيء كان يصفعني أن ثمة ما أراه وكل شيء حولي يُنكِرُه.

آخذُ صورة أحمد بين يدي، أمُطرها قُبلاً ثم أحتضنها،لكم أشتاقُ إليه، أُغمضُ عيني، فتتلقف أذني طرقاتٍ تلامس باب غرفتي، هل عُدت لأوهامي من جديد؟ صدى الطرْقِ يتردُ مُجدداً، أحملُ أحمد معي، وأفتحُ الباب..

للإطلاع على قائمة إصداراتنا :

بيت الغشام للنشر والترجمة

طبع بمطابع مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان

ketab4pdf.blogspot.com

ما وراء الفقد

يشتاق لكِ كل شيء، العصافير وهي تَعِدُ بعضها بالوفاء، الأطفال وهم يتسابقون للصف الأمامي بطوابير المدارس، الشمسُ وهي تخون الفجر مع البحر وتلدُكِ قمرًا مكتملاً تهبه لليلةٍ عقيم، المطر وهو يهاجر كأسراب النوارس ولا يعد غيمته بالعودة، وقلبي الذي علّق نبضه على شرفتكِ المهجورة لعلّ حياةً تدبُّ بها فتُغريك بالرجوع.

بيت الغشّام
للنشر والترجمة
ISBN 978-99969-59-55-4

ketab4pdf.blogspot.com